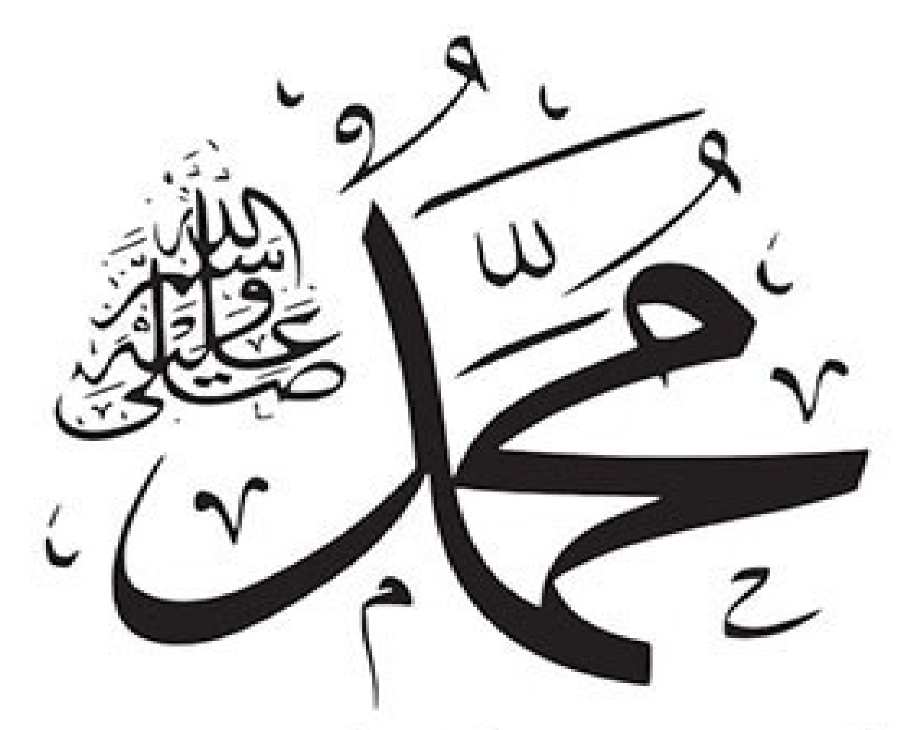


قراءة حديثة في سيرة رسول النور والسلام

حسين غباش



محمد صلى الله عليه وسلم
قراءة حديثة في سيرة
رسول النور والسلام

Image

محمد صلى الله عليه وسلم
قراءة حديثة في سيرة
رسول النور والسلام

حسين غباش

دار الفارابي

الكتاب: مُحَمَّد (ﷺ)

قراءة حديثة في سيرة رسول النور والسلام

المؤلف: حسين غباش

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى:كانون الثاني 2018

بسم الله الرحمن الرحيم

[يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46)]

الشكر والعرفان

في البدء أزجي شكري وعرفاني بالجميل للمرحوم الشيخ أحمد كفتارو، الذي أدخلني إلى عوالم الإسلام المحمدي، الذي لم أسمع عنه في الخطاب الديني المعاصر، إسلام التزكية والحكمة والحب والتسامح. فعمّق إيماني القلبي وحبي للرسول الأكرم. وألهمني، بفكره النير، كتابة هذه السيرة بلغة حديثة ميسرة، كما تمناها قبل رحيله. فجزاه الله عني خيرَ الجزاء.

كما أشكر الصديق العزيز الشيخ الدكتور ناظم عبدالملك، الذي بفضل إلمامه الدقيق بالسيرة النبوية، وثقافته القرآنية العالية، ساهم في إثراء معرفتي بحياة الرسول الأكرم، ما مكّنني من ضبط بعض أحداثها، وإخراجها على أفضل وجه ممكن. وأشكر الصديق العزيز الشيخ علي عوض على ملاحظاته القيمة ودعمه المعنوي الدائم.

وأخص بالشكر الأعزّاء والكرام، الذين لم ينقطع عني دعاؤهم ودعمهم المعنوي. وأولهم السيدة الفاضلة الربانية شقراء بنت صالح، «أم فهد» ، والدكتورة مريم سلطان، والدكتورة موزة غباش، والدكتورة رفيعة غباش. ولا أنسى جهود الصديقة ليلى سعيد، التي أخذت على عاتقها مهمّة إدخال التصحيحات، وضبط المراجع، وتجهيز العمل للنشر.

وفي الختام، لا بُدّ من كلمة شكر لزوجتي الفاضلة الدكتورة منى الرخيمي، على دعمها ودعائها الدائم، الذي سهّل لي الصعاب التي واجهتها، وأعانني على إخراج هذا العمل إلى النور.

فجزاهم الله عني كل خير.

المقدمة

ثمة أعداد تكاد لا تحصى من سِيَر النبي مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام، وبكل لغات العالم. منها من دنا من الحقيقة، ومنها من جانبها. وأول ما يخطر على بال من يفكر في كتابة سيرة جديدة، السؤال المشروع وهو: لماذا سيرة أخرى؟ وماذا يمكن أن تُضيف؟ وهذا ما سنحاول الإجابة عليه في هذا العمل.

من بين السِّيَر التاريخية المعروفة، هناك، أولاً، سيرة ابن إسحاق، التي كانت تعتبر سابقاً السيرة التاريخية الأهم. كتبها بعد وفاة الرسول بقرن تقريباً. وقد تُوفِيّ ابن إسحاق عام (151 هجري). لكن على أهمّيتها كسيرة مبكرة يجب أن تقرأ بحذر، لأن بعض المعلومات الواردة فيها تفتقد الدقة. وتحوي الغَثَّ والسمين.

ثم أتت سيرة ابن هشام، المتوفى عام (218 هجري). وهي عبارة عن تنقيح لسيرة ابن إسحاق. وبمرور الزمن أخذت مكان سيرة ابن إسحاق، وتحولت إلى المرجع الرئيس للسِّيَر. وهي لا شك أكثر تنظيماً للأحداث والأقرب إلى الدقة، لكنها تبقى سيرة تاريخية سردية، تجمع الكثير من التفاصيل التي لم تعد تهم إلا الدارسين المختصين.

ومن طبيعة السِّيَر السردية، أنها لا تقدم قراءة معمّقة للأحداث، وبالتالي، لا يمكنها أن تظهر الدروس الروحية والإيمانية العميقة، خصوصاً دروس التزكية والحكمة المُحَمَّدية، وهي جوهر السيرة. وبالتالي لا تعطي السيرة الشريفة حقها.

لا شك، أن كلاً منهما مهمة على نحو ما، بيد أن كلتيهما لم تعد تصلح اليوم إلا للدارسين والمتخصصّين. وليس بالتأكيد، للقارئ المعاصر. ونحن سنعتمد على سيرة ابن هشام، كمرجع رئيس لنا في العمل، بالإضافة، طبعاً، إلى مراجع أخرى، منها السيرة الحلبية، لنور الدين الحلبي.

وكتاب: صور من حياة الرسول، لأمين دويدار، وكتاب: زاد المعاد لابن قيّم الجوزيّة. وكذلك كتاب: المغازي للواقدي.

يبقى أن لكل عصر لغته ومصطلحاته وقرّاءه؛ فلم تعد اللغة التقليدية، التاريخية، السردية، مستساغة كثيراً، وبالتالي، ليست قادرة على إيصال الدروس النبوية وأنوارها إلى عالمنا اليوم. لذلك آثرنا كتابة هذه السيرة بلغةٍ حديثة، سهلة التناول، دون تبسيط مُخِلٍ، لتقريبها إلى القارئ المعاصر، على أمل الإفادة من دروسها الربّانية وأنوارها المُحَمَّدية.

لجملة هذه الأسباب وغيرها، تأتي أهمّية إعادة كتابة السيرة الشريفة؛ كتابة يرجى منها تقديم صورة حقيقية لسيرة رسولنا الأكرم، وإعادة إلقاء الضوء على أحداثها واستنطاقها مجدداً. سيرة مختصرة ما أمكن، دون المسِّ، بالتأكيد، بجوهرها أو بمضامينها الربّانية المُحَمَّدية. علّنا نتمكن من إخراجها من كتب التاريخ، وتقديمها بنظرة معاصرة، قراءةً ولغةً.

***

إنّ كتابة السيرة ليست كأي كتابة، بل هي كناية عن فعل إيماني محض. والتأمل في حياة الرسول الأكرم، هو تأمل في الإسلام الروحي المحُمَّدي، الذي جسّده (ﷺ) في حياته قولاً وعملاً، بحيث أصبحت حياته وأقواله هي الأنوار المشِعّة للقرآن المكتوب. ومن شأن معايشة السِّيرة، بكل تفاصيلها، والعودة إلى مصادر النبع الصافي للإسلام، أن تُثَمِّر إيمان المسلم وتُزكيّه.

كما أنّ من شأن العودة إلى مرحلة التأسيس والبناء، التي شيدت عليها حياة الإنسان الإسلامية، قيماً، ومعرفةً، وعلماً، أن تغذّي جذور الوعي الإيماني الضروري للإحاطة بالإسلام المُحَمَّدي السليم، وليتبارك بها المسلم ويكسب شيئاً من صفات قدوته.

لقد جسّد لنا الرسول الأكرم كل ذلك في سيرته. ولذلك أصبحت قراءتها واتباعها شرطاً إيمانياً ومعرفياً ملزماً. والله تعالى يقول: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا] وبالتالي، لا يمكن للمسلم أن يكون مؤمناً، حكيماً، ممتلئاً عِزّةً ونعمةً، ما لم يعرف حياة رسول الأنوار.

ثم، أمِنَ الممكن حقّاً الادعاء باتباع النبي (ﷺ)، واعتباره أُسوة لنا، ونحن لم نقرأ سيرته الشريفة ولم نتعلم من دروسها شيئاً؟ وهل من الممكن أن نكون مسلمين حقيقيين، ونجهل حياة من

جعله الله قدوة لنا؟ أي مَثَلَنا الأعلى ورمزنا الوحيد، الذي كرَّمنا بالإسلام، وأتى ليرشدنا إلى خالقنا؟ إذن، لا ريب البتّة أن الجهل بسيرته هو جهل بالإسلام الحقيقي.

ولا ريب أن جهل المسلمين البيّن بسيرة قدوتهم ومثلهم الأعلى، قد أدى إلى إفراغ الإسلام من قيمه الكبرى وحكمته. أفرغه من معانيه التربويّة والأخلاقية والروحية، وأصبح إسلاماً بلا تزكية ولا حكمة. أصبح جسداً بلا روح عارجة إلى خالقها.

وهكذا، تحول الإسلام عند الكثيرين إلى عبادات وطقوس مفَّرغة من مضمونها الإيماني، أي: من الحكمة والروحانية. ومن ثم أنتجت ما أنتجته من ظواهر التصدّع والشقاق والسقوط في العالم العربي والإسلامي. ونعلم أنّ الإسلام الحقيقي هو إسلام القلب، هو الإسلام المُحَمَّدي، لأنه الوحيد المفضي إلى الإيمان، بل هو الإيمان.

ثمة مصدران للتشريع: القرآن والسُّنة. وإذا كان الدين جزءاً من الحياة، لا بل هو الحياة، فالسيرة النبوية هي روح تلك الحياة. لا حياة إيمانية حقيقية دون الاستنارة والاهتداء بسيرة رسولنا الأكرم. والطريقة المُحَمَّديّة تشمل حياة الرسول من القول والعمل. من العبادي والروحي. من الأخلاق والنبّل المُحَمَّدي. فالله تعالى يصفه بقوله: [وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ].

والخُلُق العظيم منظومة متكاملة من القيم السامية. كالتسامح، والإحسان، العفو، والحلم، وزهد القلب واليدين، والكرم، والإيثار، وكل ذلك متوج بالحكمة. هي منظومة القوة المعنوية في الإنسان، وهي من تجليات الطهارة الروحية. ذلك هو منهج أخلاقيّ إيمانيّ متكامل وضعه الرسول (ﷺ) أمامنا لنتعلم منه ونتبعه ما أمكن. والرسول (ﷺ) يقول: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، ومكارم الأخلاق من السُّنة والشرائع النبوية الضرورية للإيمان الحق. فكم من أخلاق الرسول نحن متبعون؟!

لذلك وجب علينا، إن كنا نطلب حُبّ الله ورضاه، أن نفهم هذه السيرة العظيمة، بكل دروسها وحكمها، وأن لا نختزلها ونعتبرها مصدراً ثانوياً للإسلام، بل نجعلها مصدراً يعلّمنا حقيقة ديننا وقيمنا وأخلاقنا. وعلينا الاقتداء بها نَصّاً وروحاً، لنكسب رضوان الله.

ثم إنّ شخصية نبيّ الله ليست كأيّ شخصية تاريخية، تنتهي بانتهاء مهمّتها على الأرض. وقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. إذن، هو أنوار لم تزل مضيئة، وسيرته أزلية، وستبقى فاعلة حتى

يرث الله الأرض ومن عليها. ولن نفهم المعنى الحقيقيّ لحياة الرسول إلا إذا نظرنا إليها كسراج منير للبشريّة.

لقد خصّ الله تعالى كلَّ نبي بصفة خاصة به؛ وهي تكريم فوق تكريم. فقد عُرف سيّدنا إبراهيم بخليل الله، وسيّدنا موسى بكليم الله، وسيّدنا عيسى بروح الله. وخصّ سيّدنا مُحَمَّداً بكل تلك الصفات، ثم أضاف إليها صفة خاصة هي «حبيب الله». هنا، ربط الله رسوله بالحب. والحب أساس الوجود وأكثر المشاعر سُمّواً.

وقد قال الرسول: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين». فقد ربط حب الله للإنسان بطاعة الإنسان وحبه لرسوله. ربط الرسول الإيمان بالحب، فلا إيمان لمن لا حب له. ولا يصدق حب الرسول إلا بصدق اتّباعه. ولا حب دون اتباع.

وهكذا، يتبين لنا أنّ الحب هو روح الإيمان؛ ومن الإيمان حب الله ورسوله، بل حب كلّ خلقه. فاتّباع النبي ليس هداية نظريّة فحسب، بل حياة وتزكية. يقول الله تعالى: ﴿من يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله﴾. إذن، طاعة الرسول تفضي إلى طاعة الله. وطاعة الإنسان للرسول تعبر عن حب الله للإنسان. والصلاة على الرسول، هي أيضاً، التعبير الإيماني عن الارتباط المباشر بين المسلم وربه.

***

كل فعل في الوجود هو تجلٍّ لإرادة الله. ومن جمال التأمل في السيرة وأحداثها، رؤية هذا الحضور المباشر للخالق المبدع في مسار السيرة. وهنا يدرك المؤمن قوله تعالى: [وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ]. إن معظم أفعال النبي (ﷺ)، كانت موحاة ومقدّرة تقديراً ربّانياً.

وسنرى خلال قراءتنا للسِّيَرة، كيف كانت الآيات والسُّوَر تتنزّل قبل كل حدث، أو خلاله، أو بعده مباشرةً. وإذا قرأنا السيرة النبوية بهذا الإدراك الإيماني الواعي، وأيقنّا أنها أقدار أبدعها الله بحكمته وعنايته الفائقة، عندئذ ستظهر لنا السيرة النبوية كلوحة متقنة الإبداع رسمها الله بيده.

لقد وُصف رسول الرحمة بالغيث الذي أتى لإحياء الأرض، فنبتت، وأثمرت إيماناً ورحمة. وهكذا، أعاد الرسول ارتباط الأرض الخضراء المثمرة بالسماء من جديد. وأحيا أمته من قبورها.

والسيرة الشريفة كالروح التي تحيي الجسد. هي تحيي من يحييها، وتنير طريق من يسترشد بها.

وقال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ]. ورسولنا الأكرم بأنوار سيرته هو المحيي للقلوب الميتة حتى يرث الله الأرض ومن عليها. والقرآن يقول: [أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا].

«أحييناه» بمعنى أحيينا قلبه لتتفتّح بصيرة الروح على الأنوار الربّانية. وليكون الله ورسوله في قلبه. فغيابهما موتٌ للقلب قبل الجسد. وثمة أحياء جسدياً، ولكنّ قلوبهم مَيْتة. أي موتى على قيد الحياة. لأنَّ [وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ]. ومن لا نور له، فقلبه غارق في الظلام والجاهلية، والجهل موت. [إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً].

وقد ربط الرسول الأكرم العقل بالدين، في عقدٍ أزليّ لا ينفصم البتّة. حيث قال: «من لا عقل له لا دين له، ومن لا دين له لا عقل له، وإنما الدين العقل». لأن العقل مناط التكليف، وعلاقته بالإسلام علاقة جوهرية. ولذلك يعتبر العقل من جوهر الإيمان، وأساس العقيدة الإسلامية. وفي الحديث القدسي المعروف، قال الله تعالى مخاطباً العقل: «ما خلقت خلقاً قط أحسن منك. فبِكَ أعطي وبك آخذ وبك أعاقب».

وما يميّز الإنسان ككيان هو العقل. ومن كرم الله على الإنسان أن يمنحه العقل الكامل والحكمة. ولا تقترب صفات المسلم من الكمال، أي: من معرفته بذاته وبخالقه، إلّا باكتمال مداركه العقلية الإيمانية. وهكذا يكون ارتباط العقل بالإسلام ارتباطاً عضوياً. ولهذا يدعو الله "العاقل" إلى التأمل في الكون، والتدبّر في القرآن، للوصول إلى العلم بحقائق الخالق عقلياً. وأعلى خيرات العقل معرفة الله.

وعندما يقول الحديثٍ الشريف: «إنّ تأمّل ساعة يعادل عبادة سنة»، وقيل عبادة سبعين سنة، ألا يعبّر ذلك عن تكريم القرآن لمكانة التأمل والفكر، وهما من أعمال العقل.

ولا شك، أن بين العلم العقليّ والمعرفة القلبية مساراً إيمانيّاً متفاعلاً، لأنّ العلوم العقلية هي إدراك عام للكلّيات، أمّا المعرفة القلبية فهي إدراك خاص، إدراك إيماني ذوقي، يجد طعمه، كما يقول العارفون، في المعنوي اللامحدود. وعندما ينتقل العلم العقلي إلى القلب، يتحول إلى معرفة

وجدانية، أي: معرفة روحية. ولا يعود العلم، آنذاك، مجرّد فكر عام، بل يتحول إلى معارف وجدانية، حيّة وفاعلة، تتجاوز المعارف العقلية نفسها.

لذلك يمكن القول، أنه إذا مثَّل العقل مركزاً للإدراك والوعي الخارجي، فالقلب يمثّل مركز الإدراك والوعي الشعوري الداخلي. هو مركز الإدراك الروحي الأعمق. وبهذا المعنى قال الله تعالى: [أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا].

وهنا، وبفضل تلك الصيرورة، وذلك الأخذ والعطاء، يتحول العقل المغذَّى بالمعارف القلبية إلى «العقل المستنير». أي: العقل المعبّر عن المعارف الإيمانية الوجدانية. العقل الحكيم العارف بالله.

وللحكمة، كما نعلم، مكانة خاصة في الإسلام، فالله، [يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا]. هي أعلى درجات العقل، ومعرفة الله جوهر الحكمة. وهكذا، فإنّ ارتباط الإيمان القلبي، بالعقل والحكمة، ارتباطٌ تفاعلي. فكلاهما يغذّي الآخر ويشترط وجوده، ولا يمكن لناقص العقل أو الإيمان أن يمتلك العقل. و«إنما الدين العقل».

ومنذ أن فتحت سورة «اقرأ»، الباب لولادة المعرفة والعلم، وأعلنت الفجر المُحَمَّدي، بدأت دعوة الإسلام إلى إعمال العقل في الدين، كما في الحياة. «اقرأ»، هي الدعوة لأولي الألباب، أي: لذوي العقول. ثم تتوالى بعد ذلك العديد من الآيات التي تشير إلى ضرورة التفكير والتدبر في الإسلام.

وقد طرح القرآن بعضها بصيغة الاستفهام أو التحفيز. مثل: «قل هل يستوي الأعمى والبصير؟» «أفلا تتفكّرون؟» «أفلا تعقلون؟» «أفلا يتدبّرون؟» «إنّا نزّلناه قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون». و«هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟» وأخيراً، «ما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً؟!».

ثم، ألا يمثّل أمر الله: [لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ] ، هذا النصّ الصريح تكريم العقل وتفعيله في الإسلام؟ وبالتالي، ألا يمثّل رفض الإسلام لأيّ صنف من صنوف الإكراه في الحياة، قاعدةً سماويةً ثابتةً لمفهوم الحريّة في الإسلام؟

لقد جعل الله الإنسان خليفته على الأرض، ولا يمكن لمن كرّمه الله بهذه المهمّة الكبرى، أن يجرّده من حريته. والإنسان في الإسلام مخيّر، إذن، هو حر. فلا خيار لمن لا حرية له. و(الإكراه)، هنا، كلمة عامة وشاملة. وإذا كان لا إكراه في الدين فبالأحرى أن لا يكون إكراه في كل شيء من عبادات وعادات ومعاملات. والإكراه ممقوت عند الله، ولذلك يتنافى وروح الإسلام السمحة.

والدعوة إلى إعمال العقل تتضمن بالضرورة دعوة إلى إعمال الإرادة الحرة. لأن العدل الإلهي يشترط أن يكون الإنسان حراً، أي: حر الإرادة. ولذلك فالإكراه يتنافى ومبدأ القضاء والقدر؛ لأن من هو مُكرهٌ على فعلٍ ما، لا يخضع لمبدأ الثواب والعقاب، لأنه لم يكن حرّاً. وبالتالي، لا يستقيم العدل الإلهي نفسه. ولذلك، فإنّ الإكراه من أيّ نوع هو مسٌّ بروح التعاليم والقيم المُحَمَّديّة.

إذن، نحن أمام مفهوم عميق الدلالة لمبادئ الحريّة في الإسلام. مؤدّى ذلك، أنه إذا غاب القهر والإكراه، حينها تتجلى الإرادة الحرة الكريمة للإنسان. فضلاً عن أنّ عزّة المؤمن من عزّة الله. «ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين». والعزة مرتبطة بمنطق الحرية وليس الإكراه. ومن لا يملك حريته فليس له من العزّة شيء؟

ونعلم، أنّ من نقاط القُوّة في الإسلام، أنّه دين الفطرة. والفطرة هي عقل الوجدان. وهي، بطبيعتها، مجبولة على حب الصفات الربانية السامية: حب الخير، والعدل، والحرية، والجمال، والكمال. ومن طبيعتها أيضاً، أنها لا تقبل الظلم، أو الإكراه والقهر، أو القبيح، ولا تتغذّى إلا على المساواة والاحترام والقيم المثلى.

الإيمان مسألة قلبية، يغذّيها العقل ويتغذّى بها، لكن كلاهما، القلب والعقل، يخضع لإيحاءات الفطرة. وما لا تقبله الفطرة لا يتقبله القلب ويرفضه العقل. وكما الإيمان والحرية، كذلك العزّة، مرتبطة بفطرة المؤمن الحرة والفاعلة. لا فطرة مقموعة. والله يخاطب نبيه بقوله: [أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ] ؟!

وهذا يعني أنه يتوجب على الإنسان أن يملك إرادته الحرة ليقتنع عقلياً ويسلم. وليس ثمّة نص أكثر صراحة لحرية المعتقد من هذا النص القرآني التالي: [وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ]. ثم يتوّج تلك النصوص بقوله القاطع: [وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ].

وكما سنرى لاحقاً، ستشهد المدينة المنوّرة ثورة إصلاحية نبويّة لا سابق لها، ستشمل المفاهيم والفكر والثقافة، وستؤكد أنّ مسألة التعددية والتنوع والحرية مسألة مركزيّة في الإسلام. وسيجسدها الرسول الأكرم عملياً في مدينته الفاضلة.

ويشهد التاريخ، أنّ بيوت العبادة مثل الكنائس والبِيَع، كأماكن مقدّسة عند أصحابها يحترمها الإسلام. والدليل أنه لم تهدم أيّ كنيسة أو دار عبادة أو حتى بيت نار، لا في العهد النبوي ولا في العهود اللاحقة. والآية: [وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا] ، تستحّق التأمل جيداً. لأنّ الباطل لا يزهق بالسيف وأدواته، بل بالعقل وأدواته، أي بالفكر، والمنطق، وبالجدال بالتي هي أحسن. والباطل، بطبيعته، لا يمكنه مواجهة الحق، مثلما لا يمكن للظلام أن يبقى بعد طلوع الشمس.

***

من المعروف أن لكل أنبياء الله ورسله معجزاتهم. يبقى أن الرسول الأكرم، بالنسبة إلينا، هو نفسه المعجزة الربّانية الكبرى، ولا يحتاج إلى معجزات تضاف إلى فضله. بيد أنّ ثمة معجزتين لا تزالان فاعلتين ومؤثّرتين في حياة الإنسان:

أولاً: القرآن الكريم، هذا الكتاب المدهش، الذي يقرؤه المسلم طوال حياته، ولا يمل قراءته. بل كلما قرأه استمتع بقراءته أكثر، ولا يزال يشعر بتلك الرهبة والقشعريرة التي شعر بها عندما قرأه لأول مرّة. ويدرك القارئ شعورياً، أن القرآن، الذي نزل قبل ألف وأربعمئة سنة، لا يزال وحياً يوحى. وكلما تطهّر قلب الإنسان وتعمّق إيمانه، باح له القرآن بأسراره أكثر وبانت كنوزه.

أمّا المعجزة الثانية، فهي قدرة الرسول على بناء أمّة من لا شيء. هي قدرته المدهشة على إحياء هذا المجتمع القبلي، الذي لم تتوافر فيه أيٌّ من مقومات المجتمع أو شروطه، ناهيك عن شروط الأمة، وتحويله إلى خير أمّةٍ أُخرجت للناس.

كيف استطاع هذا النبي الأميّ أن يخلق من هذه القبائل المتخلفة، الجاهلة، العابدة للأصنام، الممزّقة، في غضون عشرين عاماً فقط، خير أمّة أُخرجت للناس، وجعل منها شعوباً فاضلة؟ أوليست تلك أكبر معجزة في التاريخ البشري؟

فضلاً عن ذلك، الإسلام دين وحضارة إنسانية متكاملة، يعلو فيها الروحي والقيمي والأخلاقي. يعلو فيها التسامح والمحبة. وهو أيضاً، ثقافة قائمة على تشريعات وقوانين متكاملة نابعة من روح العدل الإلهي، تُعنى بحياة الفرد كما المجتمع والدولة.

وهكذا، أرسى الرسول الأسس الثابتة لحضارة إسلامية مترامية الأطراف. قامت على العلم والعقل والأخلاق واحترام الآخر، ولا تسعى إلّا للسلام والخير للبشريّة. ولتتمكن بذلك من تحقيق إرادة الله على الأرض، وتكون الأمّة الإسلامية الواسعة، بكل جنسياتها وأعراقها وألوانها، خير أمّة أُخرجت للناس.

وحسبنا التأكيد هنا، أننا نتحدث عن الإسلام المُحَمَّدي السمح، لا الإسلام المذهبي الضيق، أو الإسلام السياسي، بكل فروعه وأشكاله، لأنها تتعارض وجوهر الإسلام المُحَمَّدي. ولأن الإسلام المذهبي، كونه منغلقاً على ذاته، فكراً وممارسة، لا يمكنه، بحال، بناء حضارة، من أهم شروطها الانفتاح والتسامح. ومن المنطقي الاعتقاد أنّ الإسلام المذهبي هو النقيض الطبيعي لمعنى الحضارة وجوهرها.

فضلاً عن ذلك، تحمل السيرة رسالة رحمة لإنقاذ الإنسانية من الضياع والهلاك المحتوم، [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ]. كما تُحمّل كل مسلم حقيقيّ، واعٍ ومستنير القلب، رسالة مجبولة بالتسامح واحترام الآخر. لأنّ الآخر، هو أيضاً، خلقه الله على صورته.

وغنيٌّ عن القول، إنّ قراءة السيرة النبويّة واتباعها واجبة على المسلم، وضرورية على المستويين الروحي والمعنوي. فهي دليلنا إلى الإيمان الحقّ، إلى الخير الحق، وإلى الفلاح. دليلنا للانتصار على النفس الأمّارة بالسُّوء، النفس الخبيثة، وتزكيتها لتكون النفس الراضية والمرضيّة التي يدعوها الله إلى جناته.

ويمكن الجزم، بأنه لن يعود المسلم واعياً ولا قادراً على حمل رسالته الربّانية الحضارية للبشرية كما كان، إذا لم يتزكَّ بدروس السيرة ويحوّلها إلى حالة وجدانية. ولن يفلح المسلم إذا لم يتخذ من حياة الرسول الأكرم أُسوة له نصاً وروحاً.

***

وتجدر الإشارة إلى أننا لم نخصّص فصلاً خاصاً لأخلاق النبي وصفاته، ذلك لأنّ تزكية الله لرسوله أتت من سمائه السابعة: [وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ]. فشهادة السماء أبلغ تعبيراً من أيِّ كتابة. ومن يتأمل في السيرة جيداً، يجد أنّ كل حياة النبي، في كل مراحلها وتفاصيلها، هي كناية عن مسار تجسدت فيه كل صنوف الأخلاق الربّانية. بل واللافت حقاً، هو تلك الدقة المدهشة في التعبير. فلم ينطق طوال حياته منذ ولادته إلا بالكلمة الطيبة المعبرة، الدقيقة، والخالية من أيِّ زيادة أو نقصان.

وهنا ربما يجب علينا المرور على بعض نماذج من شهادات المفكّرين والمبدعين، والكتّاب غير العرب أو المسلمين، المبهورين بالنبي وشريعته؛ وأولهم شاعر ألمانيا العظيم غوته، الذي قال: «كلما قرأت القرآن شعرت أنّ روحي تهتزّ داخل جسمي». وأضاف: «لقد بحثت في التاريخ عن مثل أعلى للإنسان، فوجدته في النبي العربي».

وقال فيلسوف فرنسا؛ لامارتين: «إنّ أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله مُحَمَّد، دراسة وافية، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود». وقال كاتب روسيا الكبير؛ تولستوي: «أنا واحد من المبهورين بالنبي مُحَمَّد، وشريعته ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة».

وختاماً، سنلقي الضوء على تلك الصفات المُحَمَّديّة المشرقة خلال تتبعنا لأحداث السيرة، وسيمثّل دخوله إلى مكّة في الفصل الأخير من السيرة، التجسيد المطلق للأخلاق والتسامح والنبل النبويّ في أعلى صوره. سنقف عند فتح مكّة المكرّمة، في السنة (الثامنة) للهجرة، ثم نختم بحجّة الوداع، وإشهاده لصحابته بأنّه أدّى الرسالة التي بعثه الله بها وأتمّ مكارم الأخلاق.

التمهيد

لمحة تاريخيّة

الوضع الاجتماعي والثقافي

في الشرح المركّز الذي سيقدمه جعفر بن أبي طالب، عندما ذهب مهاجراً إلى الحبشة عند ملكها أصحمة، الملقب بالنجاشي، ما يستحق التوقّف عنده لنفتتح به مسارنا. حيث قال فيه:

أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله نوحّده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد، نحن وآباؤنا، من دونه من الحجارة والأوثان.

وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المُحَصنات. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نُشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. فصدّقناه وآمنّا به، واتبعناه على ما جاء به من الله. فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً. وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا[1].

وجدنا في هذا الشرح المختصر وصفاً دقيقاً لجانب من حالة العرب قبل الإسلام، مع بعض الحقائق الدينية والأخلاقية المختصرة التي أتى بها الإسلام. وكان جعفر ورفاقه من الأوائل الذين تخرّجوا في المدرسة النبوية، وأصبحوا المثال الحي للإنسان المسلم الحق. وكانوا من المسلمين الذين هاجروا من مكّة تفادياً لاضطهاد قريش لهم.

ويمكن القول، أن هذه الصورة تنطبق على الوضع القبلي الجاهلي في كل شبه الجزيرة العربية. بيد أنه من أجل أنّ تكتمل الصورة أكثر، تجب علينا الإشارة إلى الجانب الثقافي والقيمي، الذي لم يتطرق إليه جعفر، ذلك لأنه لم يكن في سياق ما كان مطلوباً منه تقديمه في ذلك الظرف للنّجاشي.

وحسبنا هنا أن نلقي الضوء على بعض السمات العامة المكوّنة لشخصية الإنسان العربي. ولا نتحدث عن الاستثناءات. فعلى النقيض من الصورة النمطية والمعادية للعرب، هناك حقيقة أخرى؛ فثمة جانب ثقافي يستحق التشديد عليه. فمع التخلف الاجتماعي، والحروب والغزوات القبلية التي طبعت ذلك العصر، لم تخلُ المجتمعات العربية، مع تخلفها، من القيم والأخلاق النبيلة بجوانبها المختلفة؛ مثل الشجاعة والفروسية وأخلاقهما. ومثل الصدق والإيثار والكرم والمروءة والسخاء. ويلاحظ جيورجيو، أن العرب يجدون لذّة في السخاء والشهامة والإيثار والمروءة العربية المعروفة[2].

ولنأخذ في البدء مثالاً على قيمة المروءة والجيرة، التي تعكس، على نحوٍ ما، جوهر القيم النبيلة، كما تشير إليه الكتابات الأجنبية. ولا نتحدث هنا عن حق الجوار شبه المقدّس عند المسلمين والمسيحيين العرب فحسب، بل جيرة من يلجأ إلى القبيلة فيصبح محميّاً من قِبَلها، لا يمكن أن تمسه أي قبيلة أو قوة أخرى، حتى إن كلف ذلك الحرب.

فعندما يلجأ بدوي إلى خيمة أعرابي، ممزّقة، في قلب الصحراء، جائعاً عطشان، أو هارباً من وجه قُطّاع الطرق، فإنّ أنفة صاحب الخيمة تستدعيه لأن يحمي ذلك اللاجئ إليه[3]. ويعترف رينان، وهو من أعتى رموز المستشرقين، وأكثرهم عداوة للإسلام والعرب، بقوله: إنه لم يجد في حضارات الأمم أفضل من حياة العرب في الجاهلية[4].

فضلاً عن ذلك، هناك نزعة الحريّة لدى الإنسان العربي، وهي قيمة روحية وأخلاقية عالية تتمحور حولها القيم النبيلة الأخرى. ولكونها ميزة بشرية عامة، ومكوناً رئيساً من مكوّنات الإنسان الوجودية العليا، فهي جزء غريزي ومتين في البناء النفسي والأخلاقي للإنسان وفطرته. والفطرة الإنسانية بطبيعتها لا تقبل القهر والإذلال. والإنسان العربي، شأنه شأن أصحاب الروح النبيلة في كل مكان وزمان، يرفض الاستبداد والظلم، وكغيره يتوق إلى العدل والمساواة والحرية.

وثمّة ترابط أصيل بين الجمال والروح الحرّة. وما اللغة إلا التعبير عن وجدان الإنسان فكراً وذوقاً. ويمكننا أن نرى في تفاخر العرب بلغتهم وفصاحتها، تقديراً لقيمة الكلمة المحمّلة بقيم الجمال والحرية معاً. وما الشعر الرفيع والخالد إلا تجسيد جماليّ لذلك. ويكفي أن نتأمل النشاطات الاحتفالية الخاصة بموسم الشعر في سوق عُكَاظ، حيث تنتهي القصائد الفائزة كمعلقات على الكعبة، وكأنها آيات مقدسة، تقديراً لإبداع أصحابها الأدبي ولروح الجمال فيها.

ألا يعتبر إجلال العرب للغة والشعر والشعراء، منذ الجاهلية، تعبيراً عن قيمٍ حضارية؟ أليست تلك من تجليات الروح الحرة الكريمة؟ وسنرى لاحقاً فعل تلك القيم والصفات الإنسانية الخلاقة، التي ستبهر العالم بثمارها الحضارية، عندما تغذت بالإيمان واستنارت بالأنوار المُحَمَّديّة.

ويذكّرنا الصديق العزيز، المؤرّخ العُماني، الشيخ أحمد السيابي، بقصة الوفاء والمروءة والحريّة الخالدة في التاريخ العربي، وهي من صفات الخُلق الكريم الذي بذلت العرب مُهجها للحفاظ عليه، على حد تعبيره. ويُذكر أنه بعد أن قتل كسرى (خسرو) الفارسي، النعمان بن المنذر، باني مدينة النعمانية في العراق، وكان مسيحيّاً وأحد أحفاد امرئ القيس، وأشهر ملوك المناذرة. وقد ترك قبل قتله أمانة لدى هانئ ابن مسعود الشيباني. فطالب كسرى الشيباني بتسليمه الأمانة.

رفض الشيباني أن يسلّمها إلا إلى الورثة. لم يقبل كسرى هذا الرفض، واعتبره تحدّياً له من هذا الرجل القبلي الصغير. فأمر قواته بمهاجمة الشيباني، لكنّ القبائل العربية التفّت حول هذا الأخير لنجدته. وفعلاً، وبالرغم من انعدام التكافؤ تماماً، انتصر العرب على الفرس في معركة «ذي قار» الشهيرة. وقد قال النبي الأكرم عنها: «ذلك أول يوم انتصف فيه العرب من العجم»[5].

مكّة المكرّمة

تحولت مكّة المكرّمة، التي بنى فيها سيدنا إبراهيم عليه السلام، البيت الحرام، إلى مركز ديني وتجاري، يخدم منطقة الجزيرة ككل على امتداد قرون طويلة. ولم يتعد تعداد سكانها آنذاك العشرة آلاف نسمة. وكانت اكثر منطقة آهلة بالسكان في الجزيرة، عدا اليمن. وكان البناء الاجتماعي بسيطاً واضح المعالم؛ زعماء قريش وشرفاؤها، وهم أفراد من الملاك والأسياد، ثم فئة التجّار، يليهم الحرفيون الصغار، ثم العبيد والمشتغلون بالمهن الصغيرة، كتربية الخيول والإبل وغيرها.

مثّلت مكّة، منذ الزمن الإبراهيمي، مركزاً دينياً، كما مثّلت محور الاقتصاد في الجزيرة. فكانت فيها الأسواق الناشطة، التي يزورها العرب من كل أرجاء الجزيرة، حيث يجدون حاجاتهم من كل صنوف الأغذية والحبوب، التي تنتجها اليمن، والأقمشة والعطور المجلوبة من الهند عبر اليمن، إلى جانب البضائع الأخرى التي تأتي من الشام في موسم الصيف.

وقد ارتبطت مواسم الشعائر الدينية بالنشاط التجاري، حيث توجد فيها (اللّات، والعُزّى، وهُبَل) وقرابة ثلاثمئة وستين صنماً. وكان من يأتي للتجارة، يأتي، أيضاً، للزيارات ذات الطابع الطقوسي الوثني. ويذكر أن لكل قبيلة من الجزيرة صنمها الخاص بها، تزوره وتقيم شعائرها حوله، عندما تأتي للتجارة. وقد تحولت مواسم الحج إلى الكعبة، إلى مواسم لممارسة التجارة فيها.

لم يكن المجتمع المكّي مجتمعاً قبلياً بدويّاً، بالمفهوم الصحراوي للبداوة، بل كان مجتمعاً مستقراً، أقرب إلى المجتمع «الحضري» منه إلى حياة البداوة. وقد أنتج الاستقرار الاجتماعي الدائم في مكّة، عبر القرون، شيئاً من أشكال النظام والتقاليد الراسخة، ما أفضى إلى صوغ قواعد عرفية تقليدية ثابتة، للتعامل بين السكان. وكان من شأنها أن تثمر روح الوفاق وتضمن السلام بين أعضائه. وهذه من الأسس المكوّنة للحياة المدنيّة عموماً.

كما أنّ وجود مكّة المكرّمة، بإرثها التاريخي الخاص والاستثنائي، قد أكسب المجتمع المكي، عبر العصور، نوعاً من التميز الطبقي والثقافي عن بقية المجتمعات العربية في الجزيرة. فضلاً عن أنّ الأساسيات الجوهرية، من التقاليد القبلية قد تطورت عبر الزمن، وخلقت لديهم نوعاً من تقاليد الشورى والمشاركة في الحكم، خصوصاً في ما يتعلق بإدارة مجتمعهم المكّي.

ومع بداية سيادة قبيلة بني هاشم القرشية على مكّة المكرّمة، قبل عقود من نزول الرسالة، أسس بنو هاشم مقراً لهم عُرف بـ«دار الندوة». وقد مثلت هذه الدار مجلس شورى لزعماء مكّة، يناقشون فيه جُلَّ قضاياهم. وكان بمثابة مجلس حكم مشترك، تُتخذ فيه القرارات المتعلقة بمدينتهم ومجتمعهم، بدءاً بقضايا التجارة وشؤونها، إلى قضايا الحرب والسلم. هذا، بالطبع، إلى جانب الشؤون الاجتماعية والمسائل القبلية كافة.

بنو هاشم

من نسل إسماعيل عليه السلام، الذي تصاهر مع قبيلة جُرْهم اليمانية القحطانية، وبُعث فيها نبياً رسولاً، ستنحدر قريش، ومنها فرع بني هاشم. ويلخص الحديث النبوي الشريف انحدار نسب بني هاشم، الفرع الأهم في قريش، بقوله: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى بني النضر من كنانة، واصطفى بني هاشم من بني النضر، واصطفاني من بني هاشم». فكان من خير بطون العرب وأشرفها.

لكن الرسول الأكرم، لم يتفاخر بانتمائه القبلي أو أصله الهاشمي قطّ. بل كان نهجه: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم». لكن قدّر الله أن يكون من أشرف عائلة انتماءً لأسباب مرتبطة بالرسالة أكثر من أيِّ شيء آخر.

ويكتب دويدار ذلك قائلاً: إنه كلما كان الداعي إلى الله في شرف من قومه، كان ذلك أدعى إلى إصغاء الناس إليه. فإنه من عادة الناس أن يزدروا الدعاة إذا كانوا من بيئة مغمورة، أو نسب متواضع. فإذا جاءهم من لا ينكرون نسبه، ولا مكانته الاجتماعية، لن يجدوا ما يقولونه عنه إلا افتراءات، علماً أنّ الإسلام لا يقيم وزناً لشرف النسب تجاه الأعمال[6].

وتقدّر الفترة التي عاشتها الجزيرة العربية، منذ عهد إسماعيل عليه السلام، إلى مجيء النبي مُحَمَّد (ﷺ)، بدون وحي إلهي ولا رسل، بثلاثة آلاف عام. ويعتقد أنّ القبائل التي سبقت قريشاً، والتي أتت ثم انقرضت، تبعت الديانة الإبراهيميّة. ومنها بالطبع قريش التي كانت تدين، في البدء، بالديانة الإبراهيميّة، لكنها بمرور القرون تحولت إلى وثنية وعابدة للأصنام.

ويعود الأمر، وفق الرواية التاريخيّة المعروفة، إلى أنّ رجلاً من الحجاز، يدعى عمرو بن لُحَيّ الخزاعي، رأى لأول مرة، في زيارته للشام، أصناماً يعبدها أهل الشام. وعندما سأل عنها، قالوا: نعبدها لنستمطرها، فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا.

فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً فأذهب به إلى بلاد العرب فيعبدونه؟ فأعطوه صنماً يقال له «هُبَل»، وأتى بهُبَل ونصبه حول الكعبة وبقي في مكانه إلى يوم الفتح الإسلامي. وكان بدايةً وسبباً لتبديل دين إبراهيم وإسماعيل في الحجاز[7].

وقد قال القرآن الكريم بحق هؤلاء: [وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ] (البقرة: 130).

استمر بعض الأحناف في مكّة، وإن كانوا قلة، على ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام حتى مجيء سيّدنا مُحَمَّد (ﷺ)؛ رفضوا الوثنية، وكانوا ينتقدون قريشاً لانحرافهم عن الشرائع الإبراهيمية. وكان الشاعر زيد بن عمرو بن نفيل أشهرهم، وقد مات قبل البعثة بقليل.

لم يشرك بالله، وظل حنيفيّاً مسلماً على مِلّة إبراهيم. ولذلك نرى رد الرسول اللافت على عمر بن الخطّاب، وكان معه ابن الشاعر، سعيد ابن زيد بن عمر، عندما سألاه: أنستغفر لزيد بن عمر بن نفيل؟ فقال: «نعم، فإنه يبعث أمّة وحَدهُ».

ظلت الشعائر الإبراهيميّة، الحج والعُمرة، والطواف حول الكعبة، قائمة تمارس في مكّة. لكن الحقبة الوثنية أفرغتها من مضمونها التوحيدي الإبراهيمي، وشوّهتها، ولم يبق منها إلّا طقوس شكلية. ثم تحول الطواف حول الكعبة إلى قدّاس وثني حول الأصنام. وسيأتي الإسلام ليطهّر الكعبة من الوثنية والشرك، ويعيد إلى الحج والعمرة مناسكهما الربّانية، ويضيف إليها الشعائر والسُّنَن المُحَمَّديّة.

هكذا، أعاد الإسلام الروح إلى الشعائر الإبراهيميّة التوحيدية، وأفاض عليها المضمون الإسلامي الإيماني، وأحياها بالسُّنن النبوية، وتقول الآية الكريمة: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) [الحج 78]. إذن، سيّدنا إبراهيم هو من سمّى المسلمين مسلمين.

وإلى جانب الوثنية المنتشرة في شبه الجزيرة العربية، كان ثمة وجود للمسيحيين، النصرانيّين، في منطقة نجران في اليمن، وإن لم يدم طويلاً. كما كانت فيها أقلية يهودية ما زال بعض أتباعها يعيشون بأمان في صنعاء حتى اليوم. بيد أنه كان ثمة وجود يهودي، أكبر نسبياً، في منطقة يثرب، ثم في منطقة خيبر البعيدة نسبياً من المدينة.

ويرجع سبب ذلك، كما تذكر بعض المصادر، إلى أمرين:

أولاً: فرارهم من الاضطهاد الذي تعرّضوا له في الدولة الرومانية عام 70 ميلادي.

وثانياً: تطلع بعضهم إلى ظهور النبي من فرع إسماعيل عليه السلام، والمبشّر عنه في التوراة والإنجيل. فنزلوا بديار الحجاز الشمالية على أمل أن يبعث نبي آخر الزمان في هذه المنطقة، فيؤمنوا به ويقاتلوا أعداءهم معه[8].

ولأنه لم يبق، كما يعتقد المسلمون، من أتباع الديانتين، المسيحية واليهودية إلا القلة، كالسامريّين في نابلس، الذين حافظوا على سلامة ديانتهم اليهودية ونقائها من الانحرافات التي أصابتها. لذلك لم يكن للنصرانية، التي خلطت بين الإلهي والبشري، وآمنت بالتثليث، من تأثير يذكر وأتباع في الجزيرة، كما كان الأمر في بلاد الشام والعراق، مع بدء نزول الديانة المسيحية.

وأمّا عن اليهودية فتلك قصة خاصة؛ فاليهودية كغيرها رسالة أنوار سماوية، لكن التحريف الذي تعرضّت له، هي أيضاً، أفرغها من مضمونها الربّاني. وتبقى خصوصيتها أنها رسالة نزلت على بني إسرائيل، ولذلك غدت مغلقة. ولم تعد تحمل للعالم رسالة، ولا للأمم دعوة للسلام، ولا للإنسانية رحمة[9].

وعلى النقيض من الإسلام والمسيحية، هي أول من أنتج مفهوم التفوق العرقي. وهو بدوره أنتج مفهوم اللامساوة وألغى إمكانية التسامح مع الآخر، (الغير) في التعبير اليهودي. وتحول مبدأ التفوق العرقي إلى سمة خاصة من سمات الثقافة اليهودية.

بالتأكيد، لم يكن العرب في الجزيرة وحدهم الذين يعيشون في الظلمات، بل كان العالم بأسره في القرن السادس الميلادي غارقاً في جهله وظلامه. كان يعيش أوضاعاً مأسوية من الانحطاط الأخلاقي والانهيار الإنساني. ويقول الرسول (ﷺ): «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب».

ومن هنا أتت ضرورة ظهور النبي لينقذ البشرية من ظلماتها. فرسالة مُحَمَّد (ﷺ) ليست رسالة جديدة، بل تشريعات جديدة. وهي ليست إلا استمراراً وتكملة للملل والرسالات السماويّة التي سبقتها. ولكن هذه المرة، لم يخص الله بآخر رسالاته العرب وحدهم، بل الإنسانية جمعاء.

وما اختيار نزول الرسالة في هذه المنطقة إلا تلبية لدعوة إبراهيم عليه السلام، حين دعا ربه قائلاً: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [البقرة 129]. هذا ما يخبرنا به القرآن، فالله أراد أن يجعل آخر رسله من العرب، من أحفاد النبي إسماعيل عليه السلام.

واللافت حقاً، إنّ التباشير لدى اليهود والنصارى بظهور نبي في هذه المنطقة عديدة ومتواترة. كما لم يعد سراً اليوم ما أتت به الكتب المقدسة، التوراة والإنجيل، التي يؤكدها القرآن، عن ظهور نبي من نسل إسماعيل عليه السلام. قديماً، كانت هذه التباشير شبه سريّة، حبيسة المتون الدينية القديمة لدى أتباع الديانتين، أما اليوم فهي مترجمة من لغاتها الأصلية، ومنتشرة في الكتب التاريخية والدينية بكل اللغات.

والغريب أنّ بعض كُتّاب السِّيَر، يحاولون على نحو ما إيجاد مسوغ «موضوعي» لنزول الرسالة في منطقة الجزيرة. لكن كل محاولاتهم لا تتجاوز الطروحات العمومية التي لا طائل منها. ذلك لأن الله، بقدرته المطلقة، لا يحتاج إلى ظروف ناضجة ليبعث برسوله. فليست الظروف هي التي تقرّر ما يريده الله، ولكن الله بحكمته، قد اختار المكان والزمان، اللذين قررهما قبل أن يخلق الكون. والله يعلم أين يبعث برسله ورسالاته.

وليس العرب وحدهم، بل العالم بأكمله، كان في أمسِّ الحاجة لأن ينقذ من ذلك الظلال المبين. وقد اختار الله العرب في الجزيرة لهذه الرسالة العظيمة. كما اختار أن تنزل كل الرسالات السماوية في المناطق القريبة من الجزيرة العربية. وعالمنا، كما هو معروف، هو موطن الأنبياء والرسل والديانات.

وكما أسلفنا، كان المجتمع العربي في الجزيرة موغلاً في الظلام والوثنية. لذلك، لم يكن الأمر يتعلق بإصلاح عقيدة من العقائد، أو إصلاح مجتمع ما، كلا! لقد كانت قضية إزالة أنقاض جاهلية، وثنية، تراكمت عبر القرون والأجيال، دفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين، وجهود المصلحين والمعلمين، وإقامة بناء شامخ مشيد البنيان، واسع الأرجاء، يسع العالم كله، ويؤوي الأمم كلها[10].

التباشير

أراد الله تعالى بحكمته المطلقة أنْ يخرج من هذه الأمة خير أمة أُخرجت للناس؛ خير أمّة لأنها موحّدة، مؤمنة، تعيش وفق منهج ربّاني. وخير أمة لأنها مسترشدة بالسراج المنير. ولأنها،

أيضاً، مكلفة بحمل رسالة سماوية لبناء إنسان ذي رؤية روحية لمعنى الوجود والحياة. رؤية إيمانية قائمة على ثلاثة أعمدة؛ العلم والعقل والحكمة. وهي مجتمعة ومترابطة، وتشكل الأرضية الإيمانية لحياة الإسلام الحقيقي.

من جانب آخر، بشّر الرسل والرسالات السماوية بظهور آخر أنبياء الله سبحانه وتعالى في هذه المنطقة. لكن قبل أن نبدأ بالإشارة إلى تلك التباشير الموحاة، يجدر بنا هنا ذكر بعض الآيات الأساسية الدالة على ذلك، يقول الله عزّ وجلّ في سورة الأعراف:

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الأعراف 157].

ونظراً إلى تعدّد نسخ التوراة والإنجيل، وظهور أربعة أناجيل منقّحة تسمّى «التشريعية» أو القانونية، المعتمدة لدى بعض الكنائس اليوم، وليست كلها الأصيلة، بل يشكّ في صحتها أصحابها المسيحيون أنفسهم. وبسبب التغييرات التي طرأت عليها، واختلافاتها، فضّلنا، تقصياً للدقة، الاعتماد أساساً على ما كتبه عالم اللاهوت والقسيس السابق، البروفيسور عبدالأحد داوود، الذي جمع نصوص التباشير في كتاب «مُحَمَّد كما ورد في كتب اليهود والنصارى». ونحسب أنها الأكثر أمانة ودقة من سواها من المراجع.

والمعروف أنه قد اكتشفت في ثمانينيات القرن الماضي، نسخ قديمة من الأناجيل المكتوبة على الجلود، التي تختلف عن الأناجيل الأربعة في المسائل الجوهرية، وتتعارض معها على نحو خاص في مسألة صلب سيّدنا عيسى عليه السلام. في حين أنها تتفق وما أتى به القرآن الكريم، الذي يؤكد أنّ سيدنا عيسى لم يصلب، بل من صلب كان شخصاً آخر.

لنبدأ أولاً بما أُنزل على النبي موسى عليه السلام، إذ يقول (سفر التثنية 18/18):«أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه». ثم يقول موسى لأتباعه: «سيبعث الله من بين إخوانكم نبياً مثلي، فاستمعوا إليه في جميع ما يقول لكم، ومن لم يستمع لذلك النبي يستأصل من الناس» (مذكّرات الرسل 3 /22 - 23)[11].

والمعنى الواضح لهذه التعاليم، أنَّ من لم يتبع النبي المقبل لن يبقى يهودياً حقيقياً، لأنه سيخالف تعاليم موسى عليه السلام وأوامره، وسينفصل عن الناس الذين كان على دينهم. وهكذا، لن يكون يهودياً مطبقاً لتعاليم نبيه موسى عليه السلام.

وتتحدث نبوءة موسى عليه السلام، عن (النور المشع المنبعث من فاران)، أي قفار، جبال مكّة. فقد ورد في (سفر التثنية 2/23): «جاء نور الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ من جبال فاران، وجاء معه عشرة آلاف قديس، والشريعة المشعّة بيده اليمنى». المقصود من الإشارة، وفق بعض المصادر، أنّ نور الرب من سيناء، هو رسالة موسى عليه السلام. وأشرق لهم من ساعير، هي رسالة عيسى عليه السلام. وتلألأ في فاران هي رسالة مُحَمَّد (ﷺ).

يقول عبد الأحد داوود: لقد تحقّقت تلك النبوءة حرفياً، فمُحَمَّد (ﷺ) هو الذي دخل مكّة مع عشرة آلاف من أتباعه المؤمنين. لقد عاد إلى بيت الله وبيده اليمنى خاتمة الشرائع. فقد شعّ النور الإلهي في جبال مكّة، وهي بلد الوحي التي يعظم فيها بيت الله، وفيها تقدم الأضاحي. ولا تقدم الأضاحي لكنيسة المسيح عليه السلام. كما تشير نبوءة النبي حبقوق (سفر حبقوق 3/3): «القديس من جبل فاران، مجده غطى السماوات، والأرض امتلأت بحمده». وكلمة (حمده) ذات مغزى مهم. ذلك لأنّ اسم (مُحَمَّد) يعني حرفياً: (المحمود)[12].

ونظراً لتعدد التباشير، آثرنا الاكتفاء ببعضها. يبقى أنه لابد لنا أن نختم هذا الموضوع الهام، بالمرور على قصة الصحابي الجليل سلمان الفارسي. فإلى جانب كونها تجسيداً استثنائياً لحب الحقيقة، والذهاب بعيداً للبحث عنها، فهي تأكيد، في الوقت نفسه، لموضوع التباشير. وتبقى من قصص البحث الروحي والتضحية الخالدة حقاً. وسنختصرها ما أمكن دون المسَّ، بالتأكيد، بجوهرها، وذلك للوقوف على دلالاتها الإيمانية، والقدرية اللافتة.

ولد (مابه يوذخشان)، الذي سيصبح بعد إسلامه (سلمان الفارسي)، في منطقة أصفهان، بفارس. كان والده مجوسياً من عبّاد النار. وقد كلف منذ شبابه بمهمة الاعتناء بجذوة النار، كي تبقى مشتعلة في المعبد على نحو دائم. وهي مهمّة عالية المقام عند المجوس، ويعرف القائم بها بقَطَنِ النار. وذات يوم خرج سلمان من بيته ذاهباً إلى مزرعة والده، ومرّ بكنيسة سمع فيها، لأول مرة، تراتيل وأجراساً تُقرع، فدخل عليهم مشدوهاً بتلك الصلوات المسيحيّة.

لم يكن له علم بديانة عيسى عليه السلام، لكن صدره انشرح لهم كثيراً، وتاقت نفسه إلى معرفة الدين المسيحي أكثر، فسألهم عن مصدر هذا الدين، فنصحوه بأنه إذا أراد أن يتعلم الدين المسيحي، فعليه أن يذهب إلى الشام، للالتحاق بأحد القساوسة فيها، يخدمه ويتعلم على يده. وبناءً على نصيحتهم هرب من بلده وترك والده وأملاكه، وذهب ليلتحق بالقسيس في بلاد الشام.

كان هؤلاء القساوسة يمثّلون نخبة صغيرة من المسيحيين الحقيقيين في المنطقة آنذاك، ولكنهم كانوا كباراً في السنّ، موشكين على الرحيل. وقبيل وفاة قسيس الشام، أرشده للذهاب إلى زميل له في الموصل ليتابع تعليمه.

وفعلاً، رحل من الشام إلى الموصل والتحق بالقسيس في ديره. واستمرّت رحلة تعلمه الديانة المسيحية. وعندما قارب قسيس الموصل الأجل، نصحه بالالتحاق بقسيس آخر، معروف بسعة علومه، في منطقة عمورية في الشام. وعاد سلمان، دون تردّد، محمولاً بشوقه العارم إلى معرفة الحقيقة الكبرى، من الموصل إلى الشام مرة ثانية. وكانت آخر محطة له مع القساوسة والكنائس.

وبعد أعوام قليلة تكرر الأمر. ووجب على قسيس الكنيسة في عمورية، هو الآخر، الرحيل. فسأله سلمان النصيحة، فردّ قائلاً: يا بني لم أعد أعرف أحداً من قساوسة كنائسنا أنصحك باتباعه. لقد رحلوا جميعاً. ولكنه قد أطل زمان نبي، هو مبعوث بدين إبراهيم. يخرج بأرض العرب، يهاجر إلى أرض بين حرّتين وبينها نخل، وبه علامات لا تخفى.

يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة. فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. والحال، لو لم يكن ذلك القس المرحوم مطلعاً على الكتب التي بشرت بظهور النبي الكريم، لما تمكن من ذكر النبي بأوصافه وصفاته، ومعرفة حتى هجرته إلى المدينة.

ممتلئاً بالعزم، ومدفوعاً بذلك الهاجس الروحي، سار سلمان إلى حيث يأخذه قدره. لم يتردّد في اتباع كل الإرشادات والنصائح التي قدّمها له القساوسة الذين تعلم على أيديهم، ولكنّ نصيحة القس الراحل كانت خاصة جداً.

فهذه المرة لن يبحث عن قسيس أو راهب آخر يعلّمه تعاليم كنسية، بل عن آخر الأنبياء والرسل، يعلمه آخر رسالات السماء، ويقدم له الحقيقة التي أمضى نصف عمره يبحث عنها! وظل

سلمان في عمورية لبعض الوقت، يبحث عمّن يمكن أن يوصله إلى قدره. وأخيراً، وجد تجّاراً من بني كلب، فطلب منهم أن يأخذوه معهم، مقابل ما لديه، وهما بقرتان وبعض الأغنام!

وفعلاً، ركب معهم حتى وصلوا إلى وادي القرى، وهناك غدروا به، وباعوه عبداً إلى يهودي! لم يكن سلمان يتوقع ذلك القدر التعس، فقد كان يبحث عمّن يحرّره من الظلمات ويهديه إلى النور، لا مَنْ يستعبده. ومهما يكن من أمر، نقله «سيده» إلى منطقة قريبة من يَثْرِب ليعمل في مزرعته. وذات يوم زار اليهوديَّ ابن عم له، من بني قريظة من يثرب، فباعه له!

وحمله الأخير إلى يثرب. وبمجرد أن رأى المدينة، بنخيلها المذكورة، شعر بأنه قد وصل أخيراً، إلى المكان الذي يبحث عنه. ليس المهم كيف وصل، المهم أنه وصل إلى حيث أراد له الله أن يصل. أدرك أنه ذلك البلد الذي وصفه له القس قبل وفاته.

قاده قدره إلى حيث سيجد الحقيقة، التي طالما أشقاه البحث عنها أعواماً طويلة. وذات يوم، يقول سلمان، زار اليهودي أحد أقربائه، وكان مستاءً، وقال لقريبه: قاتل الله بني قيلة! (يكنى الأوس ببني قيله)، والله إنهم مجتمعون اليوم بقباء حول رجل قدم إليهم من مكّة، يزعمون أنّه نبي! ارتعد سلمان، وشعر بأن هذا هو الخبر الذي أتى ليسمعه، وهذا تحديداً ما أتى من أجله.

لقد تحقّقت، إذن، تباشير قس عمورية. لقد قدر الله أن يصل في الوقت نفسه الذي وصل فيه النبي إلى يثرب! ويقول سلمان: وفي المساء انتهزت الفرصة وذهبت إلى قباء، وكان معي بعض التمور، فدخلت عليه وقلت له: لقد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحقّ به من غيركم، فقربته إليه، فأخذه وقدمه إلى أصحابه ليأكلوا منه، ولم يأكل هو منه. فقلت في نفسي: هذه واحدة، وانصرفت عنه.

وبعد أيام قليلة عدت إليه وكان قد وصل إلى المدينة، وكان الرسول في البقيع يدفن أحد أصحابه، فقلت له: لقد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية لك، فقبل الهدية. وأكل منها هو وأصحابه. عندئذ استدرت أنظر إلى ظهره لأرى العلامة الثالثة: الختم النبوي الذي وصفه لي القسيس. فلما رآني عرف أني أحاول التثبُّت من شيء، فألقى رداءه عن ظهره، فرأيت الختم. فانكببت على رسول الله أقبّله وأبكي، وقصصت عليه قصتي الطويلة، فأعجب رسول الله بها، وطلب مني أن أقصّها على أتباعه[13].

بعد أن كان حراً عزيزاً في بلده، ساقته الأقدار للسّير في دروب طويلة ومتعرّجة، باذلاً كلّ ما بوسعه، باحثاً عن الحق، عن الله، وعن السبيل إليه. أخيراً، قدّر الله له أن يصل إلى رسوله، مقيداً كالعبد، يباع ويشترى، من يهودي إلى آخر، ليصل إلى حيث أراد الله له أن يصل. أراد الله أن يُوصله إلى النبي الأكرم ليهديه إليه، ويسلم على يده.

فحرّره الرسول، من تبرعات المسلمين، من عبودية اليهودي، وحرّره الإسلام من عبودية الظلمات الداخلية. وكان قلب سلمان مهيئاً للأنوار المحمدية، متعطشاً للإيمان، وسريعاً ما أفاض الله عليه بالعلوم الربانية، حتى قال عنه الرسول ذات مرة: «لقد شبع سلمان علماً».

يبقى، أنه من جمال الإسلام، أن يصبح سلمان، هذا الرجل الفارسيّ الأصل، القادم في الأصل من عتمة المجوسية، مثل أخيه ذلك العبد الحبشي، القادم من أدغال إفريقيا، بلال بن رباح، الذي كاد أن يموت تحت التعذيب بسبب إسلامه، أصبحا من صحابة رسول الله المقربين، في حين أصبح أبو لهب، عم الرسول، السيد، الهاشمي، القرشي، الذي أعمى الكِبر والجهل عقله وبصيرته، من المبعدين عن رسول الله في الدنيا، والمحجوبين عن الله وجنّته في الآخرة[14].

الفصل الأول

مكّة المكرّمة: مهد الرسالة

[وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ]

قدر مكّة المكرّمة قدر ربّاني مبارك. في هذا المكان، كما في القدس الشريف، يرتبط السمائي، المقدس بالأرضي، الفاني، ارتباطاً أبدياً حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ستعيش مكّة زمنين ربّانيين: الزمن الإبراهيمي، الزمن المؤسس لمكّة المكرّمة وللشّريعة الإبراهيمية، ثم الزمن المُحَمَّدي، زمن الإنسانية الجديدة.

ومع تباعدهما بآلاف السنين، ظلا مترابطين روحياً ومتفاعلين. اختار موقعها نبيّ الله الخليل، عندما رحل بزوجته هاجر الحامل بطفلهما إسماعيل عليهم السلام من العراق إلى فلسطين، مهاجراً نتيجة عداء قومه الوثنيين له. وبعد أن ولد إسماعيل في الخليل، رحل به والده إلى مكة وهناك أمرهما الله برفع قواعد «البيت الحرام»[15]. ليكون قبلة ومحجّاً للناس، طالبين من ربهما أن يجعلهما مسلمين له ومن ذرّيتهما أمة مسلمة.

ثم دعا إبراهيم الخليل ربه ليكون لتلك الأمة المسلمة رسول منها. وقال تعالى في سورة البقرة: [وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] (129).

وعندما سُئل النبي مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام عن مبدأ أمره، قال: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة أخي عيسى عليهما السلام، ورؤيا أمي». لم يأتِ الرسول الكريم بدين جديد. فهو من ذريّة

إسماعيل، وقد أمره ربه بأن يكون مسلماً ويتبع مِلّة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام. و«مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا» (آل عمران: 66). لقد سبق إبراهيم كل الرسالات؛ تختلف التشريعات، لكن الإسلام ليس إلا استمرارية لدين الله الواحد.

وقال تعالى في سورة البقرة (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) [النساء 163].

لقد جمع الإسلام روح زبور داوود، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى. وهي الملل والشرائع المختلفة المتصلة والمترابطة والمنصهرة في دين واحد، هو الإسلام. وتترادف الأقدار ليشرق الفجر المُحَمَّدي. ويولد في مكّة آخر أنبياء الله ورسله. كان ذلك في يوم الاثنين، من شهر ربيع الأول، من عام الفيل، ما يوافق سنة 570 أو 571 ميلادية. قبل ثلاث وخمسين سنة من الهجرة. ولتنزل في مكّة المكرّمة الرسالة السماوية الشريفة موجهة إلى العالمين.

ولد النبي مُحَمَّد في بني هاشم، الفرع الأقل ثراءً، لكنه الأكثر نبلاً وتقديراً بين العرب. قدّر الله أنّ يكون يتيم الأبوين. وفي هذا الشأن، يقول المالكي، بأنه لم يشاركه في الولادة من أبويه أخ ولا أخت، لانتهاء صفوتهما إليه، وقصور نسبهما عليه. وليكون مختصاً بنسب جعله الله تعالى للنبوة غاية ولتمام الشرف نهاية[16].

قبل ولادته بسبعة شهور، تُوفِي والده عبدالله شاباً، وكان في طريق عودته من رحلته إلى الشام. علماً أنه لم يقض ِمع زوجته آمنة بنت وهب، بعد زواجهما، إلا ثلاثة أيام قبل رحيله. وفي الخامسة أو السادسة من عمره توفّيت والدته آمنة أمام عينيه، وكان راجعاً معها من زيارة قبر والده في المدينة. ما زاد إلى حزنه العميق على والده، ألماً إضافياً بالغاً.

لكنه القدر وحكمته. ولم يبقَ له أحد إلا جدّه وأعمامه. وقبل وفاة والدته، قضى قرابة الثلاث سنوات ونصف السنة في البادية عند مرضعته حليمة. وهي تقاليد اتبعها أشراف العرب لضمان نشأة أطفالهم نشأة صحيّة سليمة، جسداً وعقلاً.

لم ير والده، ولم يعش طويلاً مع والدته. وبعد وفاتها، انتقل إلى أحضان جده الوقور الفاضل عبد المطلب، الذي أحبه حباً كبيراً واحتضنه، وهو الذي أعطاه اسم مُحَمَّد. قائلاً إنه يريد أن يكون

محموداً في السماء والأرض. وتحقّقت دعوته. وكان هو الوحيد بهذا الاسم في كل الجزيرة. لكنّ الجد، الغالي عند مُحَمَّد، كان في الثمانين من العمر، وسرعان ما فارق الحياة. وانتقل بعده إلى عناية عمّه أبي طالب.

بيد أن حالة التيتّم كانت جزءاً من مسار محكم التقدير، ودرساً من الدروس التربوية الربّانية المتواصلة لرسوله. كانت جزءاً من التكوين النفسي والأخلاقي والعلمي. ولئن كان من الطبيعي أن يكون لفقدان الوالدين، وحال اليتم، أثر كبير في نفسه كطفل، فقد كان له أثر إيجابيّ جليّ في حياة مُحَمَّد الإنسان والرسول.

وقد انعكست تلك الأعوام الصعبة من طفولته على شفافيته وإنسانيته العالية، وأضافت إليها سمواً فوق سمو. وسيقول، لاحقاً، بأنه هو وكافل اليتيم سيكونان معاً في الجنّة.

لا بد أن تكون حياة الأنبياء محاطة بالعناية منذ ولادتهم. محصنة لتحافظ على جوهرها الربّاني. نشأ مُحَمَّد اليافع متمتعاً بشخصية متزنة، مستقيمة ومحببة إلى الجميع، متميزاً منذ طفولته، بكرهه الأصنام والأوثان وطقوسها، ولم يقترب منها قط. حيث يقول في الحديث: «والله مَا دَنَوتُ مِنَ الأصنامِ شيئاً حتى أكرمني اللهُ بِالنُّبُوةِ».

ولد زكيّ النفس وطاهر القلب. لم يعرف لهو الشباب أو ميلاً إليه. لم يشرب الخمر، الذي كان من تقاليد المجتمع المكّي. حصّنه الله من هوى النفس والشيطان. كانت عصمة الله له كاملة منذ ولادته. هو بشر فعلاً، ولكن يبدو جلياً أنّ كل مساره المبكر يوحي بأنه كان مزكىً بكل صفات النبوة، قبل أن تنزل عليه الرسالة ويصبح نبياً رسولاً.

وفي شبابه، نشأ مُحَمَّد محاطاً بأهم شخصيتين من بني هاشم، مميزتين على مستوى قريش والعرب. عمّه الفذ حمزة، الذي دربه على حياة الفروسية وأخلاقها وفنونها. وعمّه الآخر العبّاس، الذي عرَّفه على عالم التجارة وشؤونها، وسيقف إلى جانبه مواقف مشرّفة حتى قبل أن يهديه الله إلى الإسلام. وكان إلى جانبه صاحبه الذي مثل أنموذجاً للوفاء والنبل الإنساني، أبو بكر الصدّيق.

كما كان لطفولته في البادية، عند مرضعته حليمة، رحمها الله، تأثيرها الإيجابي النفسي في التأسيس لشخصيته الناضجة. حيث كانت البادية مخزن القيم والأعراف العربية الأصيلة، وقد تشرّب لغته العربية الفصيحة من منابعها الأصيلة. وكان أفضل من نطق بالعربية.

عمل في بداية حياته راعياً للغنم. وهي مهنة شاقّة، خصوصاً في صحارى مكّة وشمسها الحارقة. ولا يعمل فيها إلّا من أجبرته الحياة على ذلك. لكنها، كما يقال، مهنة الأنبياء الذين يبدأون حياتهم برعي الغنم ثم يختمونها برعاية الخلائق[17]. فهي، أيضاً، مهنة التربية الأخلاقية والفضائل.

وكان من شأن هذه التجربة أن تغذّي في الإنسان الإحساس بالمسؤولية، وتعزز قدرته على الصبر وقوة الاحتمال، مثلما تقوي لديه ملكة التأمل وصفاء الذهن ونقاء الفطرة. وفي شبابه بدأ يعمل في التجارة التي تعلمها من عمه العبّاس. وبرز اسم مُحَمَّد، في الوسط الأرستقراطي المكي، متميزاً بالصفات الحميدة ومكارم الأخلاق. وصدق القول والأمانة دائماً على قمة الهرم القيمي، فعُرف بـ «الصادق الأمين».

وما يدلل على مكانة مُحَمَّد المعنوية في قريش، قبل البعثة، قصة الحجر الأسود. يذكر أنّ بناء الكعبة قد تصدّعت أركانه، فقامت قريش بإعادة بنائها. بيد أنهم عندما وصلوا إلى وضع الحجر الأسود في مكانه، اختلفت الأطراف على من ينال شرف وضعه. وكان للحجر الأسود منزلة كبيرة من القداسة، حتى في نفوس المشركين.

وعندما اشتد بينهم الخلاف، اتفقوا أخيراً، على أن يُحَكموا، فيما اختلفوا فيه، أول رجل يدخل عليهم من باب المسجد، فارتضوا ذلك الرأي. وعندما كانوا ينتظرون، دخل عليهم مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، ففرحوا لرؤيته، وقالوا: هذا الصادق الأمين رضينا به حَكَماً.

وبعد أن أخبروه بسبب خلافهم، بسط مُحَمَّد رداءه على الأرض، ووضع الحجر في وسطه، وطلب من كل قبيلة أن تمسك بطرف الرداء، لتشترك كل الأطراف في شرف حمله. وعندما رفع الحجر إلى مكانه أخذه النبي بيده ووضعه في موضعه على جدار مكّة. وبحكمته جنّب مكّة وأهلها الخلاف الاجتماعي والتوتر.

وتبين لنا هذه القصة الرمزية، مسألتين: الأولى: مكانة الرسول المعنوية الكبيرة في قريش. والثانية: رجاحة العقل في حلِّ الخلاف بإشراك الجميع في حمله.

ثم ساقه قدره، مُزكىً بالصفات الحميدة، للعمل لدى السيّدة خديجة بنت خويلد؛ تلك السيدة الفاضلة التي تنحدر من نبلاء قريش وأثريائها. وقد عرفت عن مُحَمَّد صدقه وأمانته، وطلبت منه

العمل عندها. وفي رحلته الأولى إلى الشام، التقى، في منطقة بصرى، زاهداً يدعى «نسطوريوس»، الذي حلَّ محل الزاهد المعروف في التاريخ الإسلامي «بحيرا».

وقد أخبر نسطوريوس مُحَمَّداً ما قد أخبره به بحيرا. وهو أنّ الله تعالى لا يخص عنايته ديناً معيناً ولا أمة دون أخرى. وما قول اليهود بأن الله اختارهم من بين سائر ملل الدنيا إلا ادّعاء وتكبّر. وأن الله يحل رحمته في كل أمم الدنيا، يهوداً وغير يهود. كما أخبره بأنه سيبعث نبياً من بين العرب، وسيغير كثيراً من عقائدهم واعتقاداتهم[18].

وبعد عودته من تلك الرحلة التجارية الأولى، نقل لها الخادم، الذي رافق مُحَمَّداً، إعجابه بشخصيته. حيث انبهر بأخلاقه المميزة وتواضعه الجم، واحترامه للآخرين. ولم تأتِ تلك الأخبار إلا لتؤكد ما كان معروفاً عنه، فشغفت هذه السيدة النبيلة بحبه.

وفي أول لقاء بينهما بعد الرحلة الثانية، عرضت عليه الزواج بها. مشيرة إلى أنّ ما دفعها إلى هذا القرار هو أخلاقه الحميدة. علماً أنها سبق وأن رفضت عروضاً من بعض شخصيات مكّة الكبيرة.

ومن جانبه، وهو الذي يعرف مكانة السيدة خديجة الاجتماعية، والمشهورة بالنُّبل والطهارة، لم يتردّد في القبول، على الرغم من أنها كانت أرملة، وتكبره بخمسة عشر عاماً. لكنّ عقد الزواج، كما يقول المؤمنون، يكتب في السماء. تزوّج مُحَمَّد وهو في الخامسة والعشرين من العمر، وكانت خديجة في الأربعين.

وخلال الخمسة عشر عاماً من زواجهما، سينعم الرسول بحياة عائلية مثالية. وفّرت له السيدة خديجة الدفء العائلي والسكينة، وكل ما افتقده في طفولته وشبابه. وأنجبت له ستة أطفال، أربع بنات وولدين. مات الولدان في سن الرضاع، وبقيت له البنات؛ رقيّة، وأم كلثوم، وزينب، وفاطمة، عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه. وسيكون لفاطمة مكانة كبيرة في التاريخ الإسلامي.

وما قد يبدو لافتاً في هذه القصة، هو المكانة الاجتماعية للمرأة في العصر الجاهلي، حيث كانت المرأة النبيلة تتمتّع عند العرب بمكانة اجتماعية ومعنوية عالية. تحظى بالاحترام المطلوب. شبه مستقلة في الحياة العملية. تمارس مهنة التجارة. وتتعامل مع التجّار من الرجال.

وفوق ذلك كانت تختار الزوج وتخطبه. لكن ربما لم يكن للعامة من النساء المكانة والحقوق نفسها، لا ندري. ومهما يكن من أمر، سيأتي الإسلام، كما سنرى في المرحلة المدنية، ليمنح المرأة، في قانون الإرث خصوصاً، حقوقاً لم تكن تتمتّع بها من قبل. وسيضمن لها حقوقها المادية كاملة وسيرفع من مكانتها الاجتماعية.

غار حراء: ولادة الرسالة

كان الرسول (ﷺ) على موعد مع رَبه. والمتأمل لسيرته الكريمة، في كل مراحل حياته؛ العائلة، الولادة، الطفولة، والشباب، حتى زواجه بالسيدة خديجة، يمكنه أن يرى أنه كان يعيش قدراً ربّانياً جلياً. وكانت خطى الرسول وسيرته مرسومة بعناية إلهية لا تخطئها العين. وستؤكد لنا سورة الضحى ذلك لاحقاً.

الخلوة في غار حراء كانت بداية معراج قلبه إلى السماء. هي خلوة الاعتكاف والتبتّل وذكر الله. في ذلك الغار، على قمّة ذلك الجبل، الذي يبعد بضعة أميال من مكّة، خصص شهر رمضان، من كل عام، يذهب إليه ليختلي روحياً بربه. وقد هيّأ له إيمانه الإبراهيمي الصلة المطلوبة بخالقه. فكان يذكر الله على نحو متواصل طوال الشهر، فيصفو قلبه لتشرق عليه الأنوار. والخلوة، كما قيل: صفوة الصفوة[19].

كانت تستغرق مدة الوصول إلى الغار ساعة، أو أكثر، من المشي والصعود على الجبل. وعندما ينتهي زاده القليل من الزيت والخبز الجاف أو التمر، كان ينزل ليتزوّد مجدداً، ثم يعود إلى خلوته مرة أخرى. ما يبين شدة اهتمامه بهذه الممارسة الروحية. وأحياناً، لتجنب قطع الخلوة والنزول، كانت السيدة خديجة تصعد إليه بنفسها لتمدّه بغذائه البسيط والماء.

كان يشعر في هذا الغار الصغير، الموحش، الذي لا تزيد مساحته على مترين مربعين، بعيداً عن الدنيا وأهلها، بحالة روحانية تشدّه إلى الاستمرار في الذكر والتأمل. كما تمنحه الشعور بالاتصال الروحي بخالقه.

دأب على خلوته قرابة الخمس سنوات، بحيث غدت جزءاً من حياته العبادية الروحية. فضلاً عن ذلك، فقد خلقت حالة السمو الأخلاقي، والطهارة الروحية، وكرهه للشّرك، وإيمانه الإبراهيمي، وحبه للعزلة، حالة خاصة في الوسط المكي. حتى قال عنه أهل مكّة: «إنّ مُحَمَّداً عشق ربه».

وكانوا صادقين. ذلك لأنه لو لم يكن مدفوعاً بذلك الحب الإلهي، وذلك النداء الإلهامي الداخلي، لما تحمّل تلك الخلوات الطويلة ومشقّتها، وهذا الانقطاع الكامل عن عائلته. ويمكن القول اليوم بأنّ الله قد حبب إليه الخلوة، ليهيئه قلباً وعقلاً، لحمل رسالته. إذن، كانت الخلوة جزءاً أساسياً من التهيئة الروحية لهذا القدر الربّاني الكبير.

ويكتب أمين دويدار في كتابه «صور من حياة الرسول»، أن مُحَمَّداً لم يكن مقلداً لغيره ممن عاصروه أو من سبقوه من أحناف العرب، بل كان ذلك إلهاماً من الله، كان تهيئة لإشراق نور النبوة على نفسه الطاهرة[20]. والحال أنه سيستمر دأبه في الخلوة والتبتل، حتى بعد البعثة، لتشكل جزءاً هاماً من حياته الربّانية. وهي من سنن الرسول المفقودة عند المسلمين.

أناب مُحَمَّد بقلبه إلى الله، وأصبح معه قلباً وروحاً. وعندما صفا قلبه تماماً ارتبط بالله ارتباطاً كاملاً. وحينذاك بدأت تتنزّل عليه الرؤيا في المنام. فكان كل ما يراه في المنام يتحقّق واقعاً، كما رآه، في اليوم التالي. وكانت تلك الرؤى، كما يبدو، هي أيضاً، جزءاً من الإعداد الروحي والتهيئة للوحي. وهي من الكرامات الأولى. ويُذكر أن الإلهامات كانت متواصلة، وقد استمرت ستة أشهر قبل نزول الرسالة.

الفجر المُحَمَّدي

الفجر المُحَمَّدي هو فجر الإنسانية الجديدة. ومع بلوغه سن الأربعين، وفي ليلة القدر، من شهر رمضان عام 610 ميلادي، وبعد يوم طويل من التعبد والذكر في غار حراء، خلَدَ مُحَمَّد، كعادته، إلى النوم. وبينما هو نائم جاءه جبريل عليه السلام، فأيقظه وقال له:

اقرأ. فردَّ: ما أنا بقارئ. فقال: اقرأ، فردَّ: ما أنا بقارئ. اقرأ: فقال: ما أنا بقارئ. ثم قال جبريل: [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)]. قال: فقرأتها، ثم انصرف عني، وكأنها طبعت في قلبي. وكذلك سيكون شأن القرآن الكريم.

بعد نزول الوحي، نزل مُحَمَّد من الجبل مسرعاً إلى زوجته خديجة، وَجِلاً من هول الحدث، وخائفاً على نفسه. فلم يكن الحدث كأيِّ حدث، وأخبرها بالأمر ولاحظت عليه شيئاً من القلق

والخوف. وبما أنها كانت من الأحناف، وعميقة الإيمان بالله، وكأنها كانت متوقّعة شيئاً من هذا، قيل إنها كادت تسقط من الفرح.

لم يكن الخبر كأي خبر. فقد اختار الله تعالى زوجها نبياً رسولاً، يحمل رسالة الرحمة والمغفرة للبشرية. فطمأنته، وردّت عليه بيقين المؤمن: معاذ الله لن يخزيك الله أبداً. فوالله إنك لتؤدّي الأمانة، وتعين المحتاج، وتقف مع المظلوم، وتصل الرحم، وتصدق الحديث.

كان لدى هذه السيدة الفاضلة يقين المؤمن بأن الرجل الصالح، الأمين، الصادق، الذي يتمتّع بالصفات التي يحبها الله، لن يصاب بأي مكروه من ربه. كانت موقنة بأن الله لا يتخلى عن عباده الصالحين، ومدركة لنتائج العمل الصالح.

هنا، أيضاً، يتبدّى لنا جلياً قدر الارتباط بالسيدة الفاضلة خديجة. ودورها الكبير جداً الذي ستضطلع به في حياة مُحَمَّد، قبل الرسالة وبعدها. كانت مثله إبراهيمية الإيمان، وكانت تتمتّع برجاحة العقل والحكمة، وهي أول المسلمين[21].

وعندما سمعت ما أتى به جبريل عليه السلام، قالت له: أبشر يا ابن العم، فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة. وللتحقّق من ذلك، انطلقت معه إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل، وكان من الأحناف، وقيل إنه تنصّر. لكنه كان حكيماً وذا علم، عارفاً، كما تذكر السَّير، بالكتب المقدسة؛ بالتوراة والإنجيل. وكانت السيدة خديجة متيقّنة أنها ستجد لديه التفسير الصحيح لهذا الحدث السماوي العظيم.

خاطبت ورقة، قائلة: يا ابن العم اسمع ما حدث لابن أخيك. فأخبره مُحَمَّد (ﷺ) بما حدث. فأدرك ورقة دون أدنى تردد ما كرّم الله به مُحَمَّداً. وقال له: «والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، وقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء لموسى»، ثم قال: ولكن قومك سيكذبونك، ويؤذونك، ويخرجونك!

وأضاف، ليتني أكون حياً، إذ يخرجك قومك. فسأل الرسول: «أومخرجيّ هم؟»، فقال ورقة: نعم! لم يأت رجل قط بما جئت به إلّا عُودي. وإن أدركت ذلك اليوم، وطالت بي الحياة، لأنصرنّك نصراً مؤزّراً[22]. كانت تلك شهادة من رجل مؤمن، أكان من الأحناف أم نصرانياً، عارف بالرسالات السماوية وقصص الأنبياء والرسل.

كانت آية «اقرأ»، فاتحة العلم والحكمة، مفتاحاً للخير ولأنوار السماء التي سيشرق بفضلها فجر الإنسانية الجديدة. افتتح القرآن درسه الأول بأمر إلهي لإزالة الظلمة والجهل من عقول البشر وقلوبهم، بالعلم والمعرفة. اقرأ لتتعلم ولتكون (وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا) [الأحزاب 46]. أقرأ لتكون سراجاً مضيئاً لقلوب الإنسانية.

لا تكتمل المعرفة بالله وتجلياته وإبداعه، ولا بالإيمان والتوحيد، إلا بكمال العلم والمعرفة الروحية. فالنور والظلمات لا يستويان. بيد أنه لن تكتمل المعرفة بالعلم وحده. ولكن بالعلم المزكّى بالحكمة. ويقول الحق: [يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا]. ولئن كانت الحكمة هي الدرجة العليا من درجات العقل، فلنا أن نتخيل مكانة العقل في الإسلام. ولا حكمة بعقل جاهل ومظلم.

لم يُطلب من الرسول أن يصلّي أو يصوم، بل أن يقرأ. أول ما خاطب الله برسالة اقرأ هو عقل الإنسان مباشرةً. ستقرأ، ولكن ليست أي علوم، بل علوم السماء. اقرأ وربك الأكرم، الذي خلق والذي علّم. تربط هذه الآية بين الخلق، والإنسان، والعلم. وهذه الكلمات تشكل الأساس التكويني لمعنى الوجود وحقيقته.

نعم، كان الرسول الكريم أميًّا بعلوم أهل الدنيا، ولكن عالماً بعلوم السماء. وهي الأسمى والأكرم. وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون أمّياً، لكي لا ينطق عن الهوى. لا ينطق إلا عن وحي يوحى إليه بالعلوم الربّانية، المنزلة عليه بمقادير، ووفق مسار مرسوم. ويقول الله له: (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [النساء 113].

علمه مالم يعلم. أفاض الله عليه بالعلوم والحكمة والأخلاق الربّانية، وهي علوم خاصة بالأنبياء. ومنذ غار حراء سيبدأ تعليم النبي، عليه الصلاة والسلام، من ربه مباشرةً. كان الله نفسه معلمه ومربّيه. حتى تربيته سيتولاها الله سبحانه وتعالى. فكيف يكون ذلك التلميذ، على حدّ تعبير الشيخ أحمد كفتارو، إذا كان معلمه خالق الكون؟! وكيف تكون تربية وأخلاق من رباه خالق الوجود؟! وسيقول (ﷺ)، لاحقاً: «أدبّني ربّي فأحسن تأديبي».

وكان الروح الأمين، جبريل عليه السلام، يحمل إليه دروس السماء، ويشرف على تطبيقها. ونذكر حديثاً لأم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، عن النبي (ﷺ)، عن جبريل عليه السلام، قال:

قلّبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلاً أفضل من مُحَمَّد (ﷺ). ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم[23].

كل أنبياء الله أوتوا حكماً وعلماً خاصاً لأبناء قومهم. يبقى أن القرآن، وهو العلم الربّاني الوحيد الذي أتى به الرسول ﷺ)، ليس للعرب وحدهم، بل للعالمين. والله تعالى يقول: ولقد كرّمنا بني آدم. وسيتحول نطق الرسول بالسور والآيات القرآنية إلى علم وشرائع وأحكام. ويتحول قوله وفعله إلى سنن محمّلة بالأنوار، ولا يضل من اهتدى بها. ويأمر الله المؤمنين بالتعلم منها والاقتداء بها، (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) [الأحزاب 21].

والحال، أنه بعد نزول السُّوَر، تظل مطبوعة في قلب مُحَمَّد وكأنها في كتاب محفوظ. لا ينساها أبداً. وهكذا، سيطبع كل القرآن في قلبه. تعلم الرسول كل العلوم من القرآن الكريم. فهو إلى جانب كونه آخر الرسالات، هو، أيضاً، أهم كتاب ثقافي وجد على الأرض. وما زال يبوح بأسراره كلما تقدم عقل الإنسان وعلمه.

وبفضل علوم السماء، سيتحول الرسول إلى نهر متدفّق من العلوم والمعارف والأنوار. وسيصبح معلماً للمسلمين، مربّياً، وعالماً، وحكيماً، وقائداً فذاً، ورجل دولة. وسيخرج بأمّته من كهوف الوثنية والجهل إلى فضاءات العلم والإيمان. كما سيرسي القواعد والأسس الثابتة للحضارة الإسلامية الإنسانية الباهرة.

وستتحول حياة الرسول إلى آياتٍ معاشةٍ للقرآن الكريم قولاً وفعلاً. فمن لا ينطق إلا بوحي من ربّه، لا بد أن تكون حياته تجسيداً حقيقياً لكتاب ربه. وقد أكدت السيدة عائشة هذا الأمر، عندما سئلت عن خلقه، فقالت: «كان خلقه القرآن». وثمّة وصف معروف يقول: إن الكون قرآن صامت، والقرآن هو الكون الناطق، والرسول هو القرآن الذي يمشي على الأرض.

وبعد أن نزل الوحي واتصلت روح مُحَمَّد بربه، اكتسب منه الصفات العليا التي وهبها الله له لتكتمل صفاته النبوية، ولتمكينه من حمل رسالته. أفاض الله عليه بأسمى الفضائل والصفات الربّانية، فزاد لديه العلم، الحكمة، الرحمة، الصبر، الحلم، السخاء، التسامح، والعفو وقوة الإرادة. وتحول إلى حديقة العلم والحكمة.

وأصبحت الأخلاق المُحَمَّدية من السنَن الملزمة التي يجب على المسلم الواعي الالتزام بها نصاً وروحاً. لأنه بدونها لا يمكنه أن يصبح مؤمناً مستنير العقل والقلب. فالتمسك بالأخلاق المُحَمَّدية من شأنه أن يغذّي وعي المسلم ويعمّق إيمانه. ولهذا هي من جوهر الدين، أي من روح العبادات. وما قيمة العبادة عند الله دون الأخلاق المُحَمَّدية؟

بيد أنه بعد نزول «اقرأ»، انقطع الوحي قرابة الأربعين يوماً. وقيل ستة أشهر. وندرك أنه كان انقطاع لحكمته الإلهية، لكن كان له أثر كبير في النبي. فالانقطاع عن الاتصال بالله ليس كأي انقطاع، خصوصاً أنه انقطاع يأتي مباشرةً بعد أن بُلّغ بأنه رسول الله. ولا ريب أنه قد أثار شيئاً من الوجل والشكّ في نفسه.

كان يقضي بعض الوقت يمشي متأملاً في جبال مكّة وشعابها. يبحث في نفسه عما يمكن أن يزيل شكوكه ووجله. وتذكر السِّيَر أنه حتى قبل أن تنزل عليه الرسالة، كانت بعض الصخور والأشجار تسلّم عليه «السلام عليك يا رسول الله». وكانت في البدء تثير الكثير من هواجسه.

إلا أنّ السيدة خديجة كانت إلى جانبه دائماً، تشدّ من أزره وتهدّئ من وجله. وقريباً سينزل الله عليه سورة الضحى لتبدد شكوكه، وتؤكّد له أنه لم يغب عن العناية الإلهية ولا طرفة عين. وتذكره بأن الله كان موجوداً معه في كل مراحل حياته.

[وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)]

وذات يوم، حينما كان سائراً في جولاته في جبال مكّة، سمع صوتاً من السماء، فإذا المَلَك الذي جاءه في غار حراء جالس بين السماء والأرض. لا يلتفت مُحَمَّد إلى أيِّ جهة من السماء إلا ويراه جالساً، وكأنه مغطٍّ السماء. فقال له: «أنا جبريل وأنت رسول الله». فاعترى مُحَمَّداً شيء من الخوف، وكأنه، للوهلة الأولى، لم يتصوّره ملكاً مرسلاً من ربه.

وعاد مسرعاً إلى أهله يرتجف ويكرر: زمّلوني، زمّلوني! فزمّلته السيدة خديجة وجلست إلى جانبه. وعندما كان متدثراً في فراشه، أتاه جبريل بالأمر الإلهي الثاني: [يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ

(2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)] [المدثر 1-7] .

وبعد أن نزلت سورة المدثّر، ونزل أمر السماء بالقراءة باسم ربه، وقد أدرك أنّ الله تعالى حاضر معه، لم يهجره أو ينساه. لم يبق عليه آنئذ، إلا أن يبدأ أولى مهامّ رسالته، فينذر قومه. وستبدأ رسائل السماء تتنزّل عليه تباعاً، وتحفظ في قلبه، وما عليه الآن إلا أن يقوم بما كلف به للبشريّة.

ليحمل رسالة السماء كما أمر الله. وكان أمر الله له، في البدء، بأن يدعو قومه الأقربين؛ يبشّرهم بنزول الرسالة، ويدعوهم إلى الله، ويهديهم إليه، ويصبر على أمر ربّه، فلأمور السماء مقاديرها وأوقاتها، والله هو الذي يحدّد الأزمان ويسدّد خطاه بحكمة.

وهكذا، دعا الأقربين من عشيرته. وكانت السيدة خديجة أول من استنار قلبها بآية «اقرأ»، وهي أول المسلمين، وأول المقرّبين إلى الله. كان قلبها الطاهر مهيَّأً للدعوة، وقد انتظرتها بشوق. وسيتبعها من اصطفاهم الله، واحداً تلو آخر، ليشكلوا نواة القافلة النورانية المُحَمَّدية المصطفاة. تلك القافلة التي سيعلمها الرسول ويربّيها، ثم يقودها لتحمل رسالة الخير والرحمة للبشرية، وستسير في طريقها المرسوم، مستنيرة بالسراج المنير.

ومثلما علّمه جبريل عليه السلام الوضوء والصلاة والدعاء، علّم الرسول زوجته، وبدآ يصليان معاً، ركعتين صباحاً وركعتين مساءً. قبل أن يعرج إلى ربّه، بعد عشرة أعوام، في رحلة الإسراء، التي فُرضت فيها الصلوات الخمس. فحتى عبادة الصلاة أتت متدرّجة مثل سور التحريم.

وذات مساء، عندما كانا يصليان، دخل عليهما عليّ، وكان في الثامنة أو العاشرة من العمر، وقد أخذه الرسول ليسكن معه، وعندما انتهيا من الصلاة، سأل عليّ: لمن تسجدان؟ فردّ الرسول: «نسجد لله الذي بعثني نبياً وأمرني أن أدعو الناس إليه». وأسلم عليّ بن أبي طالب وهو لا يزال يافعاً.

وغنيٌّ عن القول، أن الله قد كرّم عليّاً كرامة لا توصف؛ كرّمه بالعيش في أشرف بيت. وتكفّل الرسول بتربيته و بتعليمه شخصياً. وسينهل الأنوار الربّانية مباشرةً من منابعها الأصيلة. وسيتحول هذا الشاب الفقير إلى أكثر الصحابة علماً ومعرفةً وحكمة. وستكون مكانته من الرسول كهارون لموسى عليهما السلام.

وقد أصبح، فوق ذلك، زاهداً، متصوفاً، حكيماً، وشاعراً بليغاً. وكان أحد أشجع فرسان الإسلام في التاريخ. ولاحقاً، سيكون صهراً للنبي، وأباً للحسن والحسين، عليهما الصلاة والسلام.

ثم أسلم زيد بن حارثة، ابن الرسول بالتبنّي. وبعدهم أسلم رفيق درب الرسول، وأول الخلفاء الراشدين، أبو بكر الصدّيق، نبيل الإسلام. وبحكم مكانة أبي بكر الاجتماعية في الوسط المكّي، كأحد أشراف قريش، أسلمت ثلة من شباب قريش ونخبهم. وكان منهم عثمان بن عفّان، ثالث الخلفاء الراشدين، وسعد بن أبي وقّاص، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو حذيفة بن عتبة، ومصعب بن عمير، وغيرهم من رجالات التاريخ الإسلامي الكبار.

ووفق سيرة ابن هشام، وهي أهم السِّيَر التاريخية، كما ذكرنا، أسلمت ابنتا أبي بكر؛ أسماء وعائشة. وكانت عائشة آنذاك، وفق ما يذكر ابن هشام، صغيرة [24]. كانت صغيرة فعلاً، لكن في سن يقبل فيها إسلامها. ولو كانت طفلة، لا تدرك شيئاً، لما عدّتها السيرة من المسلمين الأوائل. فقد ولدت قبل البعثة بأربع أو خمس سنوات، على أقل تقدير. وهذا يعني أنها عندما تزوّجت بالرسول، بعد أربعة عشر عاماً من نزول الرسالة، كان عمرها في التاسعة عشرة أو العشرين من العمر. وكل ما عدا ذلك يفتقر إلى الصدقية.

مدرسة التزكية والحكمة

وسرعان ما التحقت بهذه المجموعة الصغيرة، مجموعة أخرى من قريش، منهم جعفر بن أبي طالب، ابن عم النبي والعزيز على قلبه. والأرقم بن أبي الأرقم، وهو صحابي شاب، سيتّخذ النبي من داره مقراً للدعوة. حيث كان يلتقي فيه أتباعه المسلمين، وقد عرف بيت الأرقم بـ «دار السلام».

وتحول إلى أول مدرسة في الإسلام. مدرسة تعليم القرآن، والتربية السلوكية والروحية. كان الرسول (ﷺ) يقرأ على أتباعه السور والآيات التي تتنزّل عليه مباشرةً، ويفسّرها لهم وكان: [يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] [الأعراف 157]

عمد الرسول الأكرم إلى إيصال علوم الكتاب والحكمة إلى قلوب هؤلاء الذين اصطفاهم الله ليمشوا خلف سراجهم المنير. فكان يشرح لهم السور وما تحمله من دلالات ومعانٍ ظاهرية وباطنية وهداية. ويتم حفظها للصلاة، ونقلها إلى إخوانهم المسلمين الجدد. وكان الرسول يبين الرؤية القرآنية لحقائق الوجود، الحياة، الخلق، الكون والإنسان. حقائق الخير والشر، وعلاقة ذلك بالظلام والنور.

تمثّل التزكية محور المنهج التربوي والسلوكي المُحَمَّدي. ولذلك عمل الرسول الأكرم على تطهير عقول أتباعه وأرواحهم من رواسب ثقافة الشرك والجاهلية وقيمها، واستبدل بها علوم السماء وأنوارها. وقد زكّاهم بالقيم الأخلاقية الإسلامية العليا.

تقول الآية الكريمة: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ) [آل عمران 164].

يلخّص الحق، مهمّة رسوله في تعليم المؤمنين الكتاب والحكمة ويزكيهم. ويربط بين التزكية والعلم والحكمة، كعناصر متكاملة لجوهر الإيمان، وبوابة أنوار السماء، وسر عروج العبادة. وهكذا، يصبح المؤمن مهيَّأً عقلاً وقلباً ليمُنَّ الله عليه بالفلاح في الدنيا والآخرة. ويأتي تأكيد الحق الواضح على نتائج التزكية، بقوله: [قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15)] [الأعلى 14-15]. لا فلاح، إذن، في الدنيا والآخرة، إلا لمن تزكى وذكر الله كثيراً.

وبعد أن تشرّب الصحابة قيم النبوة وصفاتها، أصبحوا يقدمون المثل الأعلى للمسلم الحقيقي في الأخلاق والورع والصبر. وبقدر ما بدأت أنوار الإيمان تملأ قلوبهم وتشكل وجدانهم، ازدادوا حبّاً لله ورسوله، وحب الرسول من حب الله، ولا إيمان لمن لا حب له. وهكذا، يتبيّن لنا أنّ الحب هو روح الإيمان، بل هو شرط الإيمان وتجلياته.

لم يكن الرسول ينتظر إلّا أمر ربّه. وهكذا، في مطلع السنة الرابعة، نزلت آية الأمر الربّاني على الرسول: [فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ] (الحِجر 94). لقد حان وقت الظهور والإعلان الرسمي للإسلام.

أظهر للملأ رسالة السماء، ولا تهتم بما سيفعله المشركون. لقد أتى الأمر الربّاني، في وقت قدّره الله سبحانه وتعالى، لمواجهة الحق بالباطل. وسريعاً سيبدأ الصراع بين الإيمان والشرك يأخذ بعده الحقيقي المنتظر.

الفصل الثاني

صراع الخير والشر

طريق الأنبياء ليست مفروشة بالورود. وحسب ما يقول الإنجيل: «لا كرامة لنبيّ في قومه». ولم يسلم أي نبي، منذ نوح مروراً بإبراهيم وموسى وعيسى، من الصدّ والتكذيب والأذى في وطنه. لكن وإن لم تكرم قريش رسول الله، وكان عليه أن يواجه أذاهم الجسدي والمعنوي بصنوفه، سريعاً ما سيجد مبعوث السماء، الاستجابة والمحبة الغامرة في قلوب أتباعه في مكّة أولاً، ثم في المدينة، وبعدها في الجزيرة كلها. ولاحقاً في كل مكان سيصل إليه الإسلام.

كان الصدام بين الحق والباطل مؤجّلاً، لكنه كان أيضاً، قدر لا سبيل إلى ردّه. فدعوة الحق تسعى إلى تحرير الإنسان من ظلمات الأرض وشرورها. تسعى إلى بناء الإنسان الحر، الروحي، المستنير، المرتبط قلبه بالسماء. أما الباطل، الشرك، فَيُصر، بدوره، على إبقاء الإنسان أعمى، فريسة الجهل. وليس الشرك إلا ظلمة القلب. فعندما يلغى الإلهي والمقدس من حياة الإنسان، تفرغ الحياة من روحانيتها وأنوارها، وتعمى فطرة الإنسان.

من جهله، يتمسك المشرك بظلامه وكأنه الخير كله! وعابد الأصنام، هو أيضاً، عابد لصنم نفسه، ولا يمكنه أن يرى أبعد من أهوائه ومتعه الحمقاء. والهوى هو أكبر إله عُبد في الأرض! ولأنّ المشرك، لا يؤمن بحياة روحية أرقى وأسمى. ولا يؤمن بحياة أخرى، لا خالق ولا مميت، لا قضاء ولا قدر، لا عقاب أو ثواب. الموت بالنسبة إليه هو النهاية الأبدية.

وهذا التفكير العدمي المتوارث، منذ أن ألغيت الشرائع الإبراهيمية، هو الذي سيترتّب على الرسول هدمه، وإزالته من الوجود، في سبيل إعادة بناء الحياة الكريمة للإنسان. والقاعدة هي نفسها، فكل تشييد جديد يحتاج إلى هدم البائد.

إذن، ثمّة أنقاض لا بد من إزالتها عن الطريق لتتقدم الإنسانية إلى فضاء الخير والفلاح. ولذلك، لن ينتزع الإسلام من قريش أصنامهم التي ينحتونها بأيديهم ثم يسجدون لها فحسب، بل سيلغي معها جملة المعتقدات الجاهلية المرتبطة بعقلية الأوثان وثقافتها.

وسيتوجب على الرسول الأكرم استبدلها بالعقول والقلوب المرتبطة بالإلهي والمقدس، لا بالجهل والخرافات. فضلاً عن ذلك، سيهدم تلك السلطة المعنوية الزائفة لقريش، ومعها المكانة التي يوفّرها لهم وجود هذه الأصنام في مكّة، على المجتمع الجاهلي.

هُم أهل الحَرَم وسدَنَة البيت وخُدّام الآلهة. ومن أجل ذلك يدين العرب لقريش بالسيادة. ويعترفون لهم بتلك المكانة المميزة. وكانت، فوق ذلك، تجلب لهم أموال الزوّار والتجّار. كما كانت قوافل قريش التجارية مؤمَّنةً من قطّاع الطرق، فلا يتجرأ أحد على مسّ قوافل أهل الحرم في رحلة الشتاء والصيف. الأولى إلى اليمن، والثانية إلى الشام. فإن فقدوا الأصنام فقدوا كل نفوذهم على القبائل المتخلفة[25].

هناك، إذن، مسألة المعتقد الراسخة، وإن كانت لا تبدو عميقة حقاً. وهنالك ما هو أعمق، وهي المصالح الاقتصادية والتجارية القوية. ثم المكانة الاجتماعية الكبيرة، وما يتبع ذلك من النفوذ السياسي والمعنوي لقريش. ولنتذكر، أنّ قريشاً كانت أهمّ قبيلة عربية في الجزيرة قاطبة، وقد تمتّعت بتلك المكانة على مدى مئات السنين، وتربّعت على جاهها طويلاً. ولم تكن، في الواقع، مسألة الوقوف في وجهها، في الذهن العربي آنذاك، من المسائل المتصورة أبداً.

يبقى أنه ما على الرسول إلا البلاغ المبين. فاختار المكان المناسب والمنطق ومعه الحزم، ولا شك بأن إعلان رسالته السماوية يحتاج إلى لغة الحزم. فذهب إلى جبل الصفا قرب الحرم الشريف، وصاح منادياً أهل مكّة، فالتفّت حوله الجموع القادمة من كل حدبٍ وصوب، فقال لهم: «يا معشر قريش! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم تصدقونني؟» قالوا: نعم. لم نعرفك إلا صادقاً.

فقال: «إنّي رسول الله إليكم.. إنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد، أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زُهرة، يا بني تيم، يا بني مخزوم..، إنّ الله أمرني أَنْ

أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيباً، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله..».

أعلن الرسول نزول الرسالة رسمياً. ونبّه قريشاً، في مضمونها، بأن هناك خالقاً، عالماً، حاضراً، يحيي ويمُيت وبيده الملك، وهناك حياة آخرة، وأن مآل الجهل والشرك بئس المصير. وكما كان متوقعاً، كان الجميع ينصت إليه بدهشة وذهول. لم تعتد قريش لغة الأنبياء. وفي جو الصمت المطلق، قاطعه عمّه، أبو عتبة، وكأنه يخاطب خصماً من قبيلة أخرى. قائلاً: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟!

بلّغ الرسول رسالته، وأعلن نزول رحمة السماء على أمّته. ومن أول يوم لظهور الرسالة المُحَمَّدية، أظهر أبو عتبة، موقفاً عدائياً تجاه رسول الله. فقد أعماه جهله عن فهم ما يدعوهم إليه رسول الرحمة. بالطبع، لم يرد النبي عليه، ولكن الله لم يؤجل دفاعه عن نبيه من سابع سماواته.

وحالاً، نزلت فيه سورة «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ»، ومعها وعد الله له بأن يُصْلى، هو وزوجته، ناراً ذات لهب. وبعد أن نزلت فيه السورة، وبدلت اسم أبي عتبة بالاسم الذي أطلقه عليه الله نفسه، أبي لهب، عرف أن موقف السماء منه لا عودة فيه. وبذلك أصبح أنموذجاً للإنسان الشقي في الإسلام.

مقابل ذلك، ظل الرسول (ﷺ)، بهدوئه وسكينته المعروفة، صامتاً، لا يرد على إساءات أبي لهب، التي ستستمر طوال المرحلة المكية. مثلما لن يرد على كل المسيئين والجهلة الآخرين طوال حياته. أولاً، لأن أخلاق الأنبياء تسمو على ذلك. وثانياً، لأن الله يقول: [ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ]. والنبي كونه مبعوث الرحمة للعالمين، لا يمكنه أن يكون إلا حكيماً، نبيلاً، كامل السمو.

لكنّ أبا لهب لا يتعلم ولم يتّعظ. ومن سمة الجاهل التمادي في جهالته، وقد ذهب بعيداً بإساءته، فقطع حتى أواصر الصلة العائلية بالرسول (ﷺ)، ولم يدرك أنها كانت صلة عزّة وشرف كبيرين له ولعائلته. وكان ابنا أبي لهب؛ عتبة وعتيبة، قد كتبا عقدَيْ زواجهما على ابنتَي الرسول؛ رقية وأم كلثوم، ولم يدخلا عليهما. ولكن بعد نزول الرسالة على أبيهما، طلبت أم عتبة وعتيبة، المعروفه بأم جميل، والتي لا تقل عن زوجها سوءاً وعدوانيةً، تطليق ابنتَي مُحَمَّد!

وفعلاً، تم ذلك دون إظهار أدنى مراعاة لمشاعر أو احترام. طلق الولدان بنتي الرسول (ﷺ). وهذه مسألة كبيرة في التقاليد والقيم العربية. ونحن نتحدث عن بنات نبي الله، والقرب من رسول الله هو القرب من الله وجنّته. وغنيٌّ عن القول، أن هذا الفعل الشائن، جرح البنتين، مثلما صدم والدتهما السيدة الكريمة خديجة صدمة كبيرة، وبالطبع أحزن رسول الله كثيراً.

المعروف أنّ مراحل التأسيس غالباً ما تكون صعبة وشاقة، بيد أن بداية الدعوة الإسلامية في مكّة، كانت من أصعب المراحل التي سيعيشها المسلمون. إذ إنه مع انطلاق المسار المُحَمَّدي، بدأت قريش حربها المعلنة على الرسول وأتباعه، تشتد وتيرتها وتأخذ أشكالاً مختلفة. وكان عليهم أن يتحملوا التنكيل والتعذيب بكل أشكاله. وفعلاً، لقد مثلت أعوام امتحان حقيقية. لكن في المقابل، سيمثل صبر المسلمين أنموذجاً باهراً لتجليات الإيمان في قلوبهم.

حيرة قريش

لا ينزل الرسل من السماء كل يوم. وكان ظهور الرسول في قريش حدثاً جللاً! وغنيّ عن القول، أن قريشاً كانت متصدّعة وفي حيرة من أمرها. فكرت في البدء في إرسال بعض الشخصيّات إلى الرسول، في محاولة لثنيه عن دعوته. عارضةً عليه كل ما خطر ببالها!

وفعلاً، ذهب في بادئ الأمر عتبة بن ربيعة. وهو من سادة قريش وحكمائها، إلى النبي (ﷺ)، ليقدم له عروض قريش التي توهّمت، بعقليتها الجاهلية، أنها مغرية. وكان الرسول، آنذاك، جالساً وحده في الحرم يتأمل ويذكر ربه.

فأتاه حكيم قريش، وقال له: يا ابن أخي، إنك منا، ولك الشرف والمكانة والنسب في العشيرة. وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم. فرقت به جماعتهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم. فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها. فقال له الرسول: «قل يا أبا الوليد، أسمع».

فقال: يا ابن أخي؛ إن كنت إنما تريد بما جئت به مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أثرانا. وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا، حتى لا نقضي أمراً من دونك. وإن كنت تريد به ملكاً ملّكنَاك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه، لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه!! وبعد أن عرض على الرسول كل ما لديه. قال له الرسول: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟». قال: نعم. قال له: «فاستمع مني»:

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ]

[حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8)]

قرأ النبي (ﷺ) سُوَرة فُصّلت. ويذكر أنه عندما وصل إلى قول الله تعالى: [فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ] وضع عتبة يده على فم النبي، وقال: ناشدتك الله والرحم إلا ما أمسكت!! طلب منه التوقّف عن القراءة خوفاً من الوعيد!

ظل عتبة بن ربيعة خلال قراءة السُّورة صامتاً بلا حركة. ينصت إلى لغة القرآن بذهول، وبلاغة القرآن آسرة حقاً. وبحكم لغة أهل قريش العربية الفاخرة، وثقافتهم الأدبية الشعرية المعروفة، كانوا عندما يسمعون القرآن، يدهشهم مستوى الفصاحة والبلاغة فيه.

وكان ممكناً للعارفين منهم التمييز بين كلام البشر، من شعر وسواه، وكلام الله. يبقى أنّ من فتح القرآن قلوبهم، وصارت مهيّأة لأنوار السماء، آمنوا به مباشرة، كما حدث لعمر بن الخطّاب عندما قرأ آية من سورة طه. أما المصرّون على الضلال، فسيبقون في ضلالهم المبين إلى يوم الدين. ستبقى قلوبهم مغلقة. لن يُسلِموا حتى لو وجدوا آياتهِ منزلةً من السماء.

وعندما انتهى الرسول، قال لعتبة: «سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك». عاد أبو الوليد من حيث أتى، مبهوراً بما سمع. وعندما وصل إلى جماعته في دار الندوة، قالوا: نحلف بالله أن أبا الوليد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به! فسألوه: ما وراءك يا أبا الوليد؟

فقال: لقد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة. يا معشر قريش؛ أطيعوني، وخَلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه. فوالله ليكونن لقوله، الذي سمعته منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم وعزّه عزّكم، وأنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك يا أبا الوليد بلسانه. فقال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[26].

عُرف عن العرب شغفهم بلغتهم، ولا شك في أن اللغة العربية قد قاربت نضجها وكمالها قبل البعثة. لكن بنزول القرآن ارتبطت اللغة العربية بالمقدس، وأضفى عليها شيئاً من قدسيته. وسيجعل بعض من يسمع القرآن يخرّ ساجداً بفضل بلاغة السُّوَر والآيات ويسلم.

وقد مثّل ظهور آخر أنبيائه من العرب، تكريماً إلهياً استثنائياً لهم وللغتهم. وبهذا الصدد سيقول النبي الأكرم: «ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم».

كان رأي عتبة بن ربيعة حكيماً، وهو رجل معروف بالحنكة والذكاء، لكنّ زعماء قريش لم يأخذوا به. لقد أعْمتْهم كبرياؤهم عن رؤية الحقيقة، وإدراك منطق العقل. ولكن ما هو محيّر حقاً أنه حتى حكيم قريش، الذي أذهلته آيات القرآن ومعانيه، سيموت مشركاً في معركة بدر.

علماً أنّ ابنه أبا حذيفة، قد أسلم وأصبح من أوائل صحابة الرسول الذين تربوا على يديه في مدرسة الأرقم. وكان في معركة بدر يقاتل إلى جانب الرسول، وكان أبوه عتبة يحارب في صفوف المشركين. وكادا أن يلتقيا، وجهاً لوجه، في المعركة، لكنّ الرسول منعه من ذلك. وفعلاً، قُتل عتبة على يد حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه. يبقى أنه عندما قُتل حزن أبو حذيفة عليه كثيراً، لأنه مات مشركاً.

من الواضح أنّ قريشاً كانت في حيرة من أمرها. فهم ليسوا قابلين رسالته، وليس وارداً عن الرسل، إن كانوا يتوقعون ذلك، العدول عن إيصال رسالة السماء. ثم قادتهم حيرتهم للاتفاق على أن يطلبوا منه أن يقدم لهم المعجزات، قائلين: لربما يؤمنون به لو أتى بها.

فقالوا له: اطلب لنا من ربك يسيّر لنا هذه الجبال الجرداء، ويفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق. وأكثر من ذلك؛ اطلب من ربك أن يبعث آباءنا كي نسألهم عما تقول! أو اسأل ربك ليبعث لك ملكاً يصدقك بالقول. اسأله أن يجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة ليعينك بها![27].

يقول الله تعالى في سورة الإسراء: [وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً (93)] [الإسراء 90-93]

لم تعبِّر هذه المطالب الجاهلية إلا عن حجم استكبار المشركين. وكان الرسول (ﷺ) يرد عليهم بصريح القول: «ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم. ولكن بعثني الله رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً. فبلغتكم رسالة ربّي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم»[28].

وفعلاً، الله سيحكم بينهم، وستدخل جيوش المسلمين إلى مكّة في يوم معلوم. وتقول الآية الكريمة: [قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] [الأعراف 188].

من الطبيعي أن يكون الله عالماً بما يحدث. فالله حيّ فاعل. بيد أن ما يعطيك إحساساً بحضور الله تعالى وإبداعه، وذلك ما سنراه جلياً طوال السيرة، هو أن السُّوَر والآيات القرآنية كانت تتنزّل على النبي تباعاً، قبل كل حدث أو بعده مباشرةً. وهو ما سيجعل القارئ يعيش حضور الله وفعله في الحياة.

تنزل الآيات، لتشرق بها أفئدة المؤمنين وليزدادوا إيماناً على إيمانهم، مثلما تبين جهل المشركين، وتكشف نياتهم، وتفنّدها الواحدة تلو الأخرى. ثم تدحض الحجج الجاهلية، وترد عليها بالأدلة والدلالات القرآنية البينة. والله تعالى يقول: [إِنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (25)] [المدثر 18-25].

«والله لو وضعوا الشمس في يميني..»

من جانب آخر، التجأت بعض شخصيات قريش تطرق باب عم النبي أبي طالب، سيد بني هاشم، ومرجعيتهم الأخلاقية، لتشكو إليه ابن أخيه. فإن تمكنوا من إقناعه كما تصوّروا، فهو الوحيد، في قريش، القادر على تطمينهم. ولم يكن أبو طالب يتمتّع بمكانة خاصة في قريش فحسب، بل بين العرب قاطبة في الجزيرة. لكنه بعد أن يعرف مدى جدية مُحَمَّد، سيخيب آمالهم. ومن موقعه المعنوي الكبير هذا، سيدافع عن النبي ضد قريش، حتى آخر نفس في حياته، علماً أنه لم يسلم.

فأتوه وقالوا له: إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا. وإن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا. فإما أن تكفّه عنا، وإما أن تخلّي بيننا وبينه. فإنك على ما نحن عليه من دين وعقيدة. كانوا يأملون بأن يتخلى أبو طالب عن ابن أخيه. لكن موقف العم، ومعه بنو هاشم كلهم، سيكون مفاجئاً لهم، كان موقفاً مشرفاً حقاً.

استدعى أبوطالب النبي (ﷺ) فقال له: «يا ابن أخي! إنّ قومك قد جاؤوني شاكين ومحتجّين. وأخبره بما قالوا. وأضاف: فأَبْقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق». من البَيِّن أن أبا طالب كان يشعر بالضغط الذي يمكن أن تمارسه عليه قريش.

وغنّيٌ عن القول، أن الرسول قد تأثر بما قاله له عمّه، حتى دمعت عيناه تعاطفاً واحتراماً. ولكنه رد عليه بمقولته الشهيرة، قائلاً: «يا عمّ! والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه، ما تركته».

هو أمر الله والقدر المحتوم. أدرك العم أنّ ابن أخيه ماضٍ في دعوته، ولن تردّه لا قريش ولا غيرها عن تبليغ رسالته. فرد عليه قائلاً: «اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيءٍ أبداً!» كان موقفاً جميلاً ومشرفاً من هذا الشيخ الفاضل.

وحينئذ أدرك أبو طالب، أنّ الخلاف بينه وبين قريش قد أصبح أمراً جاداً، وغدا أمر كرامة لا بد أن تصان. جمع بني هاشم وأخبرهم بما دار بينه وبين مبعوثي قريش. وذكّرهم بمسؤوليتهم العرفية والأخلاقية تجاه مُحَمَّد فهو منهم. وطلب منهم دعم الرسول والذود عنه، فوعدوه بذلك. فلا تسمح لهم كرامتهم بالتخلي عن رسول الله، وهو من بني هاشم، وإن لم يكونوا على دينه[29].

ظهرت روح العصبية القبلية في المجتمع المكي. بيد أنه ليست كل العصبيات سلبية. واحدة تعصب للحق، والأخرى تعصب للباطل والشرك. والعصبية القبلية من طبيعتها كامنة في حال الاستقرار والسلم، ولا تظهر إلا في حال التوتّر والشقاق. إذن، كانت قريش وحلفاؤها في جهة، وبنو هاشم والمسلمون في الجهة الثانية.

ولم يشذ عن بني هاشم إلا الشقي أبو لهب. ومع ذلك لم يسلم الرسول من الصد والأذى الجسدي والمعنوي، على يد سفهاء قريش. وقد وصل بهم الأمر إلى حدّ الاستهزاء به، مردّدين: «إن

غلام بني عبد المطلب ليُكلَّم من السماء»! ثم أتوا بشعرائهم يهجون مُحَمَّداً في قصائدهم. وكان الشعر، إلى جانب الخطابة، الوسيلة الإعلامية الأهم للتشهير بالخصم آنذاك.

كانت قريش متصدّعة، وتعيش، لأول مرة في تاريخها الألفي، أزمة حقيقية. ففي هدم معابد الشرك في العقول، تقويضٌ للثقافة القبلية البالية. وفي ذلك هدم كامل ونهائي لبنائها الثقافي التاريخي. وقد شكلت ثلاثةُ مبادئ إسلامية جوهرية أساساً لهذا المأزق التاريخي: مبدأ العدل، والمساواة، والتوحيد.

وكان من شأن تطبيق مبادئ العدل والمساواة، في مجتمع قائم أساساً على التمييز العرقي والطبقي، أن يضرب أساس البناء القبلي المادي والمعنوي. وكان من شأن ذلك أن يهزّ البنية الثقافية ويجرف أسس المعتقدات الجاهلية من جذورها. فضلاً عن أنها ستقوّض، لا محالة، مركز قريش الاجتماعي في الجزيرة كلها.

وعلى ضوء انتشار بعض تعاليم الإسلام ومبادئه، التي أتت كالأنوار تبدّد العتمة من قلوب المسلمين وتضيئها، أدرك المسلمون، العبيد والفقراء خصوصاً، أنّ الإسلام لم يأتِ ليحرّرهم من عبودية الجهل والشرك فحسب، بل، أيضاً، لينقذهم من كل صنوف الظلم وعبودية الإنسان للإنسان. هو، إذن، التحرر من الظلام الداخلي والظلم الخارجي معاً. وكان لهذه التعاليم والمبادئ الإنسانية السامية، وفي ذلك الزمن الموغل في الظلمات، تأثيرها السحري في نفوس المسلمين.

فضلاً عن ذلك، كان لروح الإخاء التي بثها النبي (ﷺ)، منذ البدء، تأثير حاسم في بناء معنويات المسلمين وتثبيتها. وقد أدركوا أنّ عزّتهم مرتبطة بعزّة الله ورسوله: [يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ] [المنافقون 8].

كيف للمشرك أن يرشده منطقه إلى ذلك؟ وهل للمشرك من سبيل إلى أن يدرك أنّ عزّة المؤمن الحقيقي تسقى من عزّة ربه؟ فالمؤمن عزيز برب العزّة، ولا عبودية إلا لله وحده. وأكرمكم عند الله أتقاكم، ليس أغناكم أو أرفعكم منزلة اجتماعية.

لقد وضع الرسول، صلوات الله عليه وسلامه، الأسس المتينة للأخوة بين المؤمنين على القاعدة الإسلامية المعروفة: «إنما المؤمنون إخوة»، لا تمييز ولا عنصرية في الإسلام. لا فرق بين

أبيض وأسود، بين عربي وعجمي إلا بالتقوى. وليست التقوى إلّا مكانة الله في قلب الإنسان، والتقوى هي الشعور الواعي، الدائم، بأن الله حاضر وفاعل في حياة الإنسان. وهكذا، سيساوي الإسلام بين العبد والسيد[30].

سيساوي بين بلال بن رباح، العبد الحبشي، وأبي بكر الصديق، صاحب الرسول ، الذي اشتراه وحرّره، وهو أول الخلفاء الراشدين. سيساوي بين عَمّار بن ياسر، المملوك سابقاً، والسيد حمزة، بطل قريش، وعم رسول الله. كلهم في الإسلام إخوة وأعزّاء. ذلك هو أنموذج من مفهوم العدل والمساواة التي نادى بها الرسول.

ثم هنالك عقيدة التوحيد، التي جعلها الإسلام أساسه الأول، والتي شكلت أقوى الصدمات وأشدها خطراً على المشركين. الله هو الحق وكل ما عداه باطل:[قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ] [سبأ 22]).

لقد قوّضت هذه العقيدة جملة معتقداتهم الجاهلية، وكشفت لهم حقيقة هذه الأوثان التي يعبدونها. فماذا يمكن أن يبقى لهم بعد ذلك من أسباب السيادة والمجد إنْ نجحت هذه الدعوة[31]؟ ذلك ما يقوله دويدار، لكن يمكن القول في المقابل، إنهم لو آمنوا وتبنّوا هذه الدعوة، لارتفعت مكانتهم في العرب وأُضيف إلى مجدهم مجد أكبر.

إيمان الفقراء :

لن أدع من أنار قلبي!

ولئن كانت الروابط القبلية، في البدء، تردع المشركين عن التعرض للمسلمين من أبناء القبائل المعروفة، مراعاةً لقواعد العُرف القبلي الضرورية لحالة العيش المشترك، فإنَّ سادة قريش لم يتأخروا في إظهار حقدهم، وصبّ جام غضبهم على فقراء المسلمين وعبيدهم. أولئك الذين استقر الإيمان في قلوبهم وأنارها. فقام مُلّاك العبيد بإهانتهم وتعذيبهم بأيديهم. فعذّب أميّةُ بن خلف بلالَ بن رباح، وهو حبشي الأصل، بوحشية لا سابق لها.

وكان أميّة يقول له: ستعذب حتى تكفر بمُحَمَّد، وتؤمن باللات والعزّى، أو تموت. وكان بلال يرد عليه رافعاً إصبعه إلى السماء: أحدٌ.. أحد.. وبإظهار إيمانه والتمسك به، كان يقدم أكبر تحدٍّ

لجلاده. كان السؤال هو: إلى أي درجة يمكنهم تحمّل هذا العذاب؟

وذات نهار، مرّ ورقة بن نوفل على بلال وهو يُعذّب، فقال له ورقة: نعم يا بلال أحدٌ.. أحد! ثم وجه كلامه إلى أمية بن خلف، قائلاً له: أحلف بالله، لئنْ قتلتموه لأتّخذنَّه حناناً[32]، أي لأعمل له قبراً يزار للتبرّك به.

لكنّ بلالاً لم يمت، فقد اشتراه أبو بكر من سيده، وأنقذه من الموت المحتّم، وحرّره من عبوديته المهينة. وسيصبح بلال، عبد قريش الفقير، من أصحاب الرسول المقربين، وأول مؤذّن في الإسلام. فأي تكريم ربّاني أكثر من هذا لهذا العبد الحبشي الفقير!

هذا مجرد مثال واحد من وجوه العدالة الإسلامية. وفوق ذلك، قدر الله أن يلتقي بلال وسيده السابق أمية، وجهاً لوجه، في معركة بدر. وفي مشهد ربّاني، صرخ بلال في وجهه: يا عدوّ الإسلام، وهو يغرز سيفه في صدره!

والواقع، أنّ أبا بكر قام بإنقاذ حياة ستة آخرين؛ منهم أربع نساء، اشتراهن من أسيادهن وهن تحت التعذيب. وحرّرهن بالمال من العذاب الجسدي، كما حرّرهن الإسلام من عذابات عبودية الروح وإذلالها. ولكنّ السيدة سميّة أمّ عمار، التي كانت تعذب، هي وزوجها وابنها عمّار بن ياسر، استشهدت تحت التعذيب. وقد مر عليها الرسول قبل موتها، وقال لها: «صبراً آل ياسر فموعدكم الجنّة».

ومن جانبه، حاول أبو بكر شراءها بأي ثمن، لكن سيّدها أبا جهل، رفض كل عروضه. وأكثر من ذلك، رفض توسل النساء القرشيات، اللواتي كان لسمية عليهن فضل توليدهن. فعذّبها حتى لم تعد قادرة على الحركة، ومع ذلك ثبتت على دينها على نحو مبهر.

وعندما يئس من كسر إرادتها، قرر قتلها، فجرّها على الأرض إلى ساحة الكعبة، وهناك سألها أمام الناس، قائلاً: ألا تتركين مُحَمَّداً؟ فأجابت: لن أدع من أنار قلبي! كانت هذه صرخة إيمان سيتردد صداها في نفوس المسلمين. فضربها برمحه ضربةً واحدة في صدرها، وتوقّفت أنفاسها الطاهرة. لكنها أخبرتنا، قبل أن تسلم روحها إلى بارئها، بأن ما غذى قوة احتمالها، واحتمال الآخرين الأسطوري على التعذيب، هو ذلك النور الذي أتى به مُحَمَّد وأنار به قلوبهم.

ويذكر جيورجيو، أنه عندما رأت قريش أنّ الإسلام ينتشر بين العبيد، وأنّ كل عبد يشتريه أبو بكر يحرّره، منعوا بيع العبيد له حتى لا يزداد عدد المسلمين. ويذكر أنّ أبا بكر قد صرف جلّ ثروته في سبيل انتشار الإسلام[33].

ومثل بلال، أصبح ابن الشهيدة سمية، عمّار بن ياسر، وهو شاب عشريني، صحابياً جليلاً مقرباً من النبي. وقف إلى جانبه طوال حياته، وخاض معه كل الحروب، وقد عاصر خلافة أبي بكر وعمر وعثمان. ولم يستشهد إلا إبّان خلافة علي بن أبي طالب في حربه ضد معاوية[34].

وجديرٌ بالذكر، هنا، أنّ معظم الجيل الأول والثاني من أتباع الرسول كانوا من الشباب. كان سعد بن أبي وقّاص، علي بن أبي طالب، زين بن حارث، عمار بن ياسر، وبلال بن رباح لا زالوا شباباً، وربما كان بلال أكبر هذا الجيل. وسيسلم عمر بن الخطاب وهو في السادسة والعشرين من العمر، وكان عثمان بن عفّان في الرابعة والثلاثين، وأبو بكر الصدّيق في الثامنة والثلاثين. وسيشهد التاريخ بأن هؤلاء النخبة قد حملوا المسؤولية بتفانٍ وجدارة منقطعة النظير. وليس من المبالغة القول، بأنهم عاشوا، بفضل تربية الرسول، حياة جهادية نموذجية بكل ما للتعبير من معنى.

وللدلالة على عمق إيمانهم وحبهم للرسول، نذكر قصّة سعد بن أبي وقّاص مع أمّه، حمنة بنت سفيان بن أمية، إحدى سيدات قريش. وهي قصة لافتة حقاً. حيث دخلت على ابنها سعد، وهو يصلّي، فصرخت في وجهه قائلة: يا ويلتاه! لقد صبأت يا سعد؟! فردّ عليها سعد قائلاً: لا يا أماه لقد اهتديت، اهتديت إلى الدين الحنيف، الذي يدعو إلى الخير، وإلى البر بالوالدين. وكان سعد معروفاً ببرّه لوالدته.

فطلبت منه ترك دين مُحَمَّد والعودة إلى دين آبائهم، فرفض. وفي محاولة يائسة منها لإجباره على التراجع عن موقفه، امتنعت عن الطعام والشراب، حتى يعود سعد عن دين مُحَمَّد. قائلة: واللات والعُزّى، لا يهنأ لي مقام في هذا البيت وأنت في جواري على دين مُحَمَّد! فردّ عليها قائلاً: لن أترك دين الله تعالى، وقد رشدت إلى الهداية بعد الضلال. لقد رشدت إلى الإيمان بعد الكفر.

وظلت مضربة عن الطعام والشراب ثلاثة أيام، في محاولة منها لإرغامه على ترك دينه، لكن عبثاً. حاول سعد إقناعها بكل السُّبل، إلّا أن قلب المشرك أعمى وليس بمقدوره رؤية أنوار الحقيقة. وعندما يئس، قال لها: اشربي أو لا تشربي، كلي أو لا تأكلي، والله لو أن لك مئة نفس،

وتخرج نفساً بعد نفس، ما تركت دين مُحَمَّد! وعندما رأت ذلك الحزم، والإيمان المشع في وجهه، تراجعت عن تعنّتها.

واللافت حقاً، هو دور النساء الفاعل في الإسلام؛ كان دوراً رائداً بكل المقاييس. كان أول من أسلم امرأة؛ هي خديجة عليها السلام. وأول من استشهد امرأة؛ هي سميّة آل ياسر رضي الله عنها. وتدوّن السِّيَر الدور الفاعل للنساء في التاريخ الإسلامي المبكر؛ فقد ساهمت أعداد ليست بالقليلة من المسلمات، في انتشار الدعوة الإسلامية، والدفاع عنها، في السلم كما في الحرب، جنباً إلى جنب مع الرجال.

ويزخر التاريخ الإسلامي بتلك القصص المعبّرة عن حب المؤمنات لرسولهن، والتضحية بكل غالٍ من أجله. فهناك مثلاً المرأة القدوة، الصحابية الجليلة، نسيبة بنت كعب، وهي من الأنصار، اشتركت في معظم معارك المسلمين إلى جانب النبي (ﷺ). كانت في البدء، تضمّد جرحى المسلمين وتسقيهم. ولكن في معركة أُحد، عندما رأت النبي مكشوفاً مهدداً، حمته بجسدها ودافعت عن حياته ببسالة رائعة.

يبقى أنّ قوة احتمال هؤلاء المسلمين الأوائل لصنوف التعذيب، وحجم التضحية، حتى قبل أن يستقر الإسلام تماماً في قلوبهم، كانت مثار إعجاب المحبين لهم، مثلما كانت مثار استغراب المشركين أنفسهم. كيف، وماذا فعل بهم مُحَمَّد (ﷺ) وخلال سنوات قليلة، ليصبروا على هذا العذاب، ويتحمّلوا كل هذه الآلام، من أجله ومن أجل دينه الذي يدعو إليه؟ كيف ملك قلوبهم؟

لم نجد الجواب إلّا في ذلك النور الذي ذكرتنا به سمية قبل استشهادها. والحال، أنّ احتمالهم المدهش للتعذيب لم يكن احتمالاً جسدياً، بل كان احتمالاً روحياً يفوق التصور. فلولا تلك الأنوار المحمدية التي أحيت قلوبهم من موتها واستبدلت ارتباطهم بالأرض، بارتباطهم بالسماء، لما تحمّلوا ما تحمّلوه.

الفصل الثالث

نقطة التحول وانتشار الإسلام

لقد جاهد الرسول جهاداً مضنياً لاختراق جدار الشرك المتين. وكان انتشار الإسلام في الأعوام الستة الأولى بطيئاً. وقد اتسمت الدعوة خلال الأعوام الثلاثة الأولى، بالسرية. تلتها ثلاثة أعوام أخرى، كانت فيها الدعوة شبه علنية. وحتى السنة السادسة لم يصل أتباع الرسول إلى الأربعين مسلماً.

ولكن في ذلك العام، قدّر الله أن يتعزّز الإسلام بشخصيتين تاريخيتين؛ بطل قريش وعم الرسول حمزة، وبعده بثلاثة أيام، أسلم عمر بن الخطّاب، الذي أشهر إسلامه بعد أن قرأ سورة «طه» مباشرةً.

تقول السورة: [مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3) تَنْزِيلاً مِمَنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4) الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7)].

فتحت سورة طه قلب عمر المغلق، وقال: «ما هذا بكلام بشر!». فعلاً، من أين لبشر أن يأتي بآيات كهذه؟ وذهب إلى الرسول ليعلن إسلامه. علماً أنه، وقبل أن يقرأها في بيت أخته بلحظات، كان حاملاً سيفه وذاهباً لقتل النبي في بيت الأرقم. وبفضل تلك الآية، وفي لحظة، أصبح أحد أتباع مُحَمَّد المقربين. وسيرد في الحديث الشريف لاحقاً: «إن الله تعالى أيدني بأربعة وزراء: اثنين من أهل السماء جبريل وميكائيل، واثنين من أهل الأرض أبي بكر وعمر»[35].

وتحوّل هذا الرجل المهيب، قاسي القلب، إلى ذلك الإنسان مرهف المشاعر، المحب، العابد، الورع، وأحد كبار الزهّاد. ولكنه حافظ على صرامته وانحيازه المعروف لمبادئ العدل والمساواة، ولم يفقد إرادته الحديدية. وقد عُرف في الجاهلية بجبّار قريش، وسيُعرف بعد إسلامه بعملاق الإسلام. وأصبح عمر الخليفة الثاني، وكان اسمه كناية عن العدل وأنموذجاً للتربية الروحية المُحَمَّدية. ولذلك سيصفه الرسول بـ«الفاروق». أي الذي يفرق بين العدل والظلم[36].

وبانضمام عمر وحمزة إلى المسلمين انكسرت دائرة العزلة حول الرسول وأتباعه، وأصبحت الدعوة علنية. وانفتحت ثغرة كبيرة في جدار الشرك لتضيء عبرها أنوار «اقرأ». وكان عمر أول من دعا المسلمين إلى الظهور. قائلاً: إن كنّا على حق فلماذا لا نمارس ديننا في العلن؟

وفعلاً، بفضلهما، تنفّس المسلمون الصعَداء قليلاً، وقويت عزيمتهم أكثر. فبدأوا يظهرون إسلامهم علناً، يطوفون حول الكعبة مهلّلين ومكبّرين، ويُصلُّون في البيت الحرام، قبل أن تعود وتشتد الأزمة عليهم أكثر لاحقاً.

بإسلام عمر بن الخطّاب، اكتمل عدد المسلمين أربعين رجلاً، وبضع نساء. والحال، أنّ دخول بعض شخصيات قريش من غير بني هاشم، مثل أبي بكر، من بني تيم، وعثمان، من بني أميّة، قد خلق قلقاً كبيراً لدى قريش.

وكانوا يمثلون القبائل الرئيسة التي تتكون منها قبيلة قريش. ومن شأن انضمام رموزها الى المسلمين أن يضرب وحدة قريش ويهز توازناتها. بيد أن ما عمّق قلق قريش، وزاد في حيرتها أكثر، هو إسلام عمر بن الخطّاب، وهو من بني عدي. القبيلة الثالثة في البيت القرشي.

كان عمر يتمتّع بشخصية مهابة جداً، حتى إن إبليس كان يتجنبه إذا رأه في الطريق، كما قال عنه الرسول الأكرم! واللافت، أنه قبل إسلامه كان كخالهِ أبي جهل، من ألدّ أعداء مُحَمَّد وأتباعه. وظل سؤال قريش المحيّر هو: كيف يتحول هذا الخصم العنيد لمُحَمَّد إلى تابع مطيع ومحب له؟!

والواقع، أنّ سؤال قريش المربك بالأمس، لم يزل حاضراً ومربكاً للمشركين في كل العصور، وهو: كيف، وما الذي يدفع أتباع مُحَمَّد (ﷺ) من كل جنسيات الأرض ولغاتها وثقافاتها، إلى هذا الحب الكبير لنبيهم؟ بالتأكيد، لا يمكن لمشرك أن يجد الجواب عن ذلك. فمن أين له أن يعي

الروابط الروحية والوجدانية؟ وهي روابط في غاية الاستثناء، تسمو على كل أنواع الروابط الإنسانية الأخرى.

فالسّراج المنير، لا بد أن يأخذ مكانه الطبيعي في قلوب المؤمنين. وقد جعل الله حب الرسول شرطاً من شروط الإيمان. فأصبح حب الرسول من الإيمان. ولا تكون مؤمناً حقّاً دون أن تكون محباً للرسول. وبقدر حبك للرسول يزيد حبك وإيمانك بالله. وأخيراً، حب المؤمن لمن يمثّل الكمال، يجعل قلبه معلقاً بالكمال دائماً.

ولاحقاً، عندما سيسمع عمر بن الخطّاب النبي يقول: «لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده ووالده والناس أجمعين». قال عمر: أنت أحب إليّ يا رسول الله من كل شيء، إلا نفسي التي بين جنبيّ! فقال له الرسول: «لا تكون مؤمناً حقّاً حتى أكون أحب إليك من نفسك!»، فردّ عمر: والذي أنزل عليك الكتاب، لأنت أحب إليّ من نفسي التي بين جنبيّ. فقال له النبي: «الآن يا عمر!».

دعوة الأنصار: فتح المدينة بالقرآن

ضمن جهوده المستمرة لنشر الدعوة، كان الرسول (ﷺ) يلتقي القبائل الزائرة لمكّة في المواسم المختلفة، ويحاول تعريفهم بالإسلام. بالطبع، لم تكن كل محاولاته ناجحة. فثمة من صدّه قائلين: أهلك وعشيرتك أعلم بك، حيث لم يتبعوك! لكن بعض المحاولات تُوّجت بالنجاح. وهذا ما حدث في أول لقاء له برجال من يثرب.

فعندما عرف الرسول الأكرم أنهم من قبيلة الخزرج، قال لهم: «أمن موالي اليهود؟» قالوا: نعم. فقال: «أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟». فجلسوا معه وعرض عليهم الإسلام، ودعاهم إلى الله. ثم تلا عليهم بعض سور القرآن. وانشرحت قلوبهم بسماع آيات القرآن. فقال بعضهم لبعض: والله إنه النبي الذي توعّدكم به اليهود. فلا تسبقنكم إليه!

وكان الأنصار على علم بأن اليهود يردّدون بأنهم ينتظرون خروج نبي منهم، لكن الله أخرجه من العرب. فلم يترددوا أبداً، وسريعاً ما صدقوا الرسول، وأسلموا. ثم قالوا له: إنّا قد تركنا قومنا، وهم يعيشون حالة من العداوة والشر بينهم. فعسى الله يجمعهم بك. وسنَقْدمُ عليهم فندعوهم

إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين. فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعزّ منك[37].

وأخيراً، وجد أهل يثرب النبي المبشر به! وجدوا النبي الذي كان اليهود يهدّدونهم به. لكنه لن يكون حليف اليهود، بل النبي الذي سيجمع قبائل الأوس والخزرج المتقاتلة تحت رايته. والذي سيبدل النزاعات والشقاق بينهم بالتضامن، والحروب القبلية، بالأخوة الإسلامية والسلام الدائم.

وبعودة هؤلاء الرجال إلى يثرب، بدأ تعرّف أهلها إلى الإسلام، وسرعان ما انتشر بينهم، وتهيئت قلوبهم لاحتضان الرسالة المُحَمَّدية والدفاع عنها، وستتطور الاتصالات بينهم وبين الرسول، لاحقاً، لتتمخّض عنها، في العام الثالث عشر من الدعوة، بيعة العقبة المعروفة، والتي على ضوئها ستبدأ هجرةُ المسلمين إلى المدينة.

من جانب آخر، عندما اشتدت محنة المسلمين في مكّة أكثر، لم يكن أمام الرسول (ﷺ) للحفاظ على أصحابه، إلا أن يأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة. قائلاً: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد. وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».

التجأ الرسول، ليحمي أتباعه من المشركين، إلى الرجل المسيحي الفاضل، الملك أصحمة، الملقب بالنجاشي. مقدراً عدله واصفاً أرضه بأرض صدق. لم ينعته الرسول الأكرم بالكفر أو بالشرك، بل وصفه بالملك العادل، وتوسم فيه الخير. وفوق ذلك، اعتبره حليفاً يحمي أتباعه المسلمين من اضطهاد أهلهم المشركين في مكّة. هكذا كانت مكانة الملك أصحمة، المسيحي، عند رسول الإسلام. وسيكون من شأن هذا التعامل النبوي الراقي أن يثمر النتائج الطيبة.

وفعلاً، خرجت دفعتان من الرجال والنساء. الأولى: جماعة جعفر بن أبي طالب. ابن عم النبي، وأحد وزرائه[38]. وهو الشاب الفذ والشجاع. والذي سيستشهد لاحقاً، في معركة مؤتة، التي دارت رحاها في السنة الثامنة من الهجرة بين المسلمين والروم. والثانية: جماعة أبي موسى الأشعري. وكانوا قرابة ثمانين مهاجراً. من بينهم عثمان بن عفّان، الخليفة الثالث، وزوجته رُقيّة بنت الرسول. وسيكنى بذي النورين، لأنه تزوج اثنتين من بنات الرسول؛ تزوج رقية أولاً، التي هاجرت معه، وبعد وفاتها تزوج أختها أم كلثوم.

وعندما تعرّف النجاشي، بفضل الشاب البليغ جعفر بن أبي طالب، إلى رسالة مُحَمَّد، وما أتت به من رحمة وخير للإنسانية جمعاء، وبعد أن تعرّف بشكل خاص إلى مكانة سيدنا عيسى، وأمه السيدة مريم بنت عمران في الإسلام، رحّب بضيوفه المسلمين كثيراً، وضمن لهم الأمان والإقامة الكريمة في بلده. وقد علق النجاشي بعد أن سمع آيات من سورة مريم، قائلاً: «إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة».

ولاحقاً، عندما ستبعث قريش مندوبيها إليه؛ عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة، يطالبانه بتسليم المسلمين الفارين إليهم، سيرفض النجاشي تسليم الملتجئين إليه. وسيردّ المبعوثَين خائبين منكسرين، يحملان هداياهما التي ردّها النجاشي، واعتبرها رشوة غير مقبولة.

وغنيٌّ عن القول، أنّ الهجرة إلى الحبشة مثلت تجربة دينية وثقافية مُثمرة للجميع. فقد أنتجت تلاقُحاً ثقافياً، بين المسلمين العرب والمسيحيين الأفارقة. ولا يزال موقف الرسول الحكيم يغذي مشاعر الأخوة الإسلامية المسيحية في أفريقيا.

ويعلّقُ البوطي، رحمه الله، على ملاحظة النجاشي، قائلاً: هذا ما هو بدهي الثبوت، من أن الأنبياء كلهم إنما جاؤوا بعقيدة واحدة، لم يختلفوا حولها قيد أنملة. كما يؤكد لنا أنّ اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم، ليس إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً من أنفسهم، كما قال الله تعالى. (...) إن الإيمان الحقيقي بالإنجيل والتوراة يستدعي الإيمان بالقرآن وبمُحَمَّد (ﷺ).

ولذلك أمر الله رسوله أن يكتفي بدعوة أهل الكتاب لتطبيق ما في التوراة أو الإنجيل من تعليمات ترشد إلى الإسلام. فهي نفسها تدعو أتباعها إلى الإيمان به وبرسالته[39]. فقال جلّ جلاله: [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ] [المائدة 68].

استقر المسلمون في الحبشة قرابة الخمسة عشرة عاماً ، يتمتّعون بحماية ملكها العادل. وتقدم أم سلمة، إحدى المهاجرات، شهادتها على ذلك، قائلة: لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا خير جار، النجاشي. فأَمِنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى بحرية، لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه. وتدل المراسلات المتبادلة، بين النبي (ﷺ) والملك، على روح المودة والاحترام المتبادل بين رسول الإسلام وملك الحبشة المسيحي.

«أنت كما سماك ربك: رؤوف رحيم»

من جانب آخر، وعلى الرغم من كل الصعوبات التي كانت تواجه الرسول في مكّة، استمر في دعوته التي غدت معروفة في كل أرجاء الجزيرة. ومن ضمن محاولاته، ذهب الرسول، مشياً على الأقدام، إلى منطقة الطائف، التي تبعد عشرات الأميال عن مكّة، لدعوة أهلها إلى الإسلام.

التقى فيها زعماء قبيلة ثقيف، وهم ثلاثة إخوة، على أمل أن يسلموا وتتبعهم قبيلتهم، وبذلك يجد الرسول السند المطلوب في وجه قريش. فشرح لهم الإسلام ودعاهم إليه. بيد أن موقفهم، غير المتوقّع كان سيئاً إلى أبعد الحدود وعدائياً، وكانت ردودهم عليه أقبح. فقال أحدهم: ألم يجد الله أحداً يرسله غيرك؟!

تركهم الرسول يائساً من الطائف وأهلها، لكنهم لم يتركوه بسلام. فأُوذي من سفهاء أهلها وأطفالهم، الذين ودّعوه رشقاً بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين. وبعد خروجه من القرية، جلس إلى جانب بستان، مستظلاً تحت شجرة يمسح الدم عن رجليه ويضمّد جروحه. ويدعو ربه: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي».

وعندما أتاه الملَك، في ذلك الوقت، لينفذ له أوامره لمعاقبة أهل الطائف على ما فعلوا برسول الله، أجابه الرسول قائلاً: «أَستَأْني بهم، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى، ولا يشرك به شيئاً». وعندئذ قال له الملَك: «أنت كما سمّاك ربك: رؤوف رحيم»[40].

لم يدعُ الرسول على من آذاه بهذه الطريقة البشعة، بل دعا ربه أن يغفر لهم لأنهم قوم لا يعلمون. وفعلاً، سيخرج الله من أصلابهم، لاحقاً، من يعبد الله وينصُرُ دينه. وهنا يقدم لنا الرسول (ﷺ) درساً آخر من الدروس النبوية في الحلم والعفو. لم ينظر إلى من آذاه، لكن نظر إلى أبنائهم وأحفادهم وأمل أن يكونوا من المسلمين، وسيحقّق الله أمله.

وتذكر السِّيَر، أنه عندما كان جالساً تحت الشجرة، رآه أصحاب البستان فبعثوا له بخادم لهم يدعى عداس، مع قطف من العنب. وضعه عداس في وعاء، وأتى به إلى الرسول وقدّمه له. أخذ الرسول العنب وقال :«بسم الله». نظر عداس إلى النبي، وقال: والله إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد.

فسأله الرسول: «من أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟». فرد عداس قائلاً: أنا نصراني، من أهل نينوى. فقال الرسول: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متَّى». فقال عداس مستغرباً: وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ والله لقد خرجت من نينوى ولم يكن فيها عشرة يعرفون ابن متَّى! فقال الرسول: «ذاك أخي، كان نبياً، وأنا نبي». فأكب عداس على الرسول (ﷺ) يقبل رأسه ويديه، وأسلم.

استمرت عداوة قريش في ازدياد. وفي السنة السابعة من البعثة، وبعد أن فشلت كل محاولاتها للحد من نشاط المسلمين، دفعها استكبارها إلى اتخاذ قرار جائر، غريب على التقاليد، ومنافٍ للمروءة العربية المعروفة. قرار يقضي بمقاطعة قبيلة بني هاشم، هم ومن معهم، عقاباً لهم على دفاعهم عن مُحَمَّد (ﷺ) وأتباعه.

وفعلاً، وقّعت قبائل قريش التسع، تعهداً فيما بينها، أُقرّت بموجبه المقاطعة الشاملة للرسول وأتباعه والمدافعين عنه، أي جميع بني هاشم المسلم منهم وغير المسلم. وهو أمر لا شك كبير جداً وخطير. وقد نص التعهد على منع التداول التجاري معهم. فلا يباع لهم ولا يشترى منهم. بل لا يزوجوهم ولا يتزوّجون منهم. كانت مقاطعة كاملة؛ اقتصادية واجتماعية. وعلقت وثيقة التعهد، الموقعة من قبل قبائل قريش، على الجدار الداخلي للكعبة.

استمرت المقاطعة ثلاثة أعوام طويلة. اضطر خلالها بنو هاشم ومعهم المسلمون، نتيجة الاختناق الاقتصادي والاجتماعي، للخروج إلى شعاب مكّة. وقد تعرّضوا لصنوف الأذى والمشقّة، وتحمّلوا ما لا يطاق. وقد وصلت المعاناة أحياناً إلى حدّ التجويع. وتذكر بعض السِّيَر، أن منهم من اضطر إلى أكل الأعشاب البرية للبقاء على قيد الحياة. ولقد أنفقت السيدة خديجة كل ما لديها لتوفير المؤن والطعام لبني هاشم. وهكذا، فعل الأغنياء من بني تيم ومنهم أبو بكر الصديق.

وعلى نحو مدهش، أظهر الجميع قدرة على الصبر واحتمال كل أشكال المعاناة بجَلد نادر. علماً أنّ الأغلبية العظمى منهم لم يكونوا مسلمين، لكنهم ثبتوا على مواقفهم دفاعاً عن مُحَمَّد (ﷺ). وإلى جانب الخسائر المادية، تعرّض بنو هاشم للكثير من الضرر المعنوي، دفاعاً عن رسول لم يؤمنوا به بعد!

وهكذا، وبعد ثلاثة أعوام منهكة، تقدم هشام بن عمرو بن ربيعة، وقيل زهير بن أبي أمية، وهما مشركان. وكان مستاءً من هذا الاتفاق الجائر، فوجه كلماته الشديدة إلى أعيان قريش، قائلاً: يا

أهل مكّة! أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى، لا يباع لهم ولا يبتاع منهم؟! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة[41].

ورغم معارضة البعض، رفعت المقاطعة أخيراً. ويبدو أن قريشاً أنفسهم، لم يعودوا قادرين على تحمّل الأضرار المادية الناجمة عن هذا الوضع غير الطبيعي، ناهيك عن الأضرار المعنوية التي نتجت من استنكار القبائل العربية لتصرف قريش اللاإنساني واللاأخلاقي.

أخيراً، انتهت المقاطعة، لكنّ قريشاً استمرت في ممارساتها العدوانية تجاه الرسول وأتباعه، بل تفاقمت أكثر. والواقع أن الثلاثة أعوام الأخيرة التي سيقضيها الرسول، قبل اضطراره إلى ترك وطنه والهجرة إلى يثرب، ستكون من أصعب الأيام عليه في مكّة.

بيد أنّ ما زاد من حزن الرسول أكثر، هو وفاة أقرب الناس إلى قلبه؛ أولاً، وفاة عمّه أبي طالب. ذلك الشيخ الشهم الذي احتضن مُحَمَّداً طفلاً، وسانده شاباً، ودافع عنه رسولاً حتى آخر رمق من حياته. وقال عنه الرسول: «ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب». وبعد ثلاثة أيام فقط، توفّيت زوجته، خديجة عليها الصلاة والسلام. رفيقة دربه، وأول من آمن به. وقد سمّى الرسول ذاك العام: «عام الحزن».

[سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً]

في السنة الحادية عشرة من البعثة، أتى الحدث الربّاني الأكبر «الإسراء والمعراج». وكان تكريماً إلهياً استثنائياً لحبيب الله؛ حيث أسرى جبريل بالرسول من مكّة المكرّمة إلى المسجد الأقصى، وصلى فيه بإخوانه الرسل والأنبياء. ثم عادوا إلى مواقعهم في عوالم السماء ليستقبلوه كلٌّ من موقعه.

ثم واصل الرسول معراجه، برفقة جبريل إلى السماوات العلى، في زيارة خصه الله بها بوصفه خاتم رسله وحبيبه. ونزلت بهذا الخصوص سورة الإسراء: [سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ] [الإسراء 1]

كانت إمامة الرسول لإخوانه الأنبياء والرسل، في المسجد الأقصى، تأكيداً لمكانة مُحَمَّد خاتماً للأنبياء. والقرآن يشير إلى أن الله سبحانه وتعالى، قد سبق أن أخذ تعهداً، في عالم الأرواح، من الأنبياء والرسل لاتّباع الشرائع القرآنية، لأنها لا تتعارض والرسالات التي أتوا بها هم من قبله، بل استمرارية لها.

وتقول الآية الكريمة: [وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ] [آل عمران 81].

تؤكد الآية الكريمة أن الله عزّ وجلّ، قد سبق أن بلَّغ الأنبياء بظهور مُحَمَّد، وطلب منهم، إن أدركهم زمن مُحَمَّد، وبعد أن يتيقنوا أنه أتى مصدّقاً لما معهم، حق عليهم الإيمان بنبوته واتباعه ونصرته. وبعد أن أقر الأنبياء ذلك، شهَّدهم الله عليه، وشهِد معهم.

ثم عرج النبي إلى السماوات العلى ليريه الله من آياته الكبرى، وبعدها نقل إلى السماء السابعة. وهناك، بعد سدرة المنتهى، لم يؤذن لجبريل بالدخول معه. ما يؤكد أنه رأى ربه فعلاً. وهناك كَلفهُ الله فرض الصلوات الخمس، ثم عاد في ليلته إلى مكّة.

لم يتحدث الرسول بعد عودته عن تفاصيل رحلته إلى السماوات العلى. لكنه ذكر أنه قد أُسري به إلى بيت المقدس. وكذّبته قريش وحاول أبو لهب وأبو جهل الاستهزاء به. وكان أبو بكر أول من صدقه. قائلا: كيف لا أصدقه وأنا أصدق أنّ الوحي ينزل عليه كل يوم من السماء؟

وذات مرة، عندما سألته عائشة رضي الله عنها عن معراجه إلى السماء، قائلة: هل رأيت الله فعلاً؟ فردّ عليها: «نورٌ أنَّى أراه». وفي رواية أخرى، قال: «رأيتُ نوراً». لم يكن يرغب في التأكيد أو النفي، واكتفى بهذه الجملة. وهذه الجملة القصيرة تحمل المضمون الإيجابي، أكثر من النفي. أوَليس الله نور السماوات والأرض؟

ولئن اكتفت سورة الإسراء بالإخبار عن إسراء مُحَمَّد (ﷺ)، إلى بيت المقدس، ومنه إلى السماوات العلى، فإن سورة النجم أتت لتتحدث عن تفاصيل المعراج بلغة ربّانية بالغة الجلال والجمال.

ولنتمعن جيداً في ما تقوله سورة النجم: [وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)]

اختلف العلماء والمفسّرون في الموضوع. أولاً؛ حول كيفية العروج إلى السماء؟ هل كان جسداً وروحاً، أم روحاً فقط؟ وثانياً؛ هل رأى ربه فعلاً، أم لا؟ ولنتناول موضوع الرؤية أولاً. تبدو لنا آيات النجم، بلغتها الباهرة، واضحة لأولي الألباب، لا تحتاج إلى شرح أو تأويل. حيث يقسم الله تعالى بالنجم، وهو قسم لو تعلمون عظيمٌ، بأنّ رسوله صادق في ما ينطق به، لأنه لا ينطق عن الهوى.

والله سبحانه يؤكد أنه [مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2)]. وأنه [مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17)]. و [مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11)]. فالله تعالى يدافع فيها عن نبيه. وكلها تأكيدات لا تحتمل الشك، على أن الله عزّ وجل قد قابل نبيّه فعلاً.

والله ذاته يوجه سؤاله إلى المشككين: «أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى؟» أي: أتحاجُّونه، أتشكون في ما رأى، أتشكون في ما يقول؟ يدافع الله عن رسوله بإجابات واضحة لا مجال للتشكيك فيها. والله سبحانه وتعالى لا يتحدّث إلى المشركين فحسب، بل يخاطب المؤمنين كذلك. ثم تقول الآية: [وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15)] أي: رآه مرة ثانية عند جنة المأوى. وما يؤكد ذلك أنه لم يسمح حتى لجبريل، الروح الأمين، عليه السلام بالدخول معه. فلكلّ مقامٌ معلومٌ. والنبي(ﷺ) أعلى درجة من جبريل عليه السلام.

أما هل كانت الرؤية بالبصر أم بالبصيرة؟ أوليس للروح عيونها الخاصة بها؟ أي بصيرتها؟ الآية تؤكد أنه رأى ربه. أما كيف تجلى الله سبحانه وتعالى لرسوله، فذلك يعتمد على كون العروج جسدياً أو روحياً، وذلك من علوم الغيب. وحسبنا أن نؤمن بما قاله النبي وما تؤكده الآيات، ونكتفي بالجوهر.

وإذا كان من الصعب علينا نحن البشر أن نتصوّر كيف تم ذلك، فمن الصعب علينا، أيضاً، الشكّ فيه. ثم كيف يمكننا تجاهل تأكيدات الله نفسه في سورة النجم؟! ولأنه ليس من الممكن، بمنطق الحكمة، أن يبعث الله إلى خاتم رسله لزيارته إلى السماوات العلى، ولا يستقبله.

ثم تأتي التزكيات الربّانية، التي يزكي بها الله المصطفى، والمتكرّرة في سورة النجم، إذ يزكي صدقه، فصاحبكم ما غوى. ويزكي علمه، فقد علّمه شديد القوى. ويزكي بصره، ما زاغ البصر وما طغى. ويزكي ما منحه من علوم لم يكن لنبي قبله حظ منها، لقد رأى من آيات ربه الكبرى. وهناك أوحى إليه ما أوحى.

وإذا كان المؤمن يصدق بأن الرسول قد أُسري به ثم عرج به إلى السماوات العلى، وعاد في الليلة نفسها، فكيف لا يصدق أنه رأى ربه الذي أسرى به إلى السماء السابعة؟!

كان ذلك تكريماً ربّانياً استثنائياً وخاصاً، لم يُكرَّم به رسول من قبله. أما عن طبيعة معراجه، فهو أساساً خارج نطاق التصور البشري المحدود. لنبدأ بالقول إن الله قادر على أن يعرج بنبيه على النحو الذي يشاء وكيف يشاء. فعلمه مطلق وكذلك قدرته. ولكن يبدو لنا، أنه كان عروجاً روحياً لا جسدياً.

ذلك لأن الجسد، كما المكان والزمان، من عوالم المادة. فكيف لجسد مخلوق من طين أن يتحمّل عروجاً بسرعة أعلى من سرعة الضوء؟ أما عالم الأرواح فهو من عالم السماء. وهي لذلك قادرة على أن تعرج بالسرعة المطلوبة منها. والله سبحانه وتعالى منحها قدرات ربّانية أرقى وأعلى من قدرات الجسد. فالروح ترى وتسمع ولها عقلها الخاص بها.

وثمة تفسير آخر يستحق التأمل؛ يقول إنّ العروج ليس إلّا فتحاً لبصيرة القلب، حتى يشهد أنوار الدار الآخرة، فيسافر فيها وجسده لم يتحرك من فراشه. فتعرج روحه إلى السماوات العلى، فيقابل ربه، ويريه من آياته الكبرى. وذلك ما يسمّى بالفتح أو الكشف عند العارفين بالله.

عاد الرسول (ﷺ) من معراجه بتكليف الصلوات الخمس، وهو التكليف الوحيد الذي كُلف به الرسول من ربّه مباشرة، أمّا التكاليف الأخرى، كما نعلم، فقد نقلها إليه جبريل عليه السلام. ولذلك تعتبر الصِّلاة صلة الدائمة بالله وعماد الدين. وبدأ الصحابة بتطبيقها كما أمرهم الرسول. وسيقضي

الرسول ثلاثة عشر عاماً من عمر الرسالة في مكّة المكرّمة، التي ستتبارك باستقبال أكثر من نصف القرآن.

خلالها سيستمر الرسول (ﷺ) في تعليم أتباعه وتربيتهم تربية خاصة. يسقي قلوبهم بأنوار القرآن، ويرسخ العقيدة فيها لتؤتي ثمارها الربّانية. لقد تغذى المسلمون بالسُّوَر القرآنية التي كانت تتنزّل عليهم تباعاً. وسرعان ما صاغت وجدانهم وأثمَرت إيماناً راسخاً وعميقاً. وعندما تحول الإيمان إلى حياة قلب مع الله، تحولوا، هم، إلى أتباع ربّانيين قادرين على حمل رسالتهم لخير الإنسانية.

أما تشريعات المدينة، فسيتنزل فيها النصف الثاني من القرآن، خلال عشرة أعوام حافلة من حياة الرسول (ﷺ) الأخيرة، سيتنزل فيها ما سيعرف بالتشريع المدني؛ أحكام العبادات، أحكام الحلال والحرام، أحكام الأسرة والميراث، أحكام العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين. وسنمر على أحكام الميراث ودوره في تكريم المرأة المسلمة لاحقاً.

مرحلة الإشراق والتجلي

قدر الله للأنصار أن يأتوا لنصرة الرسول في أصعب مراحل البعثة. وهكذا، سيأخذ الأنصار شرف المساهمة وتهيئة الظروف لدخول الإسلام مرحلته المدنية. كان مقدراً للدعوة، التي ظلت شبه محاصرة في مكّة طوال الثلاثة عشر عاماً، أن تبدأ بالاستعداد للانتقال إلى المرحلة المُحَمَّدية الثانية، مرحلة الإشراق والتجلي.

كان بعض أهل يثرب، من الأوس والخزرج، المبادرين إلى الخيرات. لنتذكر، أنّ الرسول سبق وأن قابل أفراداً من القبيلتين. ثم تم الاتصال الثاني بين الرسول ووفد صغير يضم ممثلين عن القبيلتين، يرافقهم مصعب بن عمير، الذي تعلم في المدرسة المُحَمَّدية في مكّة، وكلفه الرسول بحمل رسالة الإسلام إلى أهل يثرب. وقد بارك الله في جهوده، وتوفق في دعوته للإسلام وأنجز مهمّة كبيرة حقاً.

وبعد أن تعرفوا إلى النبي (ﷺ)، وشرح لهم الإسلام والإيمان، أسلموا دون تردد، فرحين بنقل الدعوة إلى أتباعهم في يثرب. آملين أن تجتمع عقولهم وقلوبهم على النبي (ﷺ)، ليوحدهم

وينتصر بهم على أعدائهم المشركين. عادوا متفائلين بلقائهم الرسول وبمبايعتهم له. وسرعان ما انتشر الإسلام في أوساط العائلات العربية كلها.

بيد أن الاتصال الأهم تم في الموسم الثاني للحج؛ حيث قَدِم إلى مكّة وفد كبير من يثرب، يضم سبعين رجلاً وثلاث نساء، للقاء الرسول (ﷺ) سراً. وكانت أغلبية الوفد من قبيلة الخزرج، المنتصرة في الحرب على الأوس قبل معركة بُعَاث. وكان على رأسهم الشاعر كعب بن مالك، يرافقه مصعب بن عمير، وكان من بينهم أبو أيّوب الأنصاري. وفعلاً، قابلهم الرسول، فبشّره مصعب بانتشار الإسلام في صفوف أهل يثرب.

وكان معهم سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، زعيم الأوس وفارسها الشهير. كان شاباً في الثلاثينيات من العمر. وبفضل الله ثم بفضله، أسلمت على يديه قبيلة الأوس كلها. وسيصبح سعد صحابياً جليلاً، وصديقاً حميماً للرسول في يثرب.

وسنراه يلعب أدواراً تاريخية إلى جانب الرسول الأكرم، أولاً، في معركة بدر، وبعدها، في معركة أحد، حيث أبلى بلاءً حسناً في الدفاع عن الرسول. وقد أخبر سعد الرسول بأنه لم يعد ثمة بيت في يثرب إلا أصبح فيه من أسلم لله. وسُرَّ الرسول بذلك كثيراً، وشعر بأن الله قد هيأ له يثرب لتكون مقراً ثابتاً، وموقعاً آمناً لنصرة دينه بعد أن خذلته قريش.

كان الفرح بلقاء الرسول الأكرم ظاهراً على وجوه الأنصار. وقد عبّروا عن ذلك بقولهم: نحن سعداء اليوم، إذ جرى ما كان متوقعاً، وبُعث النبي من قومنا وليس من اليهود. كنا نشعر بالذل والصغار تجاه اليهود والنصارى، لأنهم أهل كتاب، في حين أننا لا نملك كتاباً! وكنا نأمل أن يكون لنا كتاب مثلهم. وكم نحن سعداء اليوم بنبيّ أتانا بالقرآن. ذلك الكتاب الذي عندما يصغي إليه المرء تعتريه هزّة وقشعريرة[42].

اللافت حقاً، أنه كان برفقة النبي (ﷺ) في هذا اللقاء، عمه العباس رضي الله عنه، علماً أنه لم يكن قد أسلم بعد. لكن للحميّة العائلية والقبلية وجهها الإيجابي أيضاً. وتوجه العباس مخاطباً وفد يثرب، بلغة لا تخلو من التحذير البيّن، قائلاً لهم: إن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه، بعد خروجه إليكم، فالأفضل أن تتركوه من الآن، فإنه في عزّ ومنعة عند قومه وفي بلده.

فردّ أحد أعضاء الوفد، وهو البراء بن معرور، قائلاً: إنا والله لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه، ولكنَّا نريد الوفاء والصدق. وسنبذل مهجنا دون الرسول الكريم. فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فنحن نبايعك!

كان الرسول متيقناً من صدق مسعاهم. وبدأ بتلاوة آيات من القرآن الكريم ثم شرح لهم ما تشمله البيعة من شروط، وقال: تبايعونني على السمع والطاعة، في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم.

فقالوا: نعم يا رسول الله! إننا نبايعك ونحميك. وأضافوا مستفسرين عن موقفه في حال قطعوا صلاتهم باليهود، وما قد ينتج عن ذلك من حرب بينهم؟ فتبسّم الرسول ورد قائلاً: «حرمتي حرمتكم، ودمي دمكم. أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»[43].

ثم طلب منهم أن يخرجوا اثني عشر نقيباً، أي ممثلاً عنهم. فخرج تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. فقال لهم: أنتم على قومكم كفلاء، ككفالة الحواريّين لعيسى بن مريم. وأنا كفيل عن قومي. فقالوا: نعم! ووعدهم الرسول بأن الوفاء بهذا التعهد جزاؤه عند الله الجنّة! وتمت البيعة الكبرى.

بهذه البيعة المباركة، ستدخل الدعوة الإسلامية مرحلتها المدنية، وسيظهر الله الإسلام فيها بكل إشراقاته وأنواره. وهكذا، أذنَ الرسول (ﷺ) لأتباعه بالهجرة إلى المدينة. قائلاً: «إن الله عزّ وجلّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها». وبدأ المسلمون الاستعداد سراً للهجرة. وسيظل الرسول في مكّة ينتظر أمر الله له بالرحيل إلى مدينته.

الهجرة إلى الله

ستمثل بيعة الأنصار تحولاً هاماً في مسار التاريخ النبوي. وما أن عرفت قريش بالبيعة حتى شعرت بالخطر يدهمها. وبعد حين، عندما لاحظت بدء خروج المهاجرين إلى يثرب، أدركت أنّ الأمر على وشك الخروج عن سيطرتها تماماً. فبدأت أولاً، تطارد الأنصار من أهل يثرب وتنكّل بهم. ثم حاولت تضييق الخناق على هجرة المسلمين من مكّة.

وفعلاً، هناك من اضطر إلى الخروج متسللًا، ومنهم من هاجر مجبراً على ترك أهله وما يملك وراءه. وقصة الصحابي صهيب بن سنان[44]، بالغة الدلالة على عمق الإيمان والتضحية؛ إذ إنه حالما أدركت قريش عزمه على الهجرة. أوقفوه قائلين له: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت ما بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون لك ذلك! لكنّ صهيباً لم يتردّد في اتخاذ قراره المعبر. فترك لهم كل ما يملك، مقابل السماح له بالهجرة إلى يثرب. ضحّى بكل شيء في سبيل الله ورسوله.

وغنيٌّ عن القول، أنّ قريشاً قد تفاجأت بهذه التضحية الكبيرة، ومن هذا الرجل الذي أتاهم فقيراً مشرداً، وها هو اليوم يتخلى عن كل ما جمعه طوال حياته ويعود، كما كان، فقيراً من أجل دينه ورسوله. لكن هذه المرة لم يعد مشرداً، بل مؤمناً منتمياً إلى الرسول ومهاجراً إلى الله. وذلك إنموذج من حالات التضحية القصوى، بدءاً بالمال، والأهل، ثم بالنفس.

هي واحدةٌ من حالات التجلي الإيماني عند الذين تحقق لديهم حق اليقين وارتبطت قلوبهم بالسماء؛ فبعد أن بانت في عيونهم حقيقة الدنيا وصغرها، لم يعودوا يكترثون لا بها ولا بما تقدمه. فالمؤمن الحقيقي، يشعر بأنه لا يَملك شيئاً في هذه الدنيا، ولا يملكه شيء.

وعندما أُخبر النبي بذلك، قال: «ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى!» نعم، هو من باع الحياة الدنيا بالآخرة. وتكريماً له نزلت فيه الآية الكريمة: [وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ] [البقرة 207]. وسيتحول صهيب الثري إلى أحد مساكين أهل الصفة ينتظر الوجبة من المحسنين ووجهه مشرق بالإيمان.

وبتصرف انتقامي، صادرت قريش كل ممتلكات المهاجرين الآخرين ومنازلهم في مكّة، وبيعت في أسواقها. وكما صهيب بن سنان، خرج بعضهم من بلاده ولم يكن معهم إلا الملابس التي كانوا يلبسونها. وتبين لنا قصة الصحابي صهيب، كما بلال، وعمّار بن ياسر وغيرهم، كيف أن هؤلاء المسلمين الفقراء، عندما استوطن الإيمان قلوبهم، آثروا التضحية بكل غالٍ ونفيس من أجل دينهم. ولنتذكر، أنه لم يكره أحد من أفراد هذه القافلة المباركة على الإسلام.

إذن، كيف تمكّن الرسول الأكرم، وفي بضع سنين قليلة من نقل هؤلاء البسطاء، من عبيد مشركين، لا قيمة لهم عند قريش، ولا مكانة لهم في الدنيا، إلى شخصيات مصطفاة عند الله ومكرمة

في الأرض والسماء؟ الجواب يكمن أولاً، في الأخلاق المحمدية، في التربية النبوية، في التزكية وذكر الله كثيراً.

فبعد أن دخل الإيمان قلوبهم وعقولهم بلغة المنطق والعقل، ضربوا المثل الأعلى في جهاد الصبر والشجاعة والتضحية. ثم هجروا الدنيا إلى الله ورسوله. وما اتباع الرسول إلا هجرة مستمرة إلى الله. تقول الآية: [قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ] [آل عمران 31]. لكن لا حب دون اتّباع.

بعد أن ترك المسلمون مكّة، لم يبق فيها مع الرسول إلا صاحبه أبو بكر وعليّ. وعندما أدركت قريش أن كل المسلمين قد هاجروا وابتعدوا عن قبضتهم، وصار لهم مقرّ ومكان معلوم، اتفقوا على منع الرسول، بأي وسيلة، من الالتحاق بأصحابه، فأباحوا كل محظور. لأنه بوصوله إليهم ستتحول يثرب إلى مدينة تحتضن قوة إسلامية من شأنها أن تهزّ أركان قريش والمشركين في الجزيرة بأكملها معهم. وهذا ما سيحدث فعلاً.

تحولت حيرة قريش إلى قلق بدد استقرارهم. وبدأت التفكير في الحلول. منهم من اقترح سجن الرسول، ومنهم من اقترح نفيه. وأخيراً، وبناءً على اقتراح أبي جهل ذاته، تم الاتفاق على قتله. وهو قرار طالما تجنبوا اتخاذه، خلال العقد الماضي، خشية ردة فعل بني هاشم.

وفي محاولة لتنفيذ ذلك، جمعوا تسعة شبان، من كل قبيلة من قريش شاب، للقيام بهذه المهمّة. الغرض منها توزيع مسؤولية الدم على كل القبائل التابعة لقريش. وبهذه الطريقة يمكنهم، كما توهّموا، التخلص من مُحَمَّد ومعه المسؤولية المباشرة عن جريمتهم. وذلك على أمل تفادي الصدام المباشر مع بني هاشم، لأنه سيكون من غير الممكن لهم، مهما كانت قوتهم وتصميمهم، محاربة كل القبائل للثأر لمقتل مُحَمَّد (ﷺ).

خططت قريش لجريمتها الكبرى، لكنّ الله قدّر أمراً آخر، فلن يترك مبعوث رحمته إلى الأرض تمسه يد المشركين. وأتى جبريل عليه السلام، في تلك الليلة، وبلّغ مُحَمَّداً بما قررت قريش فعله، وأمره بالهجرة. ولم يكن الرسول ينتظر إلا الأمر الإلهي.

وللتستر على الأمر، طلب الرسول من عليّ النوم في مكانه لإيهام أعدائهم بأنه لم يترك بيته، إذ كان بإمكانهم رؤية النائم من نوافذ الدار. كما كلفه بردّ الأمانات التي كانت بحوزة الرسول، إلى

أصحابها. وفي ذلك المساء، تجمّع الشباب المكلفون بقتله خارج البيت، ينتظرون خروجه لتنفيذ الجريمة. لكنّ الله قدر لهم أن يغطوا، في أماكنهم، في سبات عميق، لن توقظهم منه إلا حرارة الشمس، ويخرج نبيه من بينهم بسلام.

ومرَّ على رفيقه أبي بكر في بيته وأخبره بقرار الهجرة. بكى أبو بكر من شدة الفرح، وكان قد أعد العدة، لا ينتظر، هو الآخر، إلا الأمر بالرحيل من مكّة. وتقول عائشة رضي الله عنها: «لم أرَ والدي يبكي كما رأيته ذلك اليوم».

خرجا، في البدء، إلى غار «ثور»، الذي لا يبعد سوى بضعة أميال من مكّة، ومكثا فيه ثلاثة أيام. وبعد أن علمت قريش بخروج مُحَمَّد سالماً، استنفرت قواتها في ارتباك؛ وأعلنت فدية مقدارها مئة جمل، لكل من يعود به إليهم حياً أو ميتاً.

وخلال وجودهما في الغار، وصلت قوات قريش حتى مدخل الغار، ونظر أبو بكر من فتحة الغار فرأى أقدامهم قريبة منه، فقال للرسول: لو أن أحدهم انحنى ونظر من فتحة الغار لرآنا. فرد عليه الرسول قائلاً: «لا تخف! ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟».

بتأكيد الرسول حضور الله معهما، وأنه يراهما في الغار وخارجه، اطمأن أبو بكر وسكن قلبه. وتحوّل هذا القول الكريم إلى حقيقة مدركة، شعوراً وذوقاً، كمقام إيماني يوثق الرابط الروحي بين المؤمن وخالقه. ولم يعد للمؤمن إلّا أن يعي يقيناً أنّ الله معه، ليعيش حالة الاطمئنان والتسليم، ويكون مع الله في كل حالاته. فإن لم تكن تراه فهو يراك. وهذا مقام المراقبة. ومن يعش مقام المراقبة يكن قد عزز ارتباطه بالله عزّ وجل.

ثم انطلقا على راحلتيهما متجهين إلى المدينة. ومن جانبه، خرج سراقة بن مالك، فارس قبيلة كنانة وشاعرها، الذي أغرته المكافأة، على فرسه للحاق بهما. وقد أدركهما فعلاً، بيد أنه عندما حاول الاقتراب منهما أكثر، تعثرت فرسه وسقط من على ظهرها مرّتين، وهو أمر نادراً ما يحدث لفارس مثله.

ثم نهض وركبها، وفجأة غاصت قدما الفرس في الأرض رافضة أن تتقدم. عندئذ أيقن سراقة أنّ النبي محاط بعناية ربانية، ولا يمكن أن يمسه أي سوء. ثم ناداهما يطلب منهما التوقف ليخبرهما بأخبار قريش، والفدية التي وضعتها لمن يتمكن من قتلهما.

يبقى أن الأمر اللافت حقاً، هو أنّ النبي (ﷺ) عندما لقي سراقة نظر إلى يده وقال له: لم تخلق هذه اليد لقتل نبي! ثم أردف قائلاً: كيف بك يا سراقة إذا لبست سواريْ كسرى (خسرو)؟! فسأل سراقة مستغرباً: كسرى بن هرمز؟! سوار ملك فارس! فأجاب الرسول: نعم! هزّ سراقة رأسه وعاد أدراجه إلى مكّة.

كيف للرسول، المطارد من أعدائه في مكّة، الخارج مهاجراً، متخفّياً، على جمل مع رفيقه أبي بكر، لم يصل إلى المدينة بعد، لم يؤسس دولته بعد، ولا يملك جيشاً أو قوة، كيف يعِد سراقة بسواريْ إمبراطور فارس؛ كسرى؟ أكان ينظر بنور الله؟

لنقل إنها كانت نبوءة صادقة بانتصار المسلمين على الفرس والروم أيضاً. وفعلاً، ستتحقّق تلك النبوءة. فبعد أن هزم المسلمون جيش كسرى، في عهد عمر بن الخطّاب، وأتوا بغنائمهم، كان من بينها سوارا كسرى. فأخذ عمر بن الخطاب السوارين، وقال اليوم يوم الوفاء، ووضعهما في يد سراقة![45].

لقد عدّت الهجرة حداً فاصلاً بين العالم القديم والعالم الجديد، وفصلت بين الجاهلية والإسلام[46]. ومثلت نقلة نوعية لبزوغ العصر المُحَمَّدي، وظهور تجليات الله الكبرى على الأرض. كانت الهجرة إلى المدينة، هجرة في المكان والزمان، لكنها كمفهوم إيماني تفتح دروباً إلى السماء، وتحولت إلى هجرة القلب إلى الله.

يقول الحديث: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه». كل تزكية هجرة إلى الله. كل تطهّر من أمراض القلب، هجرة إلى الله. كل تطهر من الذنوب والمعاصي، هجرة إلى الله. وعندما تمتزج الهجرة بالتوبة، تخلق مساراً إيمانياً تطهّرياً دائماً. تتحول إلى حجة دائمة إلى الله.

وما التوبة إلّا ولادة روحية جديدة للإنسان. تفتح على التائب أبواب السماء الواسعة، ويصبح المؤمن سائراً في حجةٍ دائمة إلى ربه. ويقول الحديث الشريف: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها».

الفصل الرابع
مدينة الرسول

يثرب: لمحة تاريخيّة

كانت يثرب، قبل الهجرة، كأي قرية كبيرة أخرى في الجزيرة، وثنية، تعيش ظلماتها وتخلفها. لها خصائصها الاجتماعية التي شكلت إطاراً لهويتها الاجتماعية والثقافية في العصر الجاهلي. ولئن كانت مكّة، «أم القرى» كما يسميها القرآن الكريم، منطقة قرشية شبه خالصة، فقد كانت يثرب مختلطة التركيبة، تتكون من ثلاث فئات أساسية: قبائل الأوس والخزرج، وهم وثنيون. وتعود جذورهم العائلية المشتركة إلى قبائل الأزد القحطانية اليمنية. واللافت في الأمر، أنهما تنحدران أساساً من أخوين من الأزد.

وكانت تسكن المدينة وضواحيها القبائل اليهودية، التي نزحت من الشام والتجأت إلى الجزيرة، في فترات مختلفة، هروباً من اضطهاد الرومان لهم. وتنقسم، هي الأخرى، إلى ثلاث قبائل: بني النضير، وبني قُريظة، وبني قينقاع. وغالبيتهم من اليهود العرب أو الذين تعرّبوا. وهناك، أيضاً، يهود منطقة خيبر التي تبعد عن يثرب نحو مئة كيلومتر.

وبفضل مكانتهم، كتجّار وصاغة للذهب والفضة، وتجار جلود، بالإضافة إلى كونهم ملاكاً للأراضي الزراعية، كانوا يمثلون القوة الأساسية في يثرب. وقد منحتهم قوتهم الاقتصادية نفوذاً متسلطاً على القبائل الأخرى، يتحكمون في اقتصاد المدينة على نحو شبه كامل. ولم يكن العرب من القبيلتين وهم الأغلبية، يمثلون إلا الطبقة الأضعف في المدينة.

وكان من شأن تحكم اليهود في مقدرات المدينة وخيراتها، أن أفضى إلى خلق حالة من الاستياء العام لدى الأوس والخزرج، الأمر الذي سبق وأن دفع أحد زعمائهم، مالك بن عجلان، إلى طلب النجدة من أبناء عمّه الغساسنة المسيحيين في الشام. وقد رأى الغساسنة في هذا الطلب فرصة لمعاقبة اليهود على ما فعلوه بالسيد المسيح عليه السلام.

فأرسلوا إليهم جيشاً قوياً تمكن من ضربهم ضربة موجعة، هزّت موقعهم وأضعفت قبضتهم على المنطقة. وعلى ضوء ذلك، تعزّز موقع الأوس والخزرج في يثرب. وتمكّنوا تدريجاً من استعادة مكانتهم الطبيعية فيها. لكنهم وإن تحرّروا من قبضة اليهود واحتكاراتهم الاقتصادية، لم يكونوا بمنجى من خبثهم.

عندما رأى اليهود أنّ القبائل العربية قد استعادت ترابطها، وأصبحت تتمتّع بالنفوذ في مدينتها، عمدوا، مستغلين بساطة القبائل وعفويتها، إلى الدسائس والمكر المعهودة للإيقاع بهم؛ فتم الاتفاق على أن يدعم بعض اليهود قبيلة الخزرج، ويدعم بعضهم الآخر قبيلة الأوس.

وفعلاً، نجحوا في إشعال الحرب القبلية الشهيرة بين القبيلتين، وقد دامت الحرب بينهم أكثر من قرن. وكان من نتائج تلك المرحلة الدامية، أنْ تمكّن اليهود من إعادة بسط نفوذهم الكامل مرة أخرى على المنطقة وأهلها.

ويدون التاريخ، أن قبائل الخزرج كانت غالباً المنتصرة في هذه الحروب. وغنيٌ عن القول، أنّ هذا التناحر الأهلي مثّل صفحة سوداء في تاريخ الجزيرة المبكر. بيد أنه في آخر حروبهم الجاهلية تلك، وقبل هجرة الرسول إليهم بخمسة أعوام، انقلبت المعادلة وانتصر الأوس على الخزرج انتصاراً ساحقاً، وأوشكوا على إبادة الخزرج في منطقة «بُعَاث»، القريبة من يثرب.

على أنّ الله قدرَ للعقلاء، من الطرفين، أن يتمكنوا من وقف هذه المأساة الإنسانية قبل وقوعها. وفعلاً، وضعوا حداً لهذا الاقتتال العبثي والموت الرخيص الذي لم يخدم، كما يقرون بأنفسهم، إلا أعداءهم. فقد توجه هؤلاء الرجال إلى الأوس قائلين لهم: إنّ الخزرج إخوتكم، وإن جوارهم خير لكم من جوار هؤلاء الثعالب، أي: اليهود[47].

وفعلاً، توقفت الأعمال القتالية والعنف، لكن لم يتم الصلح الحقيقي، وظلت النفوس مشحونة. والسلام، كما هو معروف، لا يبنى إلا في العقول المتطهّرة من الأحقاد والضغائن القبلية وسواها.

أُوقف نزيف الدم، لكن لن يعم السلام ويتحقق الاستقرار حتى يصل إليهم رسول السلام، ويعقد هو شخصياً صلحاً مباركاً يحقق السلام الدائم بين الطرفين.

هكذا، سيخرج الله من عمق المأساة حكمة ربّانية. إذ شاء أن يوقظ المتحاربين من غفلتهم في الوقت المقدر، ويهيّئ قلوبهم وعقولهم لاستقبال نبيهم واحتضان رسالته. وسيرى الطرفان في الرسول الكريم، بأنواره وحكمته، القائد والمرشد الذي سيحقق السلام والإخاء بين العرب. وفعلاً، سيوحّدهم على نحو لم تشهد منطقة الجزيرة مثيلاً له من قبل. وتقول السيدة عائشة، رضي الله عنها: «كان يوم بُعاث، يوماً قدمه الله لرسوله».

قباء: السلم والأخوة

عندما هاجر الرسول (ﷺ) إلى المدينة عام 622م، كان في الثالثة والخمسين من العمر. وفي طريقه إليها، مرّ بمنطقة قباء، وهي منطقة الأوس، التي لا تبعد عن المدينة إلا ثلاثة كيلو مترات. كانت قبيلة الأوس تنتظر وصوله، وتتوقعه بين يوم وآخر.

وقد أرسلت رجلاً خارج قباء لإبلاغهم بقرب الوصول. وعندما رأى الجمال مقبلة من بعيد، عرف أنه الرسول ورفيقه أبو بكر. فصاح قائلاً: السعد يا بني قيلة! ويُنعت الأوس باسم جدتهم قيلة، التي تنحدر من امرىء القيس. هذا سعدكم الذي تنتظرونه!

وبوصوله مع رفيقه أبي بكر، استقبلته شخصيتان مهمّتان من زعماء الأوس: ابن عامر بن عوف، وابن عمه ابن سالم بن عوف. وأُنزل في دار كلثوم بن الهدم، وقد صلّى بهم أول صلاة جمعة في الإسلام. بعد اللقاء الحار الذي لقيه الرسول من قبل الأنصار، سألهم عن زعيم الخزرج أسعد بن زرارة، فردّوا عليه قائلين بأن أسعد لا يستطيع أن يدخل منطقتنا، لأنه قتل العديد من رجالنا.

إلّا أن الرسول أبلغهم عن رغبته باستدعاء أسعد قائلاً للأوس: «إنّ أسعد سيكون في جواري»، أي في حمايته. فردوا قائلين: كلنا في جوارك يا رسول الله. نحن، أيضاً في حمايتك. كان موقف قادة الأوس مشرّفاً؛ فبالرغم من أنهم يمثلون القبيلة التي فقدت العديد من رجالها وأشرافها في الحرب الطويلة المهلكة، إلّا أنهم أظهروا للرسول الأكرم، استعدادهم الصادق للصلح مع الخزرج.

وفعلاً، وصل أسعد بن زرارة في اليوم التالي ومعه خمسون رجلاً من الخزرج. وتحدث الرسول إلى ممثلي القبيلتين، شارحاً لهم ضرورة حقن الدماء، وأهمّية الصلح في الإسلام. وقد منّ الله عليهم بالإسلام، والإسلام يعتبر دم المسلم على المسلم حراماً. ووحدة الجماعة المسلمة هي ما يرضاه الله. وأكد لهم ضرورة طيّ الصفحة الدامية من تاريخهم إلى الأبد. فمستقبلهم، وانتصارهم على أعدائهم وأعداء الإسلام، مرتبطان بروح الأخوة وتضامنهم.

وعندما شعر الرسول بأن النفوس تهيأت للسلام، سأل الأوس قائلاً: «أتعفون عنهم؟». قالوا نعم يا رسول الله، نعفو عنهم! وبفضل حكمته، وفي جلسة واحدة، لم تدم ساعة من الزمن، مسح إرث الحروب والأحقاد التي دامت قرابة المئة والعشرين عاماً.

وبفضل جهوده المباركة، زرع في قلوبهم حب السلام والإخاء. وخرج الطرفان من عند رسولهم وقلوبهم مطهّرة من الأحقاد وآلام الجراح المزمنة. ومنذ ذلك اللقاء، سيصبح الأوس والخزرج حلفاء، لا بل إخوة، ولن يتحاربوا بعد. أخوةٌ ربط الله أواصرها بقوله: «إنما المؤمنون إخوة». وسيشكل الطرفان الجيش الإسلامي الظافر.

خلال الأيام الثلاثة التي قضاها الرسول (ﷺ) في قباء، تمكن من تحقيق مسألتين هامّتين:

الأولى، عقد الصلح بين الأوس والخزرج، وإنهاء حروب القرن. وهو إنجاز تاريخي كبير، وبفضله أرسى الأسس المتينة للسلام الدائم في المدينة.

والثانية، بناء أول مسجد في الإسلام، وهو المعروف بمسجد قباء. وكان أول مسجد يصلي فيه أهل قباء من الأوس والخزرج جماعة. وقد نزلت الآية عن المسجد الأول في الإسلام: [لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ] [التوبة 108].

وهو المسجد الذي لا يزال يشعر فيه المصلي بروحانية النبي (ﷺ) العالية، ويكاد المرء يتلمس السكينة فيه بيده. وبعد إنجازه المبارك لهاتين المهمتين، انتقل إلى المدينة مع رفيق دربه، وسار وخلفه حشد ضخم من رجالات القبيلتين؛ الأوس والخزرج، محيطين به، في مشهد مؤثر، حاملاً روح السلام معه إلى المدينة، حتى أوصلوه إلى مدينته.

المدينة الفاضلة

كانت المدينة على موعد مع القدر الرباني الكبير. لم تتهيأ مدينة من قبل لاستقبال زائرها كما تهيأت يثرب. والحال، أنّ الزائر ليس كأي زائر، إنه مبعوث السماء إلى الأرض. ويثرب بعد وصوله ستتطهّر من ظلالها وظلامها، وستتحول إلى مدينة الأنوار المُحَمَّدية؛ المدينة الفاضلة.

ولئن كانت المرحلة المكّية هي مرحلة مجابهة الوثنية والشرك، فستكون مرحلة المدينة، مرحلة الثورة النبوية الإصلاحية. مرحلة تشييد الدولة الإسلامية بدستورها وثقافتها الجديدة، ومرحلة إرساء القواعد للحضارة الإسلامية.

وفي ظاهرة استثنائية تماماً، ولأول مرة خرجت المدينة بأسرها تستقبل زائرها الذي انتظرته طويلاً. خرج الناس بالأناشيد والدفوف للقاء ضيفهم الذي أتى لينير لهم قلوبهم وحياتهم على الأرض، ويرشدهم إلى دروب السماء. واستقبلته المدينة بالترحيب، منشدةً أبياتها الخالدة:

طلعَ البدر علينــــا	من ثنيّـــات الوداع
وجب الشكر علينا	مـــــــا دعا لله داع
أيها المبعوث فينــا	جئت بالأمر المطاع
مرسلٌ بالحقّ جـاء	نطقه وحي السماء
جئتَ شرفت المدينة	مرحباً يا خَيرَ داع

صورت الأناشيد زائرها بالبدر الذي هَلَّ ليبدد الظلام والظلم ويحوّل المدينة إلى مركز للإشعاع المُحَمَّدي بكلمات معبّرة عن حقيقة مشرقة. وبفضله، ستظهر منها أنوار الحق واليقين. ثم، عاهدته المدينة كلها على الأمر المطاع.

بوصوله إلى المدينة سينبثق فجر التاريخ الهجري وهو تاريخ الانتقال من عالم الشرك إلى عالم الإيمان والنور. وسيرسم التاريخ الإسلامي آفاقه في التاريخ الإنساني. وهكذا، بدأ التاريخ البشري يأخذ بعداً إسلامياً جديداً. سكن النبي بضعة أشهر في بيت أبي أيوب الأنصاري. وكان تشريفاً كبيراً لهذا الصحابي الجليل، الذي سيتحول هو، لاحقاً، إلى أسطورة في الجهاد لرفع راية لا إله إلا الله. وسيسقط شهيداً على أسوار القسطنطينية[48].

سترتبط المدينة بالرسول الأكرم ارتباطاً روحياً أزلياً. فهو الذي سمّاها المدينة وزرع فيها من روحانيته وأنواره. هاجر إليها مدشناً المرحلة الثانية من بعثته. يوجد فيها قبره، في مسجده، ومعه دفن رفيقاه؛ أبو بكر وعمر. وبالقرب منه، إلى جانب المسجد، توجد مقبرة صحابته، «مقبرة البقيع».

وكما في مكّة المكرّمة، وعلى مدى عشرة أعوام متواصلة، سينزل فيها جبريل، عليه السلام، ليزور النبي، ويحمل إليه رسائل السماء. وفيها سيتنزل عليه النصف الثاني من القرآن. وهي لذلك ثاني مدينة مقدسة في الجزيرة العربية بعد مكّة المكرّمة.

سيحول الرسول يثرب، هذه القرية الوثنية المتخلفة، إلى مدينة «مُحَمَّد الفاضلة». وستعيش ثورة إصلاحية نبوية كبرى لم يشهد التاريخ البشري لها مثيلاً. وهذا، سيقدم لنا الأنموذج الأجمل للدولة الإسلامية، ثم سيتوج كل ذلك بصحيفة المدينة الدستورية، وستكتمل كل شروط الدولة الفاضلة.

فرئيسها رسول الفضائل وحارسها الذي أتى ليتمم مكارم الأخلاق. وهو، كما يصفه الله، السراج المنير. وهل ثمة شهادة أعلى وأشرف من قول الله عزّ وجلّ: [وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ]. وسكانها من الصحابة، أي: القافلة النورانية المُحَمَّدية. وهم من أفضل الرجالات والشخصيات التي سكنت الأرض. وستبني الحضارة الإسلامية وستغير مجرى التاريخ في العالم العربي.

سيقيم الرسول مدينته الفاضلة على قواعد نورانية تؤكدها أحاديثه الشريفة: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.. من تحابا في الله دخلا الجنة .. المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء... اتق النار ولو

بشقّ تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة.. والكلمة الطيبة صدقة». إذن، المحبة، الرحمة، الأخوة والكلمة الطيبة هي بعض مركبات البناء الإيماني، الأخلاقي، الثقافي والإسلامي للمدينة الفاضلة.

بعد يومين من وصوله، باشر الرسول في بناء مسجد المدينة المنورة، وبنى له داراً صغيرةً ملتصقة بالمسجد. وكان يشترك في البناء مع أصحابه، بيديه الشريفتين، ما أضاف إلى تواضعه المعروف وقاراً جذاباً لشخصيته الجميلة. ويذكر أنه عندما رآه أحد الصحابة يحمل لَبِنة حاول أن يأخذها من يده ليخفّف عنه، فقال له الرسول: «اذهب فخذ غيرها، فلست بأفْقَر إلى الله مني».

وإلى جانب المسجد، بنى الرسول مكاناً خاصاً، عرف بـ«الصفّة»، ليؤوي فيها المساكين من أتباعه الذين سيشتهرون بـ«أهل الصفة». ويذكر أن عددهم كان قرابة الثلاثمئة. وكان من أشهرهم: أبو هريرة، وأبو ذر الغفاري، وشاعر الرسول كعب بن مالك، وكاتب الحديث عبدالله بن مسعود، ومؤذّن المدينة، بلال بن رباح، وسلمان الفارسي، وصُهيب الرومي، التاجر الذي تخلى عن كل أملاكه في مكّة ابتغاء وجه ربه، وتحول إلى أحد مساكين أهل الصفّة. وكان من بينهم زيد بن الخطّاب، أخو الخليفة عمر بن الخطاب.

ومنهم البراء بن مالك، المعروف بالأشعث الأغبر. الذي قال عنه الرسول: «لو أقسم على الله لأبره». كانت نخبة مميزة حقاً، يقضي أفرادها أوقاتهم في العبادات، وفي حفظ القرآن، وفي حلقات الذكر المتواصلة. وسيخرج من صفوف هؤلاء المساكين كبار رجالات التاريخ الإسلامي المبكر، من العلماء والفقهاء والولاة وأمراء المناطق. وسيقع على عاتقهم نشر الإسلام في الأقطار العربية والإسلامية الأخرى.

وكان الرسول يحب مجالستهم، يأنس بهم أكثر من غيرهم، وفي المساء، كان يوزّعهم على أصحابه لوجبة العشاء. ويدعو بعضهم لمشاركته الطعام إن توافر. وقال لهم ذات مرة: «لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فقراً وحاجة». وكان من دعائه المعروف: «اللهم احييني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين».

كان حبيب الفقراء وإمام الزهّاد، عاش ومات فقيراً مثلهم. وكان يقول: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». ولا ريب البتة في أن كل جانب من حياة الرسول وصفاته يمثل مدرسةً للكمال الإنساني. فالعبادة والتبتل مدرسة كبرى. والأخلاق بكل جوانبها مدرسة ربانية. وهناك

مدرسة الحكمة والتسامح والحلم، وغيرها من الجوانب المنيرة، التي مررنا عليها وسنواصل إلقاء الضوء عليها في عملنا هذا.

و حسبنا، في هذا السياق، التوقف قليلاً عند جانب الزهد في حياة الرسول. وإذ نرى فيه موقفاً أخلاقياً من الحياة، يعلمنا بأن الزهد هو مسلك تطهر روحي دائم، وهو جهاد إيماني لأهواء النفس وتزكيتها لتقترب من خالقها. يقول الرسول (ﷺ): «فحب الدنيا رأس كل خطيئة». ومن قوله: «ازهد في الدنيا يحبك الله».

والمعروف أنّ الله سبحانه وتعالى، قد عرض على الرسول أن يجعل له بطحاء مكّة ذهباً. فقال: «لا يا ربّي، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً. فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرّع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك». هكذا إذن، رفض الذهب، وما يرمز إليه، وفضّل أن يعيش بين مقامي التضرّع والشكر وما يرمزان إليه. ولذلك، يقول المالكي، كان فقر الرسول فقر اختيار لا فقر اضطرار. فقر تطهر وورع.

كان مُعرضاً عن الدنيا كل الإعراض. أتى إلى الدنيا رسولاً ليهدي أهلها إلى الله، لكنه لا ينتمي إليها. ينام مثل أصدقائه فقراء أهل الصفّة، على حصير من سعف النخيل، تظهر آثارها على جنبيه. وعندما قيل له، أنفرش تحتك ألين من الحصيرة؟ قال: «ما لي ومال الدنيا. إنما مثلي، مثل راكب سار في يوم صائف، فقال تحت شجرة، ثم راح وتركها»[49]. وسيعيش على حصيره حتى وفاته.

ليست الدنيا بالنسبة إليه إلا لحظة «مقيال»، تحت ظل شجرة. والأحاديث عن زهد الرسول تطول وتتشعّب. وحسبنا أن نلخّصها في ما ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها، إذ تقول: «لقد مات الرسول وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين». وتوفّي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشعير أخذها لقوت لعياله[50]. لم يكن لدى رسول الله المال حتى ليشتري الغذاء، من الخبز والزيت لأهله، فرهن الدرع!

لكن قبل أن نختم هذا الباب، لنتأمل ما قاله رسول الحكمة لعلي بن أبي طالب عن فلسفته في الحياة، قال: «المعرفة رأسمالي، والعقل أصل ديني، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي، والرضى غنيمتي، والفقر فخري، والزهد

حرفتي، والصدق شفيعي، والطاعة حبي، والجهاد خلقي، وقُرّة عيني في الصلاة». وبهذا الكلمات الناطقة نوراً ستضاء السيرة النبوية ومعها الجامعة المُحَمَّدية.

وبعد أن دوَّن علي رضي الله عنه، حديث الرسول عن فلسفته في الحياة، وصف الرسول بقوله: أجود الناس صدراً، وأصدقهم لهجةً وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة. من رآه بديهةً هابهُ، ومن خالطهُ معرفةً أحبهُ. ويقول ناعتهُ: لم أر قبله ولا بعدهُ مثلهَ.

الجامعة النبوية المفتوحة

المسجد هو مكان السجود والاقتراب، جامعاً لكل الفضائل والبركات؛ و يوجد فيه روضة من رياض الجنّة. ويصفه الشيخ المالكي، بالجامع المتألق بالهيبة الأزلية والمحاط بالجمال والجلال[51]. وكفضاء روحي، كان مكاناً للعبادة والذكر، وتعليم القرآن. وكان مقراً للرسول كإمام للمسلمين وكحاكم وقاضٍ للمدينة المنوّرة. وكان الصحابي بلال بن رباح أول من أذّن فيه. وقد تم اختيار الآذان وفق رؤيا إلهامية رآها بعض الصحابة، وباركها الرسول.

لكنه إلى جانب ذلك كان جامعة مفتوحة مثالية. وكما كان بيت الأرقم في مكّة المكرّمة، أول مدرسة في الإسلام، سيمثل مسجد النبي (ﷺ) أول جامعة مفتوحة في الإسلام. وهكذا، سيؤدي المسجد دوراً حضارياً رائداً في تعليم وتربية الصحابة ومن تبعهم.

لنبدأ بالقول إن مكانة العلم في الإسلام مكانةٌ شريفةٌ. ومن المهم أن ندرك أنّ العلاقة بين العلم والإيمان في الإسلام، علاقة تفاعلية وخاصة جداً. ويمكن للعلم أنّ يكون معبّراً عن الإيمان وعاكساً له. ولكي نعي قيمة العلم في الإسلام، حسبنا أن نتأمل مكانته عند الرسول، إذ يقول: «إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً، فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم!». كم يحمل هذا الحديث الشريف من عمق المعنى والرسالة. وكان من دعائه: « اللهم زدني علماً».

ويمكننا أن نقرأ من حديث رسول العلم، أنه بغياب العلم تغيب أنوار السماء والحكمة من حياة الإنسان. ولا يمكن أن يسود في غياب ذلك إلا النقيض، الجهل والظلام. ولا يثمرُ الإيمان من شجرة الجهل، بل إن غياب نور العلم يطفئ نور الإيمان. ولكن إذا امتزج العلم بالإيمان أثمرَ الحكمة وأفاض الله على المؤمن من العلوم الربّانية.

واللافت حقاً، أن الإسلام يعتبر العلوم بذاتها، صنفاً من صنوف العبادات المستمرة. ويتحول العلم نفسه، إذا كان لخير الإنسان، إلى شيء من الجهاد. ولذلك يقول الحديث الشريف: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهّل الله له طريقاً إلى الجنّة».

وعليه، يتوجب على المسلم والمؤمن خصوصاً، أن يكون دائم الترقي بالعلوم والمعارف ليزداد إيماناً وقرباً من ربه. إذن، الطريق إلى العلم، في الإسلام، هو أحد الطرق الموصلة إلى الجنّة. وأخيراً، ليس ثمّة هدف أسمى للعلوم والمعارف إلّا معرفة الله والتقرب إليه. فأكبر خيرات العقل هي معرفة الله. ومعرفة الله رأس الحكمة.

ووفق المنهج النبوي النظري والتطبيقي، للتربية الروحية والسلوكية، دأب المسلمون على حفظ كل عشر آيات من القرآن وتطبيقها. لا يتعلمون الآيات التي تليها قبل أن يحفظوا ما نزل عليهم، وقبل أن تستقر في قلوبهم، ويتم تطبيقها عملياً في حياتهم.

وكما يشرح لهم الرسول السور والآيات، ويظهر لهم ظواهر النصوص وبواطنها، يكشف معانيها المتسامية ولغتها الداخلية. ثم يبين لهم الحقائق الإيمانية الإساسية في الإسلام، ومعها تتزكى نفوسهم وتتطهر قلوبهم. وبتعميق إيمانهم ويقينهم، يصلون إلى معرفة الله معرفة حقة ومعها حالة التسليم الواعية والمطلقة. وعندها يتحقق معنى الآية الكريمة: [اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ] [البقرة 257].

وعندما تتحقق معرفتهم الكاملة بالحق، تسقط عنهم الأنا وأهواء النفس لتستقر قلوبهم في مقام العبودية والامتثال الكامل لأوامر الله، ولا تبقى لديهم، بعد ذلك، أي رغبة أو مراد من الدنيا، ولا يبقى في قلوبهم إلاّ الله ومراده لهم. وبعد جهادهم في الله استحقوا سبله وأنواره. وذلك بقوله تعالى: [وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا] [العنكبوت 69].

وعلى هذا النحو، تتحول المعرفة القرآنية إلى علم روحي تطبيقي فاعل في خلق الإنسان المؤمن وإعمار وجدانه. فلم تكن تربية الرسول تربية دينية عقائدية تلقينية، بل كانت تربية روحية سلوكية، امتزج فيها التربوي الديني بالروحي بالسلوكي، لتتحول إلى معايشة وجدانية وشعورية، ومسار ارتقاء روحي[52].

هكذا، ربّى الرسول أتباعه وخلق منهم نماذج خاصة من البشرية. ويجدر بنا هنا، الإشارة إلى القصة المعروفة، لحنظلة وأبي بكر الصدّيق، لما لها من دلالات على دور الرسول في تفتّح بصيرة قلوب الصحابة. يُذكر أنهما ذهبا إلى الرسول وقالا له: عندما نكون معك في مجلسك، وتحدثنا عن حياة الآخرة، عن النار والجنّة، نشعر وكأننا نراهما بأعيننا. وعندما نخرج من مجلسك إلى حياتنا الطبيعية، نفقد الشعور بذلك.

فرد الرسول (ﷺ)، قائلاً: «والذي نفسي بيده، لو تدومون على ما تكونون عليه عندي، وعلى الذكر، لصافحتكم الملائكة على فراشكم وفي الطرقات. لكن يا حنظلة ساعة وساعة». وتعلّمنا هذه القصة، أنّ الصحابة في حضرة الرسول، وحين ترتبط قلوبهم بقلبه، تسقط عنهم بعض الحُجب، بحيث يكون بإمكان الصحابة الانتقال من حالة المعرفة الإيمانية العامة، إلى حالة المشاهدة الشعورية الخاصة، التي تسمح، لو تستمر، بمصافحة الملائكة في الطرقات.

ونفهم من ذلك، أنه كان بإمكان الرسول نقل هذا الحالة الشعورية والرؤى إلى قلوب الصحابة بمجرد مجالسته والأخذ من علومه. فالقرب من الرسول، واتباع سيرته، فيه تطهّر للنفوس، وترقٍ للأرواح في فضاء الإدراك الشعوري واليقين. وهذا شيءٌ من تلك السبل التي يتحدث عنه الله سبحانه وتعالى.

وغنيٌّ عن القول، إن الجيل الذي تعلم وتربّى على يد الرسول الأكرم، كان أفضل جيل عاش في التاريخ البشري كله. وقد تخرج في الجامعة النبوية العلماء، والمفكرون، والحكماء، والقادة التاريخيون، وغيرهم من بناة الحضارة الإسلامية. وتحول الرعيل الأول من الصحابة، إلى منارات مضيئة لم تزل ترشد المؤمنين.

ولنتذكر، أنه في هذه الجامعة النبوية تخرّج الخلفاء الراشدون؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، الذين تحولوا من تجّار ورعاة إبل ضالين، يعبدون الأوثان، إلى قادة أبهروا العالم بقدراتهم. وقد أظهروا من الحكمة والقيم الإنسانية ما لم يتوافر في قادة تاريخيين لا قبلهم ولا بعدهم، إلا استثناءً.

وقد تمكّنوا، قبل أن ينتهي القرن الإسلامي الأول، من تحرير العراق من الاحتلال الفارسي المجوسي، وتحرير الشام من الاحتلال الروماني وبالتالي، خلق أمة عربية مُوحّدة. لقد تمكنوا من

توحيد الشعوب العربية، وربطها ديناً ولغةً وأرضاً. وهي روابط خالدة لا تزال تسري في عروق أهلها، وتغذي وعيهم وانتماءهم. وكان من نتائج ذلك، أن تمكَّن المسلمون لاحقاً، من بسط حضارة إسلامية مبهرة، ما زالت تغذي العقل والمخيلة الإنسانية بالآداب والفنون والعمارة.

وحسبنا أن نتأمل كيف يصف الله تعالى صحابة الرسول في هذه الآية المدهشة من سورة الفتح، إذ يقول:

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا] [الفتح 29].

فضلاً عن ذلك، كانت للمسجد أدوارٌ اجتماعية وإنسانية هامة، تتمثل في إزاحة الفروق الاجتماعية والطبقية، مثلما تساهم في تطهير المجتمع عملياً من النوازع العنصرية؛ حيث يجتمع فيه المسلمون للصلاة، جنباً إلى جنب، الغني والفقير، السيد والإنسان البسيط. لا مجال للتمييز أو التفريق بين يدي الله. وكان من شأن هذا الانصهار أن ثبّت قيم المساواة والإخاء بين المسلمين، وكوّن الضمير الإسلامي الجمعي.

المؤاخاة

المؤاخاة مفهوم خاص. فعلى نحو موازٍ للعمل على بناء المسجد، الذي لم يستغرق إلّا أشهراً قليلة، بدأ الرسول بتطبيق مفهوم «المؤاخاة»، بين المهاجرين والأنصار. وهو مفهوم كانت الغاية منه وضع صيغة إنسانية وأخلاقية تكافلية للتضامن الاجتماعي.

ولئن كان الهدف الأساس منها معالجة المسألة الاقتصادية والمعيشية التي نجمت عن هجرة المسلمين إلى المدينة، فإنه، في التطبيق العملي، تجاوزت ذلك، لتسهم هي الأخرى، في إزالة الفروق الاجتماعية والتمييز، وصهر المجتمع أكثر.

لقد وصل عدد المهاجرين إلى قرابة المئة والثمانين. ووفق مبدأ المؤاخاة، اتخذ كل أنصاري أخاً له من المهاجرين، يتشارك معه في العمل كشقيق. والحال، لقد تجارزت روح التضامن المدهشة

لدى الأنصار كل تصور. وأصبح تطبيق المبدأ ضرباً من صنوف التضحية الإيمانية. وتذكر القصة المعبّرة لأحد الأنصار الذي أبدى استعداده لأن يشرك أخاه المهاجر، في أمواله وأملاكه، بل حتى في زوجاته!

فقد قال أحد الأنصار لأخيه المهاجر: لديّ محلان تجاريان فاختر لك واحداً منهما وخذه حلالاً لك. ولديّ زوجتان فاختر منهما واحدة فأطلقها وخذها زوجة لك!! فردَّ عليه المهاجر قائلاً: بارك الله لك في أهلك ومالك. وما عليك إلا أن تدلني على السوق لأذهب وأتاجر فيه. وهكذا كان.

ليس ثمة ما يمكن أن يقال أمام مشهد إيثار فاق حدود نكران الذات. وسيظل المعنى في هذا السلوك النبيل معبراً عن أواصر أخوّة تجاوزت روابط الدم والعرق والقبيلة وسواها، الأمر الذي أسهم في إنتاج ثقافة إسلامية تضامنية مثالية جداً.

ولن يُفوت القرآن الكريم أن يزكِّي هذه الروح الطاهرة، فنزلت سورة الأنفال تخاطب تلك الأخوة، وتبشّر المتآخين بالمغفرة والرزق الكريم: [وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ] [الأنفال 74].

ويذكر المرحوم البوطي، أنّ الدولة الإسلامية في المدينة، قد شيدت على ثلاث دعائم: المسجد، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم وثيقة المدينة، أي دستور المدينة، التي تمثل عقداً اجتماعياً أملاه النبي على علي ليكتبه. لقد مثّل المسجد مقراً للقيادة الروحية والسياسية، وتحققت، بفضل التضامن، الوحدة الاجتماعية.

نظام الدولة في الإسلام

دستور المدينة

دستور المدينة هو أحد الأعمدة الأساسية التي ستتشيد عليها المدينة الفاضلة. فبعد الانتهاء من بناء المسجد، وتثبيت مبدأ المؤاخاة، انتقل الرسول إلى خطوة تاريخية هامة، فصاغ النبي (ﷺ) وثيقة، عرفت بـ«صحيفة المدينة المنورة». وهي جوهرياً وثيقة دستورية تاريخية، وضعت الأسس القانونية والتشريعية لنظام الحكم في الإسلام. أقرت التعددية، وحرية الأديان والآراء واحترام الآخر. ورفض الإكراه والغلو بكل أشكاله. وقد مثلت، بالفعل، «عقداً اجتماعياً» فريداً للمدينة.

كان وضع الدستور خطوة متقدّمة في المكان والزمان. ولا شك يمكن اعتباره، وبكل موضوعية، نقلة حضارية كبرى لمجتمع المدينة. كما سيمثل المرجعية الأولى لنظام الحكم العادل في الإسلام. وقد احتوى الدستور على أكثر من خمسين بنداً. كان من شأنها أن ترسي القواعد الدستورية لتنظيم الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والدينية في مجتمع المدينة.

ومع تأكيد الوثيقة، في مقدمتها، أن المسلمين من الأنصار والمهاجرين «أمة واحدة». فقد نص البند السادس والعشرون: «يحتفظ اليهود بدينهم، وكذلك المسلمون». وأن لا يعتدي طرف على الآخر. كما أكدت المبادئ الإسلامية الأساسية وقواعد العيش المشترك تحت سلطة القانون. وكل ذلك، كما نعلم، من المركبات الأساسية لمفهوم الدولة الحديثة وشروط المواطنة المعاصرة.

وقد شيد نظام الحكم على قاعدة ربّانية أساسية؛ لا إكراه في الدين. والله عز وجل يتساءل في الآية الكريمة: [وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآَمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ] [يونس 99]. أي: ألّا يُكره المرء، بل يجب على الانسان أنّ يكون مقتنعاً عقلياً لكي يسلم. والاقتناع العقلي لا يأتي إلا بحرية الإرادة. أما الإيمان فهو مسألة قلبية أعمق. إذن، كل ما هو إكراه، يتعارض مع روح الإسلام المحمدي، مثلما يتعارض مع فطرة الإنسان ولا يقبله عقله.

ثم إذا كان لا إكراه في الدين، فالأحرى ألاّ يكون إكراه في كل ما يتعلق بشؤون الحياة من عادات ومعاملات. وقد مثَّل هذا المبدأ الأساس الثابت للحرية. ويتوج الله تعالى ذلك بآية صريحة: [وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ]. وقد وضعت هاتان الآيتان المعبّرتان عن جوهر الإسلام، الأرضية الصلبة لمبدأ حرية المعتقد والتعدّدية، في المجتمع الإسلامي.

إذن، ضَمِن الدستور لأصحاب الديانات الأخرى كامل الحقوق المدنية والدينية، وصان لهم حرية العبادات والشعائر والعيش الكريم مع المسلمين. كما ضمن لهم الاستقرار والأمن في المجتمع الإسلامي. وقد استلهمت هذه المادة من سورة البقرة: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] [البقرة 62]

ويكتب جيورجيو، في أطروحته، قائلاً: إنّ سبب هذا التطمين أنّ الإسلام اعتمد على أساس الحريّة والمساواة. لهذا فلا خوف على معتنقي الديانات الأخرى. إن الصابئين الذين ورد ذكرهم في

هذه الآية هم عبدة النجوم والملائكة، ويعتقدون بالله تعالى. كما يستفاد من هذه الآية أنّ الله يشمل برحمته اليهود والنصارى وحتى الصابئين، شريطة أن يصدقوا في إيمانهم[53].

فضلاً عن ذلك، أقرّت الوثيقة ضرورة الدفاع المشترك عن المدينة ضد أيّ اعتداء خارجي، وعلى أيّ طرف من سكانها، المسلمون أو اليهود أو غيرهم. كما لا يسمح لأي فرد من سكان المدينة بحماية أحد من قريش أو أنصارهم من أعداء الإسلام. وأخيراً، توّجت الوثيقة موادها بمادة يمكن تعريفها بمادة «السلام»، وتقول إن: «أرض المدينة حرام، لا يسمح أن يثار فيها الجدل».

مدينة مُحَمَّد الفاضلة، مدينةٌ مقدسة، لا أرض جدال وشقاق ونفاق. ولا يمكن أن تكون إلّا مدينة السلام. وشيء جميل أن يختم الدستور، وفي ذلك الزمن البعيد، مواده بهذا التأكيد. ومن يزرِ المدينة اليوم، يشعر بروح السلام، التي زرعها مُحَمَّد (ﷺ)، في مدينته قبل أربعة عشر قرناً.

جوهرياً، لم تكن الوثيقة إلا الترجمة التشريعية لروح المبادئ والقيم الإسلامية الحقيقية، التي صاغها رسول الله (ﷺ)، وسهر على تطبيقها بنفسه. ليرينا الدرس عملياً، ودون أدنى قصور. وكان من شأن هذه المبادئ الدستورية أن تؤسس لثقافة راسخة من التسامح الإسلامي الحقيقي، ولا زالت تمثل أنموذجاً مبهراً إلى يومنا هذا.

ويقيّم الشيخ البوطي رحمه الله هذه الوثيقة الإسلامية الأولى بقوله: وقد حسبنا هذا الدستور الذي وضعه الرسول (ﷺ)، بوحي من ربه، وجعله الأساس لعقد بين المسلمين وجيرانهم اليهود، دليلاً على أنّ المجتمع الإسلامي قام منذ أول نشأته على أسس دستورية تامة. وأنّ الدولة الإسلامية قامت، منذ بزوغ فجرها، على أتم ما تحتاج إليه الدولة من المقومات الدستورية المتينة. وهذه الوثيقة أكبر شاهد على ذلك: إذ لا سلام حقيقياً في المجتمعات التي لا تقف على أرضية العدل الحقيقي والمساواة التامة، الكاملة، والناجزة أمام القانون[54].

والحقيقة، إنه يمكن رؤية حضور الفكر الدستوري في الفكر السياسي الإسلامي المُحَمَّدي. بالطبع، لم يكن مصطلح «دستور» متداولاً آنذاك، مثل العديد من المصطلحات الحديثة الأخرى، كالمواطنة والدولة، ومؤسساتها التشريعية والتنفيذية مثلاً.

وكما نعلم، فإن المصطلح «دستور»، لم يرد قبل ذلك، إلا عند أرسطو، ونعلم أنه لم يكن قد خرج من كتبه بعد. وستنتظر تلك الكتب الإغريقية القديمة، قرابة الألف وسبعماية سنة، حتى يأتي

الفيلسوف العربي الأندلسي المسلم، ابن رشد (1198 م)، ليخرجها إلى النور.

وكان من شأن هذا الفضاء الإسلامي الرحب، أنْ يسمح لمن سيدخل الإسلام لاحقاً، من غير العرب، بالاندماج في المجتمعات العربية ثقافياً، دون تفرقة أو تمييز، ثم يتحولون إلى جزء من الأمّة الإسلامية الواحدة، أمة مُحَمَّد. وأكد الرسول الأكرم، أنّ المجتمع لـحمةٌ واحدة، وفضاءٌ واحد، وأن كل فرد يعيش في المجتمع، هو مسؤول عن مصالح المجتمع ككل، يتبناها ويدافع عنها[55].

العدل أساس الحكم

لقد أتى الرسول بالشرائع والقوانين والدستور، وسهر على تطبيقها طوال المرحلة المدنية. ليرشدنا إلى طرق الخير والفلاح في الدارين. وستضيف المدينة إلى مهام الرسول (ﷺ)، كإمام المسلمين، ومرجعيتهم التشريعية والأخلاقية، مهامَّ جديدة فرضتها المرحلة المدنية ومتطلباتها. فسيكون رئيس الدولة الإسلامية، والقائد الأعلى للجيش.

واللافت، أنه كان بإمكان الرسول الأكرم، كحاكم مطلق للمدينة، أن يتصرف كيف شاء ومتى شاء، وأن ينفرد بالقرار دون أدنى معارضة. فهو يملك التفويض الإلهي المباشر، والشرعية الكاملة من الله عزّ وجلّ، إلّا أنه مع ذلك، اعتمد، في ممارسة نظام حكمه، على أربعة مبادئ إسلامية: العدل، الحرية، المساواة واحترام التعددية، وعلى رأسها الشورى. وكلها من جوهر الفكر السياسي الإسلامي.

وبحكمته، طبع مبدأ الشورى كل أفعال الرسول ومواقفه طوال حياته. فكان رسول العدل يمقت فكر الاستبداد والمستبدين مقته للظلم والشرك. وبتفويضه الإلهي، أرشدنا إلى أنّ احترام الرأي الآخر، في زمن السلم كما في زمن الحرب، هو جزء أساسي من المبادئ الإسلامية الثابتة.

والمعروف، أنّ ثمة نصوصاً إسلامية ملزمة، كونها أوامر تشريعية لا تقبل التأويل والجدل. مثل [وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ]. [وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ]. [وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ]. وهي مبادئ لا يمكن الحياد عنها دون الإضرار بجوهر الإسلام، وروح العدل في الحكم، فضلاً عن السقوط الحتمي في منطق الاستبداد والتسلط الجاهلي.

كانت المبادئ ربّانية والتطبيق نبوياً. فلا مجال لقصور ما أو إخفاق أبداً. ذلك لأنّ الرسول الأكرم هو من أتى بمبادئ الحق والعدل والشورى وسواها من المبادئ الإسلامية السمحة. ولم يحد النبي الكريم عن تلك المبادئ، طوال حكمه، قيد أنملة.

وهكذا، ترك لنا الرسول الأكرم الدرس الأجمل في نظام الحكم الإسلامي، القائم على مبدأ التعددية، الحرية واحترام الرأي الآخر. والحال، أن من يتأمل في سيرة الرسول (ﷺ) جيداً، يدرك، دون أدنى مبالغة، أنّ مُحَمَّداً (ﷺ)، كان هو العدل نفسه. فلا يمكن لمبعوث السماء إلّا أن يكون تجسيداً مطلقاً للعدل.

التشريعات

كان من شأن التشريعات السماوية، التي أتت لتكمل الجزء الثاني من هذه الرسالة المحمدية، أن تثبت الثورة النبوية الإصلاحية. وهنا يتوجب علينا التوقف قليلاً، للإشارة إلى التشريعات المدنية، قبل أن نواصل رحلتنا الغنية مع هذه السيرة النبوية الشريفة.

وخلال العشرة أعوام من حياته في المدينة، ستتنزل السُّوَر المكملة للقرآن الكريم. ولئن كانت السُّوَر المكية قد نُزِلت لتكرس الإيمان وتثبت التوحيد، فقد نزلت سور التشريعات لتطهّر روح المسلم ونفسه من آثام الحياة وشرورها، وتعزز ارتباط المسلم الواعي بخالقه.

المعروف، أنّ العادات والأعراف الجاهلية، كانت متجذرة في مجتمعات الجزيرة. ونعلم أنها لم تكن في الواقع سمة خاصة بالمجتمعات العربية وحدها، إذ كان لكل المجتمعات الإنسانية الأخرى حظها من جاهليتها وظلماتها. لذلك مثّلت هذه التشريعات السماوية جزءاً من الثورة الإصلاحية على المستوى الحقوقي والاجتماعي والثقافي .

فبعد أن نزلت فريضة صيام رمضان، في السنة الثانية من الهجرة، أتت فريضة الزكاة، وبينت أنصبتها وشروطها وأحكامها. ثم أتت رؤية الإسلام لمعالجة مسألة الإرث، وكذلك مشكلة تعدد الزوجات المزمنة. وكان من شأن التشريعات أنّ تزرع القيم الإسلامية الكبرى في المجتمع، وتفضي إلى ضبط إيقاع الحياة في مجتمع المدينة وفق الرؤية الإسلامية للعدل والمساواة.

ولكن قبل أن نرى هذه المسألة في المجتمع العربي الجاهلي، يجب علينا أن نتذكر، أنّ كل الديانات التي سبقت الإسلام أباحت تعدّد الزوجات دون قيود، ولم تقنّنها. ومن المعروف أنّ النبي داوود عليه السلام، كان لديه ثماني عشرة امرأة. وكان للنبي سليمان من بعده، ستمئة زوجة. وكان شرب الخمر مباحاً. ولم يُقنّن تعدّد الزوجات أو يحرّم الخمر، إلّا الإسلام.

ومن المعروف كذلك، أنّ مسألة تعدد الزوجات كانت أمراً شائعاً في المجتمع الجاهلي. ولم تكن مسألةً منكرةً أو مثار خلاف، بل وفق تقاليد ذلك الزمان كانت مثاراً للتفاخر، وربما نوعاً من الزهو بالجاه والثراء. يبقى أنها وإن كانت من العادات المقبولة، فقد كانت مؤشراً على تخلف المجتمع وظلمه للمرأة. فكان لبعض الرجال العديد من الزوجات، قد يصل عددهن إلى العشر أو يزيد. هذا إلى جانب العلاقات غير المشروعة، وما أكثرها في الزمن الجاهلي.

يبقى أن الله قدّر أن الوقت قد حان لمعالجة تلك الممارسات الجاهلية؛ وأنزلت التشريعات بتقدير رباني وعلى نحو متدرج. فكانت أولاً، الفروض الدينية، مثل الصلاة والصوم، ثم التشريعات الحقوقية المدنية والاجتماعية الإسلامية، فوضعت حداً لهذه الممارسات المنقصة لمكانة المرأة كإنسان وكأم. نعم، لقد سمح الإسلام بأربع نساء، لكنه أيضاً، وضع لها شروطاً من الصعب على الإنسان العاقل تحقيقها، إلّا ما ندر.

ثم أتت مسألة الرق والعبودية، وكانت، هي الأخرى، سائدة في كل المجتمعات العربية وغيرها، وتبقى دمغة سوداء على جبين الإنسانية. فبعد أن ألغاها الإسلام في الفكر، أتت الشرائع لتقننها وتزيلها تدريجاً من الممارسة. ونعلم، أنّ المبدأ الأساس في الإسلام، هو أن الناس عند الله سواسية كأسنان المشط. ولئن كان الإسلام قد كرّم الإنسان بالعدل والمساواة، فلا يمكن بحال أن يقبل له العبودية.

وحسبنا أن نتذكر مقولة عمر بن الخطاب الخالدة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً! تلك المقولة التي عبّرت عن روح العدل في الإسلام، وأصبحت جزءاً من جوهر الثقافة الإسلامية. ولنتذكر أنها قد سبقت شعارات الثورة الفرنسية والقوانين الوضعية الأوروبية بأكثر من ألف عام. وهناك موضوع الخمر، الذي حرّم هو الآخر تدريجاً.

ثم تبع ذلك قانون الإرث، وكان تشريعاً استثنائياً على مستوى المجتمعات البشرية كلها. وقد مثل فلسفة حقوقية متكاملة، ولا يسعنا المجال هنا الدخول في تفاصيلها التشريعية. بيد أنه، ولأول مرة في التاريخ تمنح المرأة حقوقها الاقتصادية والاجتماعية. ويتم الاعتراف بها ككيان مستقل، معزّزٍ ومكرمٍ في المجتمع. ولكلّ فرد من الورثة حقوقه المحسوبة بمقادير ربّانية من التركة.

وغنيٌّ عن القول، أن تشريع الإرث أتى لصون الحقوق المادية، لكنه في الجوهر حرر المرأة ثقافياً من استبداد التقاليد والأعراف الجاهلية، ورفع من شأنها ومكانتها الإنسانية. وعملياً، حرّر معها الرجل من أسر الجهل والتخلف.

إجمالاً، بفضل العقد الاجتماعي، والشرائع الإسلامية والتربية المُحَمَّدية، تمكن الرسول الأكرم من القضاء، تدريجاً، على بقايا الثقافة الجاهلية والنزعات القبلية الراسخة، أكانت تجاه المرأة أو في ما يتعلق بالتمييز الاجتماعي على نحو عام، واستبدلها بثقافة جديدة قائمة على احترام الإنسان وحقوقه. والمدهش، أنّ الرسول الأكرم قد تمكن من إحداث كل ذلك التحول الاجتماعي والثقافي الجذري في غضون أعوام قليلة لا تحسب في مقياس الزمن.

الفصل الخامس

الإسلام واليهود في المدينة

المسألة اليهودية مسألة إشكالية في التاريخ العربي والإسلامي. فبعد عهد الاضطراب المكي، كان المسلمون يتوقون إلى الاستقرار والسلام بعيداً عن قريش، خصوصاً أنّ الدعوة إلى الله تحتاج إلى الحرية لتأخذ طريقها إلى القلوب المتعطشة إلى الإيمان. لكنّ إقامتهم في المدينة لم تكن تلك الإقامة المستقرة المنشودة. ولئن كان لهم في مكّة عدو واحد هو قريش. فسيترتب على المسلمين، في المدينة، مواجهة ثلاثة أعداء: اليهود والمشركين والمنافقين.

ولاحقاً، ستتبع ذلك تحالفات اليهود والمنافقين مع قريش، وقيامهم بمحاولة كبرى لإبادة المسلمين في المدينة إبان معركة الخندق. ولئن كانت قوة قريش في مكّة، تفتقر إلى المرجعية الدينية، فقد كان اليهود في المدينة أهل دين سماوي، وخبرة طويلة في الجدال والحجج الموسومة بالاستكبار والتنكّر للرسل والرسالات.

ولا نبالغ إن قلنا، إن جُلَّ التاريخ اليهودي هو كناية عن تنكّر للحق والسلام، لذلك ستواجه المدينة تحديات جساماً حقاً. لكن بالمقابل، وجد الإسلام طريقه إلى قلوب الجزء الأكبر من سكان المدينة من الأوس والخزرج، وغدا أكثر قوة ومنعة.

من جانب آخر، لم يكن اعتقاد اليهود بظهور النبي مستغرباً، إذ إن التباشير، كما أسلفنا، كانت متردّدة في الجزيرة، وقد تحولت، عبر الأزمان، إلى اعتقاد شبه راسخ، بل تفاؤل مبرّر لدى اليهود خصوصاً. والغريب في الأمر، أنّ اليهود كانوا أكثر تمسّكاً بهذا الاعتقاد، إلى درجة أنه عندما كانت القبائل العربية تتمرّد عليهم، كانوا يهدّدونهم بالقول: «إن نبياً سيبعث الآن وقد أطل زمانه، سنتبعه ونقاتلكم معه قتل عادٍ وإرم»[56].

والمفارقة، أن اليهود الذين كانوا ينتظرون ظهور النبي أكثر من غيرهم، تنكروا للرسول بعد ظهوره، ومع الإقرار الصريح بأنه هو النبي. قائلين بأنه ليس هو النبي المنتظر! هكذا، كانوا ينتظرون نبياً من اليهود يقاتلون به العرب. وكأنهم لم يكونوا ينتظرون النبي، إلا لكي يقاتلوا العرب به!

لكنّ الآية الكريمة تقدم السبب الحقيقي للتنكر للرسول: [وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (42) إِسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (43)] [فاطر 42-43]. صدق الله العظيم.

ويذكر جيورجيو، أنه عندما رأى اليهودُ، في البدء، توجه مسجد قباء نحو بيت المقدس، ولاحظوا أنّ القرآن يعتني بذكر الأنبياء السابقين كإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، ظنّوا أنّ مُحَمَّداً سيتبع دين موسى. اعتقاداً منهم أن الأنبياء إنما يبعثون من شعبهم المختار. وحين كان مُحَمَّد (ﷺ) مشغولاً مع المسلمين ببناء مسجد قباء، زاره عدد من أحبار اليهود، ليعرفوا منه إلى أي حدّ سوف يقبل دين موسى؟!

وقالوا له: ما الهدى إلا ما نحن عليه[57]، إن كنت يا مُحَمَّد تريد أن تكون نبياً فعليك أن تتهود أولاً! لأنّ الله خصّ أنبياءه منا، لأننا شعب الله المختار. فردّ الرسول (ﷺ) عليهم أنه ليس بمشيئته أن يكون نبياً، بل الله بعثه. والناس في نظر الخالق متساوون، ولا يفضل قوماً على قوم. وهو الذي يختار من يخاطب من الناس ويبعثه.

ثم قال لهم الرسول الأكرم، إنهم لا يمتازون عن البشر الآخرين بشيء، ولم يفضلهم الله على غيرهم. وإنهم جميعاً متساوون[58]. ونزلت الآية تقول: [وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ] [البقرة 135].

وعندما أيقنوا أنّ مُحَمَّداً (ﷺ) رسول بعث بشرائع جديدة، منها ما يثبت الشرائع القديمة ومنها ما ينسخها، قرر اليهود الوقوف في وجهه، ومحاربته سرّاً وعلانية، وبكل الوسائل الممكنة. ودشنوا حروبهم بالشائعات الجاهلة والمتوترة للإضرار بالدعوة الإسلامية.

ومنها، على سبيل المثال، أنهم أشاعوا في البدء أن المرأة اذا أسلمت فلن تحمل! يبقى أنّ ثمة يهوداً حقيقيين، سيكون لهم موقف إيماني مغاير للأغلبية منهم، إذ لم يروا في رسالة مُحَمَّد (ﷺ)، إلا امتداداً لرسالة أخيه موسى عليه السلام.

ويمكن لقصة إسلام عبدالله بن سلام أن تختصر لنا مواقف اليهود إجمالاً من الرسول. كان عبدالله بن سلام حبراً عالماً مشهوراً من علماء اليهود، وكان يتمتّع بمكانة خاصة لديهم، وعندما سمع عن وصول النبي إلى قباء، وكان في مزرعته مع عمّته، خالدة بنت الحارث، قال: الله أكبر.

وما أن سمعت عمته التكبير حتى ردت عليه قائلة: خيبك الله! والله لو كنت سمعت بوصول موسى بن عمران ما زدت. فقال لها: يا عمتي، هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بُعث بما بُعث به. فقالت: يا ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نبُشّر به؟ فقال لها: نعم. فقالت: فذاك إذاً!

«أفشوا السلام والمحبة»

ذهب عبدالله بن سلام ليقابل النبي، ويتحقق من نبوته! وعند وصوله إلى ساحة المدينة، سمع نبي السلام يتحدث في أول خطبة له فيها، قائلاً: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنّة بسلام». كانت أول دعوة للرسول في ساحة المدينة، الدعوة إلى نشر السلام. فالله هو السلام. هو «الملك القدوس السلام». وتحية أهل الجنة السلام. بالسلام وبالمحبة افتتح أول اتصال له بسكانها.

ولينتشر السلام والمحبة في المدينة. لينتشر السلام والحب، حيث يصل الإسلام. لكن ليبدأ أولاً، بالقلوب المؤمنة، لأنّ الله هو السلام. وعندما يسكن الله في قلب المؤمن الحق، يشع السلام. وهكذا سيقول الرسول الأكرم في خطبة ثانية: «قد أفلح من زينه الله في قلبه(...)، أحبوا ما أحب الله. أحبوا الله من كل قلوبكم».

يقول عبدالله بن سلام: عندما نظرت إلى وجهه عرفت أنه ليس بوجه كاذب. وحالاً أشهر إسلامه، فقال له: أشهد أنك نبيّ الله حقاً، وأنك جئت بالحق. فالتفت النبي إليه وسأله: «ما اسمك؟». فقال: الحصين بن سلام. فردّ عليه النبي قائلاً: «بل، عبدالله بن سلام!» قال، فقلت: نعم يا رسول الله، عبدالله بن سلام! والذي بعثك بالحق ما أحب أن يكون لي اسم آخر بعد اليوم.

كان عبدالله بن سلام، من الراسخين في العلم، ومن أحفاد النبي يوسف عليه السلام، وأصبح من صحابة الرسول المقربين. وهو أول اليهود الذين أدركوا الترابط الحقيقي بين موسى ومُحَمَّد. ويؤكد القرآن الكريم: [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] [البقرة 146].

عبدالله بن سلام ربما الوحيد، في التاريخ الإسلامي، الذي سيعرف بلقب «الإمام الحبر». أسلم هذا العالم الجليل وتغيّر اسمه، في لمحة بصر. وبمجرد أن رأى وجه النبي يفيض بأنوار النبوة آمن به. ومن البيّـن أن الله قد أحبه واختاره ليكون من رفاق النبي في المدينة.

واللافت، أنّ عبدالله بن سلام وفي أول لقائه الرسول (ﷺ)، قد حذّره من الثقة باليهود. قائلاً له: إنهم قومٌ بُهْتٌ، أي أهل باطل. وهم يعلمون أني سيدهم وأعلمهم. فادْعُهم، وسلهم عني، قبل أن يعلموا أني قد أسلمت. فإنهم إن علموا أني أسلمت، قالوا فيّ ما ليس فيّ! ومن يمكنه أن يعرف طبائع اليهود أكثر من حبرهم؟

وفعلاً، دعا النبي (ﷺ) اليهود إليه. فقال لهم: «يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم تعلمون أني رسول الله حقّاً، وأني جئتكم بحقّ فأسلموا». ثم قال لهم: «أيُّ رجلٍ الحصينُ بن سلام فيكم؟».

فقالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا. فلما فرغوا من قولهم، كما يقول عبدالله نفسه: خرجت عليهم، فقلت لهم: يا معشر اليهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به. فوالله، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وتجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته. فإني أشهد أنه رسول الله، وأؤمن به وأصدقه.

فقالوا: كذبت! وقال عبدالله بن سلام لرسول الله: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم أهل كذب وفجور؟! ويختم عبدالله قصته قائلاً: أظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، كما أسلمت عمتي خالدة بنت الحارث[59].

كان إسلام عبدالله بن سلام حدثاً كبيراً في المدينة. وبقدر ما أسعد إسلامه المسلمين، فقد أضعف حجج اليهود المتنكرين للرسول ورسالته. ولذلك يكتب ابن قيّم الجوزيّة قائلاً: لو لم يسلم من

اليهود في زمنه، إلا سيدهم وعالمهم الحبر عبدالله بن سلام، لكان كافياً مقابل كل يهود الأرض. فما بالك وقد تبعه على الإسلام من الأحبار والرهبان من لا يحصي عددهم إلا الله[60].

إذن، من يتمسّك بحقيقة دينه، أكان يهودياً أم نصرانياً، فهو مسوق، إيمانياً، بأن يؤمن بمُحَمَّد (ﷺ) ورسالته. وتؤكد ذلك الآية الكريمة: [لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا] [النساء 162].

وهناك العديد من قصص اليهود الأحبار الذين حاولوا التحقّق من نبوة مُحَمَّد (ﷺ)، كلٌّ بطريقته، ثم أسلموا. وأشهرها قصة زيد بن سعنة. كان هذا الحبر يقول: ما بقي من علامات النبّوة إلّا عرفته في مُحَمَّد(ﷺ)، إلّا اثنتين: يسبق حلمُه جهلَه، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلماً. يسبق حلمه جهله بمعنى، أنه يبقى حليماً حتى وهو يجهل سبب تصرف من يقصده.

فافتعل زيد بن سعنة مشهداً، وجاء يتقاضى ديناً له على النبي (ﷺ)، علماً أن أجل سداد الدين لم يحن بعد، فأمسك بالنبي من ملابسه ولفها حول عنقه وكاد يخنقه، وقال مغلظاً القول: إنكم يا بني عبد المطلب قومٌ مُطْلٌ! فغضب عمر من تصرّف هذا اليهودي ووقاحته، كيف يتجرأ على النبي، وهو في مسجده، وبين أتباعه؟ فنهره وشهر سيفه مهدّداً بقتله.

ولكنّ النبي (ﷺ) ظل هادئاً يبتسم. لم تظهر عليه علامة الغضب أو حتى الاستياء من هذا التصرف الشائن. وبحلمه المعهود، قال موجّهاً كلامه إلى عمر: «أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر؛ تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي». ثم أضاف: «لقد بقي من أجله ثلاث»، أي لقد تبقى ثلاثة أيام عن التاريخ المقرّر لدفع الدين. ومع ذلك أمر عمر أن يدفع له ماله، ويزيد عليه عشرين صاعاً، أي عشرين في المئة، بسبب ترويع عمر له![61].

وهذا مشهدٌ واحد من مشاهد حلم الرسول وخلقه النبوي في التعامل مع المسيئين إليه. وهو أحد المشاهد التي ترينا تربية الله فيه. وعندما خرج اليهودي مع عمر، أخبره بأنه كان يمتحن الرسول ليرى مدى حلمه، وأشهر إسلامه. وقيل إنه تبرّع بدينه، الذي أتى يطالب به، لفقراء المسلمين.

وإذا كان في قصة الحبر زيد بن سعنة ما يدلل على حلم الرسول وتسامحه، فإنّ في قصة صفية بنت حييّ، وهي اليهودية التي أسلمت وتزوّجت الرسول، ما يبين عمق العداوة التي سيحملها اليهود للنبي والمسلمين في المدينة. وهذه شهادة أخرى لها أهمّيتها ودلالاتها التاريخية.

العداوة الصريحة

تشير كتب السيرة إلى أنّ صفية رضي الله عنها، كانت تصف أباها وعمّها بعد أن عادا من زيارة لقباء، كانت الغاية منها التحقق من حقيقة النبي مُحَمَّد وصدق دعوته. فتقول: لقد رجعا فاترين، كسلين، يمشيان الهوينا، فسمعت عمّي أبا ياسر، يقول لأبي: أهو هو؟ فقال: نعم والله. فسأله: هل عرفته بنعته وصفته؟ فردّ قائلاً: نعم والله! فقال : فماذا في نفسك منه؟ فردّ: عداوته والله ما بقيت![62].

مع معرفتهم به، وإقرارهم بأنه هو رسول الله المنتظر، لم يكن لمبعوث السماء في نفوسهم إلّا العداوة، بل الإصرار عليها ما بقوا على قيد الحياة! علماً أنّ مُحَمَّداً، قد توسّم فيهم خيراً، فهم أهل كتاب. وكان يأمل منهم تقبل رسالته، لأنها لم تأتِ إلا ليتمم بها رسالات الأنبياء من قبله.

ويقول الله تعالى: [قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ] [عمران 84].

تعامل الرسول معهم بأخلاق الأنبياء، لكنّهم لم يرحّبوا بدعوته، وقابلوها بالصدّ والإنكار، بل والتآمر. وسيستمر هذا النهج، الصريح حيناً، والمبطن غالباً، حتى يتمكّن المسلمون أخيراً، من إبعاد خطرهم على الدولة الإسلامية في المدينة أولاً، ومن ثم سيكسر قوتهم في خيبر، ليضمن المسلمون الأمن والاستقرار في دولتهم الجديدة.

رفضت أغلبية اليهود التصديق بالرسول. وقال من كفر منهم: ما آمن بمُحَمَّدٍ ولا اتبعه إلّا أشرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا لغيره! لكنّ الصحيح هو عكس ذلك تماماً. فالحبر عبدالله بن سلام، مثلاً، كان من خيار اليهود، ولم يفعل بإشهار إسلامه إلا اتباع تعاليم النبي موسى عليه السلام، فهو الذي يأمره بأن يتبع النبي الذي سيأتي بعده، وأن يكون مسلماً.

والله عزّ وجلّ يعلم بنيّاتهم، ويقول: [فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ] [عمران 20].

فضلاً عن ذلك، وكما يقول البوطي، فقد كان من شأن العدالة، التي دونتها وثيقة المدينة، والتي اتسمت بها معاملة النبي (ﷺ) مع أصحاب المعتقدات الأخرى، أن تؤتي ثمارها وتؤسس لعلاقة سلام تاريخية بين اليهود والمسلمين. فقد مدَّ الرسول يد الصلح إلى اليهود. ضمن لهم السلام. ضمن لهم حقوقهم ومصالحهم. ضمن لهم كرامتهم ومكانتهم في المدينة. ووثق كل ذلك في وثيقة تاريخية معروفة.

لكنّ طبيعة اليهود وروح العداء لديهم تغلبتا على منطق العقل والتسامح والدعوة إلى السلام الدائم بين الأديان. فما هي إلا فترة وجيزة حتى تنكروا لبنود الوثيقة التي التزموا بها، فخرجوا على الرسول والمسلمين بصنوف من المكر والخيانة. وعليه فقد صار المسلمون في حلٍّ مما التزموا به تجاههم[63].

والحال، أنه حتى مع معايشة اليهود للعرب في الجزيرة العربية، طوال قرون، فقد احتفظوا بمواقفهم العنصرية تجاه العرب عموماً، وعرب الجزيرة خصوصاً. وقد رأى اليهود في الوحدة والتآخي بين القبائل، التي أتى بها الإسلام، تهديداً لنفوذهم في المدينة. وشعروا بأنهم قد فقدوا سيطرتهم على القبائل تماماً، ومن شأن ذلك أن يؤدّي إلى إضعاف مكانتهم والحد من نفوذهم في الجزيرة بأكملها.

وحّد الإسلام ما فرّقته الجاهلية. وجعل من العرب وحدة متراصة الصفوف خلف رسولهم، وانتقلوا من حالة الضعف إلى حال القوة والعزة. وكان المسلمون في منعة من كل صنوف الشرور، طالما تمسكوا بتعاليم رسولهم وساروا على خطاه. وقد كان أول عمل عدائي قام به اليهود، هو محاولاتهم إعادة الشقاق والتناحر بين الأوس والخزرج، ودفع القبائل مجدداً إلى منطق الجاهلية ونزاعاتها.

فجمع اليهودي شاس بن قيس الفريقين وأدخل بينهما من يحفّز شعراءهما بإلقاء القصائد التي تمجد بطولات كل قبيلة وتشهّر بالأخرى. وشيئاً فشيئاً، وعلى وقع القصائد، تلبدت غيوم الجاهلية.

وكاد شاس يوقظ العصبية القبلية التي أطفأها الرسول بحكمته. فشُهِرَ السلاح، وأوشكت أن تنفجر الفتنة بينهما من جديد.

فما أن سمع الرسول (ﷺ)، بما حدث، حتى توجه مسرعاً إلى حيث كانوا مجتمعين، قائلاً لهم: «يا معشر المسلمين! الله.. الله.. أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم، بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه؟!». كانت تلك الكلمات المُحَمَّدية كفيلة بانتشالهم قبل سقوطهم في فخ الفتنة.

وسريعاً استفاقوا على كيد الأعداء، فتذكروا حرب بُعاث المشؤومة وجراحها العميقة. وتذكروا أنهم أصبحوا، بفضل من الله، أخوة، وضمن لهم نبيّهم السلام والتضامن. فأُغمد السلاح الذي شُهر، وعانق بعضهم بعضاً وهم يبكون. وأد الرسول الفتنة في مهدها، وعادوا معه إلى مسجدهم ورشدهم.

ونزلت الآيات الكريمة في سورة آل عمران تخاطب اليهود: [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ] ثم تتوجه الآيات التالية إلى المؤمنين، بقوله الله تعالى:

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (100) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (101) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)]

فضلاً عن ذلك، ما فاقم عداوة اليهود تجاه المسلمين أكثر هو تغيير القبلة من القدس الشريف إلى مكّة المكرّمة؛ فبعد هجرة النبي بسبعة عشر شهراً[64]، أتى الأمر الإلهي لتغيير قبلة المسلمين. ونزلت الآية تؤكد ذلك: [قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ] [البقرة 144].

تُبيِّن الآية أنّ الرسول لم يكن راضياً باتجاه قبلة المسلمين إلى بيت المقدس، وهجر البيت الحرام، بيت جده إبراهيم عليه السلام. فأتت مجموعة من اليهود لرسول الله فقالوا له: ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟!

فأنزل الله تعالى قوله فيهم: [سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا ولاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] [البقرة 142].

والحال، أنه بقدر ما انزعج اليهود من تغيير القبلة، فقد سُرّ المسلمون بذلك سروراً عظيماً؛ إذ كان لذلك القرار الربّاني تأثير معنوي بالغ في نفوسهم. فبإعادة ارتباطهم بالتراث الديني والروحي لأبي الأنبياء سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وجد المسلمون هويّتهم الدينية والثقافية الخاصة بهم، واستعادت مكّة المكرّمة مكانتها المقدسة في الوجدان الإسلامي.

دور المنافقين

مررنا على بعض النماذج من تعامل وسلوك اليهود تجاه المسلمين، التي سيتوجب على المسلمين مواجهتها في المدينة. وسنرى ذلك أكثر طوال مسار السيرة النبوية الشريفة. فبعد قريش، تحول اليهود إلى ألدّ أعداء الرسول (ﷺ) وأتباعه. ومن جهة أخرى، سيلعب المنافقون، وهم المجموعة الثالثة، دوراً سيئاً وخطراً على المسلمين في المدينة، ذلك لأنهم كانوا يعملون تحت المظلة الإسلامية، ويحركهم اليهود من الخلف.

وقد انضوى في إطار المنافقين بعضُ اليهود والمشركين، وشكلوا كتلة خبيثة داخل البناء الإسلامي، لكنهم كانوا مكشوفين، [إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ] [المنافقون 1].

تظاهروا بإسلامهم وما كانوا بمسلمين، كانوا يعيشون مع المسلمين، يصلّون ويصومون معهم، ويحتفلون بأعيادهم، لكن ليس إيماناً، بل نفاقاً، كان الهدف منه إضعاف الإسلام من داخله. والمنافقون أشرار حقاً، ولذلك وعد الله بوضع المنافقين في الدرك الأسفل من النار.

وكان على رأس هذه المجموعة زعيم المنافقين الخبيث، المعروف في التاريخ الإسلامي، عبدالله بن أُبَـيّ بن سلول، وهو مشرك من الخزرج. وكان قد أقنع القبائل، بعد انتهاء حرب بُعاث،

في السنة الخامسة قبل الهجرة النبوية، بتنصيبه ملكاً على الأوس والخزرج في المدينة.

بيد أنه بدخول المسلمين إلى المدينة ألغيت العهود والوعود القبلية القديمة تلقائياً، وزالت معها مخططات زعمائها. فقد اتحد الأوس والخزرج تحت المظّلة الإسلامية، وخضعوا لسلطة الحق والعدل والمساواة التي شيدها رسولهم الأكرم، وأصبحوا من صحابته المقربين. ولم يعودوا في حاجة إلى ملوك وجبابرة ليحكموا بهم.

ولنتذكر، أنه بحكمته قد وحدهم بعد حرب مدمّرة تجاوزت القرن. ولم يذوقوا طعم الأمن والسلام إلا بعد دخولهم الإسلام، فلم يعد الطرفان في حاجة إلى تمليك أحد عليهما. وهكذا، سقطت التحالفات الجاهلية والمصالح القبلية البائدة.

وتحول عبدالله بن أُبَـيّ، الذي شعر بأنّ النبي قد أفقده منصبه، إلى خصم معلن للنبي، سيخوض صراعاً خبيثاً مستتراً تارة، ومعلناً أخرى، ضد المسلمين. لكنه كان مكشوفاً من الجميع. وقد قّدر الله أن يسلم ابنه المسمَّى أيضاً عبدالله بن عبدالله بن أُبيّ، ويكون من صحابة الرسول المقربين. وكان شاباً، شجاعاً، ويتمتع بشخصية قوية.

وبقدر ما كان متفانياً في حب الله ورسوله، كان خصماً عنيداً لوالده. وستبيّن لنا قصة عبدالله بن أبُيّ، مسألتين هامتين؛ أولاً، مدى عمق الصراع مع أعداء الإسلام من المنافقين. وثانياً، مدى حكمة الرسول (ﷺ) وسعة حلمه في تعامله مع من يناصبونه العداء سراً وعلانية.

وستكشف لنا مناسبتان مختلفتان الغطاء كاملاً عن حقيقة المنافقين، ودور زعيمهم، في محاولة ضرب الإسلام من الداخل. كانت الأولى، وهي الأخطر، إبان دخول المسلمين، في السنة الثالثة من الهجرة، الحرب ضد قريش في أُحد. وذلك عندما شق عبدالله بن أُبَيّ جيش المسلمين، وتراجع مع قرابة الثلاثمئة من أصحابه، أي ثلث جيش الرسول، عن معركة أُحد، وفي لحظة خروج المسلمين للمعركة.

وكاد ذلك العمل الجبان، الذي أضعف قوة المسلمين كثيراً، أن يوقع بهم هزيمة كبرى. وستأتي الثانية، كما سنرى، في السنة الخامسة من الهجرة، إبان خروج الرسول لقمع تمرد بني المصطلق .

الفصل السادس

الحروب على المسلمين

معركة بدر

لنبدأ بالقول أولاً، إنّ السيرة النبوية الكريمة ليست المغازي والحروب. ورسول الرحمة والسلام لم يرسل إلا مبشراً وهادياً وداعياً إلى الله، وليس محارباً. وحياته النبوية القصيرة تركت لنا سيرة غنية بالإنجازات المذهلة، فكان معلماً، مربّياً، هادياً، حكيماً وسراجاً منيراً.

وخلال العقدين، تمكن من بناء أمته، علماً وفكراً وثقافة. صاغ وجدانها، وبنى أخلاقها وقواها الدينية والروحية، وأسس حضارتها الإسلامية القائمة على العزة والكرامة. ثم علمها كيفية التعامل مع أعدائها في الحرب والسلم.

وعليه، فالحروب، التي فرضت فرضاً على المسلمين، ليست إلا جزءاً محدوداً من السيرة. فمعركة بدر، كما سنرى، لم يكن الهدف منها أساساً محاربة قريش، بل انقلبت إلى اصطدام معهم. وكذلك معركة أُحد، التي كانت نتيجة اعتداء قريش على المسلمين، وليس العكس.

والأمر ذاته سيتكرر في معركة الخندق. حيث أتى تحالف قريش واليهود بجيش قوامه عشرة آلاف رجل، وفرض على المدينة حصاراً خانقاً، كان الهدف المعلن له هو إبادة المسلمين في مدينتهم.

وجدير بالذكر هنا، أنّ كل الأيام التي قضاها المسلمون في حرب المشركين في الجزيرة، خلال العشرين عاماً من حياة الرسول، لم تتجاوز العشرة أيام، أو الأسبوعين على أكثر تقدير. وأنّ

مجموع الضحايا من الطرفين، المسلمين والمشركين، وفي كل الحروب مجتمعة، لم يتجاوز الأربعمئة رجل أو قل خمسمئة رجل، كحد أقصى. وهنا، نحن نستثني حروب التحرير من الاحتلال الفارسي للعراق، والرومي لسوريا، والتي ستأتي بعد رحيل الرسول (ﷺ).

وتوخّياً للدقة، علينا الحذر من الخلط بين بعض المصطلحات، مثل «الغزوة»، المستعمل آنذاك، بمدلولاتها الإيجابية، والتي لا تعني إلا مشاركة الرسول في المعركة، وبين المدلول اللغوي العصري للغزو، الذي يعني الاعتداء. فحسبنا أخذ الحيطة والحذر من الخلط في المصطلحات. فيتوجب علينا أخذ المعطى التاريخي والزماني، بلغته ومصطلحاته، في الاعتبار. إذ كان المقصود بالغزو في السّيَرة النبوية، هو المعارك العسكرية لمواجهة الاعتداء على المسلمين.

والمعروف أنّ ثمة تسميتين للحملات العسكرية؛ «السَّريَّة» و«الغزوة»، وقد اصطلح المؤرّخون المسلمون على تسمية كل معركة بين المسلمين والمشركين وحضرها النبي (ﷺ) بنفسه «غزوة»[65]. أما «السَّريَّة»، فهي تلك الفرقة الصغيرة والدوريات التي تخرج لحفظ الأمن وإخماد بعض التمردات القبلية المناوئة للدولة الإسلامية.

سنكتفي بإلقاء الضوء على أهم المعارك التي مثلت المحطات الرئيسة في السِّيَرة النبوية، والتي كان من شأنها أن تنعكس على تطور التاريخ الإسلامي المبكر. وستكون «غزوة بدر»، في السنة الثانية للهجرة، أول معركة فرضت على المسلمين في التاريخ الإسلامي.

ومع أن معركة بدر قد فرضت على المسلمين، ومع الاختلال الكبير في القوة لصالح الأعداء، قريش، إلا أن المسلمين انتصروا فيها نصراً كبيراً. وعلى ضوئها، ظهر المسلمون كقوة وازنة لها مكانتها على ساحة الجزيرة. وقد مثلت تلك المعركة الحاسمة، كما معركة الخندق، مدرسةً بالغة الدلالة في التاريخ الإسلامي المبكر.

والحال، أنه بعد ثلاثة أعوام من تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة، تجمّعت كل الأسباب لانتقال الإسلام إلى مرحلة الحزم. لنتذكر أن المسلمين قد أُجبروا على الهجرة وترك مكّة. وقد جُرّدوا من أملاكهم، وصودرت أموالهم، وفصلوا عن أقاربهم. وقبل ذلك، واجهوا على مدى الثلاثة عشر عاماً، مختلف صنوف الاضطهاد والتنكيل والتعذيب.

وفي محاولة لتعويض شيء من أملاكهم المصادرة، أقرّ النبي معاقبة قريش بمصادرة بضائعهم التجارية، المجلوبة من الشام إلى مكّة، أو العكس، والتي تمر قريباً من المدينة. وقال الرسول لأتباعه: «هذه قافلة قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يُنْفِلُكموها»، أي لعل الله يعوضكم شيئاً من أملاككم.

خرج المسلمون بقوة تعدادها ثلاثمئة رجل، لقطع الطريق على قافلة كبيرة قوامها ألف جمل. وكان على رأسها أبو سفيان شخصياً. وعندما سمع الأخير عن خروج المسلمين، بعث برجل إلى مكّة ليبلغهم بالخطر الداهم، ويطلب منهم جيشاً للدفاع عن القافلة.

وفعلاً، جهزت قريش ألف رجل، وخرجت لتحمي قافلتها من المصادرة. وتذكر السَّيَر أنّ القافلة التجارية اتخذت مساراً آخر ونجت من الوقوع في يد المسلمين. وتم إبلاغ قوات قريش بذلك، وبزوال الخطر عن القافلة التجارية، كان يفترض من قوات قريش أن تعود أدراجها إلى مكّة. لكن قادة هذه القوات قرّروا الاستمرار في السَير حتى منطقة بدر. وذلك، كما قالوا، لقضاء عدة أيام للاحتفال بسلامة القافلة، ولإظهار قوتهم الضاربة للقبائل العربية.

لم يخرج المسلمون إلى القتال، بيد أنه مع تغيُر الأحداث ومعها المآلات والأهداف، أدرك الرسول آنئذ، أنهم لا محالة سيضطرون لمواجهة جيش قريش القوي. خصوصاً أن الله قد أذن للمسلمين بحرب من يحاربهم: ((أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)) [الحج 39-40]).

أَذِنَ الله للذين يُقَاتلُون والذين ظُلمُوا وأُخرجوا من ديارهم بأن يُقَاتلُوا أعداءهم. أُذِنَ لهم بالدفاع عن أنفسهم، وعن دينهم، وليس للاعتداء على أحد. بيد أن الرسول استدرك آنئذ، بأن التعهد الذي وقعه مع الأنصار في «العقبة»، عند مبايعتهم له، قبل الهجرة إلى المدينة، لا يلزمهم بالمشاركة في حروب المهاجرين خارج المدينة المنوّرة. فالتعهد لم ينص، إلّا على حماية الرسول والمهاجرين من أي اعتداء عليهم في المدينة.

وكما نعلم، لم يكن من نهج الرسول فرض آرائه على أتباعه أو إلزامهم بأمر ما، دون التشاور معهم، وأخْذ آرائهم قبل الإقدام على العمل. فالشورى، كما أسلفنا، أمر إلهي ملزم، وسمة راسخة في نظام الحكم في الدولة الإسلامية. وباحترام الرسول لآراء أتباعه، والالتزام بقراراتهم، كان يضرب لهم المثل الحي للتقيد بنظام الحكم العادل وجوهره.

توجه الرسول (ﷺ) إلى رجاله قائلاً: «أشيروا عليّ أيها الناس!». فردّ المقداد بن عمرو، أحد المهاجرين، قائلاً: يا رسول الله! والله لن نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون!». ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون![66].

سر بنا على بركة الله

وحينئذ أدرك سعد بن معاذ، وهو أحد مبايعي الرسول على تعهد العقبة، أنّ الرسول كان يرغب، أساساً، في معرفة رأي الأنصار في الأمر. فقال: يا رسول الله قد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمْع والطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك. ما تخلف منا رجل واحد. لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك. فسرْ بنا على بركة الله[67].

أدخل موقف هذا الفارس السرور إلى قلب الرسول. فإلى جانب تأكيده الوحدة الإسلامية، ووحدة المصير، وفّر سعد بموقفه المشرف شرطاً ضرورياً من شروط الانتصار على أعدائهم. إذ لم يكن ممكناً دخول المهاجرين، في معركة ضد قريش والانتصار فيها، دون مشاركة الأنصار.

والوقع، أنه حتى مع مشاركتهم، لم تكن المعركة متكافئة تماماً، لا عدداً ولا عتاداً. حيث ضم جيش الرسول قرابة الثلاثمئة رجل من الحفاة، وأنصاف العراة، والجياع. يقابلهم ألف رجل من المشركين المدجّجين بالسلاح والعتاد، وكل ما تحتاج إليه جيوش ذلك العصر من مؤن وإسناد ودعم، وعلى رأسه كل قادة قريش وزعمائها.

يبقى أنّ الفارق الأكبر كان معنوياً: كان في الإيمان العميق وروح التضحية، وهذا سر انتصار المسلمين الدائم. كان الجيش الإسلامي جيشاً عقائدياً، متماسكاً، يدافع عن كلمة الله على الأرض. يطلب رجاله الآخرة، ويتقدمون بصدورهم العارية راجين إحدى الحسنيين؛ إما النصر وإما الشهادة. فكلاهما نصر، وكلاهما شهادة لله.

والأهم أنّ الله معهم. أما جيش قريش، فكان على النقيض تماماً؛جيش مشركين يحارب لمصالح خاصة، وكبرياء في الأرض، يدافع عن أوثان ومعتقدات جاهلية، وقلوبهم مفرغة من المثل العليا، التي تغذي الإنسان بعناصر العزة والقوة المعنوية.

صادفت غَرّة بدر ليلة الجمعة، ولم ينم الرسول تلك الليلة، استمر يصلي ويتضرّع بكل وجدانه إلى الله حتى مطلع الفجر. يدعو من ربه المدد والنصر. كان الرسول (ﷺ) يدرك أنّ المعركة ستغير مجرى التاريخ، فإن هُزم المسلمون في أول معركة ضد أعدائهم المشركين، فسيكون من الصعب أن تقوم لهم قائمة بعد ذلك.

كانت أول معركة للمسلمين مع المشركين. ومن شأن نتائج المعركة أن تحدد بالضرورة ما بعدها. ونجد في تضرّعه ما يوحي بقلقه حيال مصير الإسلام وأتباعه. وخصوصاً أنهم لم يأتوا للمعركة ولم يكونوا مستعدين لها أساساً. كان هدفهم شيئاً آخر تماماً. وكان من دعائه: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلكْ هذه العصبة (أي هذه الفئة القليلة المؤمنة)، لا تعبد في الأرض».

وردّ الله تعالى مطمئناً رسوله، بقوله: [إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ] [الأنفال 9] ، و[إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ] [الأنفال 12]. عندها أدرك الذين آمنوا بأن الله قد قبل الدعاء وبعث لهم المدد الضروري.

وشعر المسلمون بأن الله حاضر معهم في كل لحظة من لحظات المعركة. كان الدرس الأول للمسلمين هو أنّ مفتاح النصر يكمن في الرجوع إلى الله أولاً، في التضرّع إليه، في التشديد على التوحيد وأنه هو وحده المسير للأمور ومقدرها بحكمته. ومن يعلم ذلك أكثر من رسوله؟

يبقى أنه إذا كان تخوف المسلمين من الهزيمة مبرّراً، كونهم الجيش الأقل عدداً وعتاداً، ولا يشكلون إلا ثلث جيش الأعداء، فخوف قادة قريش من المعركة كان مستغرباً حقاً. والحال، أنهم لا يفتقدون الشجاعة، لكنهم عندما رأوا أنّ معظم جيش المسلمين من الحفاة، وشبه العراة، وليس معهم إلا سيوفهم، كشف لهم هذا المشهد الجهادي، روح التصميم والإرادة العالية لدى المسلمين.

وأدخل الله الرعب في قلوبهم، وخرجوا بمعادلة مؤدّاها أنه حتى لو تمكنّا من قتل كل أفراد جيش المسلمين، فإن المقاتل المسلم لن يموت قبل أن يقتل رجلاً أو رجلين من رجالنا. فأيّ نصر

سنكسب إذا قتل ثلث جيشنا؟!

بتسرب الخوف إلى قلوبهم، كسب المسلمون نصف المعركة قبل دخولها. فضلاً عن أنّ حكيم قريش عتبة بن ربيعة كان ضد الحرب أساساً، وقد حاول إقناع أبي جهل، قائد جيش قريش، بإعادة النظر في الأمر والتراجع عن قرار الحرب. لم يكونوا جبناء، لكنهم أدركوا أنّ تكلفة النصر، إذا كان ثمة نصر، ستكون عالية جداً.

إلّا أنّ قائدهم أبا جهل، المتشجع للحرب، اتهم الحكيم بالجبن. وأقسم بأن لا يعود إلى مكّة حتى يقاتل المسلمين، ويحكم الله بيننا وبين مُحَمَّد، على حدّ تعبيره[68]. والله عز وجل سيحكم بينهم فعلاً، وسينصر المسلمين على المشركين نصراً كبيراً.

ومع بزوغ فجر الجمعة، بدأت المعركة والتحم الجيشان. كان شعار المسلمين التشديد على الوحدانية: «أحدٌ.. أحد». وقد وعد الرسول أتباعه بالنصر المؤزر، وللشهداء جنة الفردوس؛ قائلاً : «والذي نفس مُحَمَّد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلّا أدخله الله الجنة».

وللدلالة على إرادة المسلمين وشجاعتهم، تُذكر في هذا السياق قصة عمير بن الحمام المعبّرة جداً؛ كان عمير، هذا الفقير الجائع، جالساً يأكل بعض التمرات، وعندما سمع حديث الرسول، شعر بأن الجنة في متناول يده، فقال: إذن، ليس بيني وبين الجنة إلّا الشهادة. ولئن أنا حييت حتى أكمل أكل تمراتي هذه فإنها لحياة طويلة! فرمى التمرات من يده، وأخذ سيفه يقاتل حتى استشهد![69].

بهذه المعنويات قاتل المسلمون. وانقض جيش الحفاة على جيش المشركين المدجّج بالسلاح والعتاد. وعند الظهر، بعد التحام متواصل مع الأعداء، انتهت المعركة بانتصار حاسم على المشركين. انهزم جيش الأعداء القوي في أقل من ست ساعات. وكانت النتيجة قتل سبعين رجلاً من قريش وأسر سبعين آخرين. وكان من جملة ضحاياهم كبار زعمائهم وقادتهم.

فقُتل قائد الجيش التاريخي أبو جهل، وقُتل إلى جانبه حكيم قريش عتبة بن ربيعة. وعندما أخبر الرسول بقتل أبي جهل، قال: «الله لا إله إلا هو» ثلاث مرّات، ثم ذهب ليرى جثته. وعندما رآه قال: «الحمدلله الذي أخزاك يا عدو الله. هذا كان فرعون الأمة!». وقد مثل سقوطه انهيار أكبر قلاع الجاهلية والشرك.

مُني جيش المشركين بضربة كبيرة لم يكن يتوقّعها من أولئك القلة الحفاة. ولم يخسر المسلمون إلّا أربعة عشر شهيداً وبعض الجرحى. وفي حين كانت قريش تستقبل أخبار هزيمة جيشها بالذهول، استقبلت المدينة جيشها الظافر بالدفوف والأناشيد. كان نصراً مدويّاً وضروريّاً لرفع معنويات المسلمين وراية الإسلام على خريطة الجزيرة.

مثل ذلك انتصار القلة على الكثرة، وانتصار الفقراء على الأغنياء، وانتصار الحفاة والضعفاء على الأقوياء. لكنه جوهرياً كان انتصار الإيمان على الشرك. وبتحقيق هذا النصر المؤزر، وفي معركة سريعة، انتقل المسلمون من حالة الضعف إلى حال القوة المعنوية والعسكرية. لكنهم أيقنوا أنّ النصر لم يكن إلا بالله وبإيمانهم الراسخ.

الأسرى: التعليم مقابل الحرية

عاد جيش الفقراء إلى المدينة منتصراً ومعهم الأسرى. وأمر الرسول أتباعه بالإحسان إليهم ومعاملتهم معاملة طيبة، لا يهانون أو يعذّبون، ولا حتى يجرحون بكلمة غير لائقة. لقد منع أي معاملة لا تليق بإنسانيتهم. فالتعامل مع الآخر، في الإسلام، هو، جوهرياً، التعامل مع الله.

بمعنى أن الله يجب أن يكون راضياً، مقراً لتعاملك كمسلم مع الآخر، أياً كان هذا الآخر؛ مسلماً أو كافراً. فما بالك إذا كان الآخر أسيراً مقيداً بين يديك! تلك هي من ثوابت الإسلام قيماً وأخلاقاً. بالطبع، لم تكن ثمة قوانين مكتوبة خاصة بمعاملة الأسرى بعد. بيد أن للإسلام مبادئ دينية وأخلاقية تضبط تعامله وتوجه سلوكه. وللأسير، في الرؤية الإسلامية، كرامته الإنسانية وحقوقه التي لخصها الرسول بالإحسان إليهم.

و«الإحسان» تعبير إسلامي عميق ومتعدد الدلالة، يشمل المعاملة بالحسنى والإيثار والتسامح والعطف. والأخلاق الحميدة هي من جوهر الدين. وفعلاً، لقد آثر المسلمون أسراهم حتى على أنفسهم. كانوا يقدمون طعامهم المفضّل إلى الأسرى، مكتفين هم بما هو أقل منه.

لقد كانت المرة الأولى التي يكون لدى المسلمين أسرى. وكان السؤال الأول هو: كيف التعامل مع موضوعهم ؟ وأي عقاب يستحّقون، وكيف؟ لكشف كل تلك الأمور والتشاور فيها كان الرسول يرغب في أن يعرف آراء صحابته المقربين من الأمر. هل يقتل الأسرى عقاباً لهم على ما

فعلوه بالمسلمين؟ أم يطلقون بالفدية من أهاليهم؟ وكعادته طلب الرسول المشورة من أصحابه، قائلاً: «ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟».

لم يكن، بالطبع، طلب المشورة، تعبيراً عن قلة حكمة؛ فعقل الرسول هو العقل الكليّ، كامل الحكمة. لم يكن في حاجة لأن يسأل ليتبين له الصواب من الخطأ. ولكنه ليخرج بالدروس المطلوبة للمسلمين. فقال أبو بكر: يا رسول الله، هم قومك وأهلك! استبقهم لعل الله يتوب عليهم. اعتبر أبو بكر، حتى الأعداء، أهلاً! وعسى الله أن يتوب عليهم.

أما عمر، الذي لا يقل رحمة عن أخيه أبي بكر، لكنه المعروف بحزمه، فكان له رأي مغاير تماماً. فقال، موجهاً حديثه إلى الرسول: لقد كذّبوك وأخرجوك من مكّة وحاربوك، ولا جزاء لهم على ذلك، إلّا القتل. هما رأيان مبدئيان غالباً ما يحضران في اللحظات الشبيهة. لكن أيهما الأكثر حكمة، وأيّهما سيخدم الرسالة النبوية؟

وحينئذ وصف الرسول الكريم أصحابه قائلاً: «مثل أبي بكر كمثل ميكائيل، ينزل برضاء الله وعفوه عن عباده. ومثله من الأنبياء كمثل إبراهيم. كان ألين على قومه من العسل. وعندما أوقدوا له النار وطرحوه فيها، ما زاد أن قال: [أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ]. ثم أكمل إبراهيم قوله: [فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ].

ثم وصف عمر قائلاً: «ومثل عمر في الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخطة من الله، والنقمة على أعداء الله. ومَثَلُهُ في الأنبياء كمثل نوح. الذي كان أشد على قومه من الحجارة. وذكر ما قاله نوح داعياً ربه:. [وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (27) [70]] [نوح 26-27]

والله عزّ وجل كان عارفاً مسبقاً كيف سيتصرّفون حيال هذا الأمر، بيد أن المشهد يبين وكأن الله تعالى انتظر ليخرج من هذه المسألة دروساً لهم. ثم سيعلم الرسول وأتباعه الموقف الذي كان الله يفضله بخصوص الأسرى! وبعد قرارهم سيقدم للمسلمين الدرس المطلوب.

وبعد أن اختار الرسول رأي أبي بكر، نزلت الآية: [مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] [الأنفال 67].

يكرّر العلماء المسلمون أنّ الله كان يفضل قتل الأسرى. بيد أن قول الله سبحانه وتعالى، «ما كان لنبي أن يكون له أسرى» يعني حرفياً ما يعني. أي أنّ الله لم يقرّ أخذ الأسرى أساساً، ناهيك عن إعطاء موضوع الفدية أهمّية إطلاقاً.

ومن خلال قراءتنا للآية، يتبيّن لنا أنّ الله كان يفضل استمرار القتال لكسر شوكة المشركين أكثر، ومعاقبتهم على تحدّيهم لأمر الله، وليس الانشغال بأخذ الأسرى. يقول الله عزّ وجلّ: «حتى يثخن في الأرض»، أي حتى تكسر شوكة أعداء الإسلام. وحتى يكون لهم النصر الكامل المؤزر على المشركين. وفي ذلك درس لغيرهم. والله لا يقبل أن يرى المسلمين مستضعفين في الأرض، وفي حالة من الذل والهوان.

ولكن بعد أن بين الله درسه، ستتنزل مباشرةً آية أخرى، في سورة مُحَمَّد، تمنح الرسول التفويض الكامل ليتخذ ما يراه صواباً في شأن الأسرى. فإما القتل وإما الفدية وإما العفو. يقول الله تعالى: [فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ] [محمد 4].

تمت تسوية أمر الأسرى على النحو الذي أقرّه رسول الرحمة. وقد منّ النبي على فقراء الأسرى فأطلقهم بغير فداء، ولم يقر الفداء إلّا من أغنياء الأسرى. والأهم أنه جعل فداء بعضهم، ممن يعرفون الكتابة والقراءة، أن يُعلم كل أسير عشرة من أطفال المسلمين القراءة والكتابة مقابل حريته[71]. وهو إجراء بالغ الدلالة.

فبهذا الموقف ربط الرسول بين الحرية والعلم. العلم هو الحريّة، وهو قرار لا شك مشحون بالدلالات الكفيلة بأن تعيد التشديد على مكانة التعليم والمعرفة في الإسلام. فدينٌ يضع العلم في ميزان واحد مع الحريّة، لا يمكن أن يكون إلّا دين تحرّر وعلم. لأن العلم والمعرفة ضروريّان لتعزيز حرية الإنسان وكرامته وصونهما. وهذا أحد الأهداف الكبرى للدين.

من جانب آخر، تذكر السِّيَر موقف الرسول من أسيرين: الأول صهره أبو العاص بن الربيع، زوج زينب بنت الرسول، وكان من بين الأسرى. والثاني عمه العباس مع بعض أقرباء الرسول. وتقول عائشة رضي الله عنها، إنه لما بعث أهل مكّة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت

الرسول لفداء زوجها أبي العاص بمال، ومعها قلادة، كانت قد أهدتها لها والدتها السيدة خديجة ليلة زفافها. فلمّا رآها رسول الله (ﷺ) رقّ لها قلبه، وقال لأصحابه: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردّوا عليها مالها، فافعلوا»[72].

كان الأمر بالغ الخصوصية؛ فالأمر يتعلق بكريمة الرسول وزوجها الأسير لدى المسلمين، أي لدى عمه النبي، وبهدية زوجته وحبيبته الراحلة السيدة خديجة. ومع ذلك قال لأصحابه الأمر يعود إليكم، فافعلوا ما ترون! كان بإمكانه أن يأمرهم، وسيكونون أكثر من سعداء بتنفيذ أوامر رسول الله، وخصوصاً في أمر يتعلق بعائلة نبيهم وحبيبهم. لكنه ترك الأمر لهم.

وإكراماً للرسول وكريمته، تم إطلاق زوجها أبي العاص، وأعادوا إليه الفدية التي بعثت بها زوجته زينب. وبعد ذلك أعطى أبو العاص الرسول وعداً، بأن يبعث إليه ابنته زينب، كما طلب منه. فهي مسلمة وهو مشرك، ولم تعد تحل له بعد أن نزل التشريع بهذا الخصوص. وفعلاً، سيبعثها كما وعد. وكان موقفاً مشرفاً. ولا ننسى أنه لم يزل مشركاً، وقومه في حرب مع الرسول.

لكن أبا العاص كان رجلاً شهماً، معروفاً بأخلاقه النبيلة. وهو ابن أخت السيدة خديجة. وكانت للأخلاق العربية مكانتها حتى عند المشركين. ولذلك قال الرسول: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام». ولاحقاً سيمنّ الله على أبي العاص، ويسلم هو نفسه، وتعود إليه زوجته، ويصبح من أتباع رسول الله المقرّبين.

أما عن موقف الرسول من عمه العباس، ففيه عبرةٌ أخرى. لقد أمل العباس بأن يسرّحهُ الرسول بلا فدية، كونه عمّه وأحد المدافعين عنه في مكّة. لكنّ الرسول رفض ذلك. فقال العباس: يا رسول الله، قد كنت مسلماً. فردّ عليه قائلاً: «الله أعلم بإسلامك، فإن تكن كما تقول، فإن الله يجزيك، أما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابني أخيك: نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب».

فقال العباس: ما ذاك عندي يا رسول الله. فقال الرسول: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ وقلت لها: إن أُصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبَنِيّ الفضل وعبدالله وقثم». فقال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله! إنّ هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل. ففدى نفسه ومن معه من أبناء أخيه[73].

وهذا مشهد آخر يدعو للتأمل أيضاً. طلب الرسول الفدية حتى عن عمّه، علماً أنّ الرسول كان يعزّه كثيراً، وكانا متقاربين سناً، وتؤكد عائشة رضي الله عنها ذلك، قائلة: «ما رأيت رسول الله يجلّ أحداً ما يجلّ العباس».

لم يُعرف متى أسلم العباس رضي الله عنه؛ قيل إنه كان مسلماً حقاً، وكان يخفي إسلامه، ليبقى مع قريش ويخبر النبي بأخبارهم، وقيل إنه أسلم متأخّراً، لربما قبل عام من فتح مكّة كما سنرى. لكننا نعلم أن الرسول كان أسعد الناس بإسلام عمّه.

وسيقول الرسول عنه: «إن الله تعالى اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ومنزلي ومنزل إبراهيم في الجنة متقابلان، والعباس بن عبدالمطلب مؤمن بين خليلين». وسيتوفّى العباس في المدينة سنة 32 هجرية، وقد بلغ الـ 88 عاماً.

بالطبع، لم يكن رسول الله يعلم الغيب، لكن كانت الحجُب مرفوعةً عنه، وإلى جانب النبوّة والرؤيا، كان يوحى إليه، ولذلك كان من الطبيعي أنّ يكون ملمّاً بأمور لا يعرفها أحد سواه. والأهم أنه كان دائماً على علم بما يخطط له أعداؤه.

وهكذا، عرف ما كان قد خبأه العباس، هو وزوجته أم الفضل من مال في مكّة. وفي مرات أخرى، سيتعرّض الرسول لمواقف عديدة فيها تهديد لحياته، لكنه سيكون على علم بها قبل أن تقع، كما سنرى. يخرج منها بسلام، ويسلِم من أتى إليه بنية قتله. والقصة التالية مثال على ذلك.

محاولة قتل الرسول (ﷺ)

ثمّة قصّة يتكرر ذكرها في التاريخ الإسلامي، تعرف بقصة عمير ابن وهب. وفيها دليل آخر على علوم النبي اللدنية الخاصة. تذكر السِّيَر أنّ عمير بن وهب قد اتفق مع صفوان بن أميّة، بعد هزيمة بدر، على أن يقوم عمير بن وهب بقتل النبي. وقد ضمن له صفوان أنه لو كشف أمره أو قتل، سيسدد كل ديونه وسيتكفل بأبنائه. فتم الاتفاق على ذلك. وطلب عمير من صفوان أن يكتم السر.

حمل عمير سيفه المسموم، وانطلق من مكّة إلى المدينة، متظاهراً بأنه لم يأتِ إليها إلّا ليفدي إبنه وهيباً، الذي أُسر في معركة بدر. ولكن حالما رآه عمر بن الخطّاب قريباً من مسجد الرسول،

شعر بخطر قدومه على الرسول. فقال : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلّا لشر! فدخل عمر على الرسول، وقال له: يا نبيّ الله، هذا عدو الله عمير بن وهب، قد جاء متوشّحاً سيفه، فقال له الرسول: «أدخله عليّ»، فأدخله على النبي، وأدخل معه بعض الرجال لحماية الرسول منه.

وعندما دخل عمير بدأ بتحية أهل الجاهلية: «انعموا صباحاً»، فردّ عليه الرسول قائلاً: «لقد أكرمنا الله بتحية خيرٍ من تحيتك يا عمير؛ بالسلام! تحية أهل الجنّة». ثم سأله الرسول: «فما جاء بك يا عمير؟». فقال: جئت لابني الأسير الذي بين أيديكم. فقال الرسول: «فما بال السيف الذي في عنقك؟». فردّ: قبّحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئاً؟ فقال الرسول: «اصدقني! ما الذي جئت له». فردّ قائلاً: ما جئت إلا لذلك.

فقال الرسول (ﷺ): «بل جئت لأمر آخر؛ لقد جلست مع صفوان بن أميّة في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دَينٌ عليّ، وعيال عندي، لخرجت حتى أقتل مُحَمَّداً. فتحمّل لك صفوان دَينك، وعيالك على أن تقتلني، والله حائلٌ بيني وبينك!!».

كاد عمير يسقط على الأرض من شدّة المفاجأة. كيف عرف النبي نيته وسر قدومه إلى المدينة؟! فرد قائلاً: أشهد أنك رسول الله! لقد كنّا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي. وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان.

فوالله إني لأعلم أنه ما أتاك به إلّا الله. فالحمد لله الذي هداني إلى الإسلام، وساقني هذا السياق. ثم قال: «أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ مُحَمَّداً رسول الله». فقال الرسول: «خذوا أخاكم فقّهوه في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره»[74].

قطع عمير رحلة شاقة، أربعمئة كيلو متر، على ظهر جمل من مكّة إلى المدينة، بنية قتل النبي. وعندما دخل بيت الرسول متوشّحاً سيفه المسموم ونياته الشرّيرة، خرج من عنده، بعد دقائق معدودة، مسلماً ومحباً لله ولرسوله! وحالاً، أصبح أخاً للمسلمين، وتوجب عليهم أن يفقّهوه في دينه!

والإسلام يَجُبّ ما قبله، والله يعفو عما مضى. فبعد أن يسلم المرء، بغض النظر عن مدى عداوته السابقة للمسلمين، يصبح، بمجرد نطق الشهادة، أخاً للمسلم. وفق بعض السِّيَر، بعد أن تعلم دينه، عاد إلى مكّة لينشر الإسلام في أوساط المشركين. وفعلاً أسلم على يده عدد كبير من أهل مكّة.

ولعمر بن الخطاب قول معبّر بخصوص هذا الرجل، وربما يلخص موقف المسلمين من عمير. إذ قال رضي الله عنه: والذي نفسي بيده، لخنزيرٌ كان أحبَّ إليّ من عمير، ولهو اليوم أحب إليّ من بعض أولادي!

بنو قينقاع والمسلمون

لم يترك انتصار المسلمين في بدر مذاقاً مرّاً لدى قريش وحدها، بل كان له تأثير، ربما أكبر، في يهود المدينة وحولها. لقد أفزعهم الانتصار وتصدّعت رؤوسهم. وغنيٌّ عن القول إن انتصار بدر عزّز من مكانة المسلمين الفعلية كما المعنوية في المدينة. وأصبح المسلمون قوة يحسب لها ألف حساب. وبفضل الله وحكمة نبيه، لم يعودوا أولئك المهاجرين المستضعفين في الأرض.

مع أنّ النبي (ﷺ) كان ينظر إلى أهل الكتاب، اليهود بالذات، نظرة خاصة، وكان يطمح إلى إسلامهم أكثر مما كان يطمح إلى إسلام المشركين، لأنهم، كما المسلمين، أهل دين سماوي يدعو إلى التوحيد، وأهل كتاب يصدق القرآنُ كثيراً مما جاء به، وهم أهل علم ويؤمنون بمنطق العقل ويحتكمون إليه. وفوق ذلك كتبهم تبشّرهم بمجيء الرسول، بل تدعوهم إلى اتّباعه[75].

ومع كل ذلك، رفض اليهود، كما ذكرنا، أن يروا في الإسلام امتداداً للرسالات السماوية. وهم على علم أكثر من غيرهم بأنّ التوراة قد بشّرت به. وعليه، تنكّر معظمهم للرسول، واستبطنوا له ولأتباعه العداء العميق، والذي سينكشف جلياً بعد انتصار المسلمين على قريش.

والحال، أنّ علاقة المهادنة بين المسلمين واليهود، قلبها اليهود إلى علاقة عداوة صريحة. وزادت اتصالاتهم بقريش للتحريض على المسلمين. وأضحت المواجهة بين الطرفين مسألة حتمية، لا مفرّ منها. فلن يستقر المسلمون في بلادهم، ولن يتمكّنوا من بناء مجتمعهم الإسلامي، واليهود يناصبونهم العداء والتآمر المكشوف.

وقد توّج شاعرهم الشهير، كعب بن الأشرف ذلك العداء، معلقاً على هزيمة قريش، بقوله: «هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس. والله لئن كان مُحَمَّد أصاب هؤلاء القوم، لَبَطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها». بهزيمة قريش الوثنية المشركة، فضّل شاعر اليهود الموت على الحياة!

ولم يكتف كعب بن الأشرف بالخطب العدائية والقصائد التحريضية، التي يهجو بها الرسول وأتباعه، بل وصلت به روح العداء إلى التحريض على قتل رسول الله نفسه. ويتساءل المرء: كيف لكتابيّ، أن يُحرّض على قتل نبي يدعو إلى التوحيد، وينشر السلام والمحبة، حتى ولو لم يؤمن به؟ ثم ذهب إلى مكّة يستثير حمية قريش لتأخذ بثأرها وتسترد هيبتها[76].

بهذه الممارسات العدائية، أصبحت الأجواء ملبدة وبالغة الاحتقان. وبتحريض كعب على قتل النبي وصل الاحتقان إلى أقصاه. في هذه الأثناء بادر الرسول إلى لقاء اليهود في سوق قينقاع، وقال لهم: «احذروا ما نزل بقريش وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبيّ مرسل». فردوا بوقاحة: يا مُحَمَّد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمنَّ أنّا نحن الناس.

لكنّ الله لم يقبل هذا التهديد لرسوله الكريم، ونزلت الآية التالية: [قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ] [عمران 12] [77]. سيرى المسلمون بأعينهم تحقق النصف الأول من الآية، وسيتحقق النصف الثاني منها في عالم الغيب، كما وعد الله.

وغنيٌّ عن القول، إنّ المسلمين كانوا لا يسعون إلى فتح جبهة داخلية معهم، وليس من مصلحتهم مواجهة جبهة من الأعداء في المدينة نفسها، لكنّ اليهود سعوا إلى ذلك بأيديهم وأرجلهم، وعمدوا إلى التآمر والتحريض على المسلمين علناً. وسريعاً، ستتحول صلتهم الخاصة بقريش إلى تحالف متين، وستكون من نتائجه معركة الخندق.

في هذه الأجواء المشحونة، تعمّد أحد اليهود، من قبيلة قينقاع، الإساءة إلى كرامة امرأة مسلمة كانت تتبضّع في أسواقهم، وحاول كشف عورتها. فلم يقبل أحد المسلمين الحاضرين تصرفه المشين، فدافع عن المرأة، واشتبك مع اليهودي وقتله. وتطور الأمر فتعاونت مجموعة من اليهود وقتلت المسلم، وسرعان ما تفاقم الوضع أكثر. وخوفاً من ردة فعل المسلمين، التجأ بنو قينقاع إلى حصونهم واستعدوا للمواجهة.

كانت كل مواقف الرسول (ﷺ) في السلم كما في الحرب واضحة لا تشوبها شائبة؛ فقد سالم من يسالمه بنبل وكرامة، وحارب من يحاربه بشجاعة وشرف. ومع كل ما كان يعرفه الرسول عن

اليهود، فقد ظلت يد الرسول ممدودة إليهم، وحاول مراراً أن يبني جسور السلام معهم. والعقد الاجتماعي شاهد على ذلك، لكنهم تنكّروا لكل بوادر المسلمين الخيرة والحميدة.

وهكذا، بالاعتداء على المرأة المسلمة، أسقط بنو قينقاع العهود بينهم وبين المسلمين، التي أقرها دستور المدينة، والذي وضعه الرسول الكريم بنفسه وأشرف على تطبيقه.

لم يبق أمام المسلمين إلّا الحسم؛ فطوق جيش المسلمين الحصون قرابة نصف شهر. انتظر خلالها بنو قينقاع الدعم من حلفائهم اليهود من بني قريظة، لكن لم يأتِ. والواقع أنّ بني قريظة احترموا دستور المدينة وحافظوا على تعهّد السلام مع الرسول حتى ذلك الوقت. لكنهم، لاحقاً، سيغيرون موقفهم في معركة الخندق. وأخيراً، تم الاتفاق مع الرسول على أنْ يرموا السلاح مقابل خروج بني قينقاع من المدينة. وهكذا تم. فخرجوا مهاجرين إلى الشام.

معركة أُحد

منذ معركة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وحتى معركة أحد في الربع الأول من السنة الهجرية الثالثة، لم يواجه المسلمون أحداثاً مهمّة تذكر سوى اضطرارهم إلى تهجير بني قينقاع من المدينة. يبقى أنّ الوضع في المدينة وحولها، لم يكن مستقراً تماماً. وقد استمر تحريض اليهود على المسلمين على نحو متواصل.

ومن جانبها، كانت قريش تعدّ جيشها وتتهيأ للثأر من المسلمين. لقد كانت هزيمتها في بدر أكبر نكسة تصيب قريشاً في تاريخها المعروف. وفعلاً، تحرك جيش قريش المكون، هذه المرة، من ثلاثة آلاف مقاتل، بقيادة أبي سفيان. وقد موله التجّار أصحاب القافلة التي نجت قبل معركة بدر.

وبهذا الخصوص تقول الآية الكريمة: [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ] [الأنفال 36].

وهنا، أيضاً، كما في كل مكان، لا يترك القرآن صغيرة ولا كبيرة، دون أن تنزل فيها آية يخاطب الله فيها نبيّه ومن اتبعه، يشدّ أزرهم، وينير بصيرتهم، ويجدد التأكيد لهم بأنّ الله يرعاهم ويسدّد خطاهم. وهكذا، يحل عليهم الشعور بالأمن والسكينة.

اتجه جيش قريش إلى المدينة. و بعد مشاورات مكثفة، خرج المسلمون لمواجهته. كان رأي النبي البقاء في المدينة والتمترس فيها، لكنه أخيراً، خضع لرأي الاغلبية المطالبة بالخروج لمقابلة قريش خارج المدينة. وقد ألحت فئة من المؤمنين، الذين لم يشاركوا في معركة بدر، على الخروج لمقابلة جيش قريش خارجها، مبدية شجاعة باهرة.

ونظرة سريعة على آراء بعض الرجال حول الرسول كفيلة بأن تبَّين لنا قوة الإرادة والروح القتالية لدى هؤلاء المسلمين، مثلما تظهر لنا كيف تشكلت آراء الأغلبية التي فضلت الخروج، على البقاء في المدينة والدفاع عنها، واحترمها الرسول الأكرم. فقال أحد المدافعين عن فكرة الخروج لمقابلة جيش قريش: إنّا نخشى يا رسول الله، أن يظن عدونا، أنّا كرهنا الخروج إليهم، جبناً من لقائهم، فيكون ذلك سبباً ليتجرأوا علينا.

وقال آخرون: لقد كنت يوم بدر في ثلاثمئة فظفّرك الله عليهم، ونحن اليوم بشر كثير. وقد كنا نتمنّى هذا اليوم وندعو الله به، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا. ومن جهته، قال مالك بن سنان: يا رسول الله! نحن بين إحدى الحسنيين؛ إما يظفرنا الله بهم، فهذا الذي نريد، والأخرى، يا رسول الله، يرزقنا بها الشهادة. والله، يا رسول الله، ما أبالي أيهما كان!

وأخيراً، حسم النعمان بن مالك الحوار قائلاً: يا رسول الله، لِمَ تحرمنا الجنّة؟! فوالله الذي لا إله إلا هو لأدخلنها!! فقال الرسول، «بِمَ؟!». فرد النعمان: إني امرؤ أحب الله ورسوله، ولا أفرّ يوم الزحف! فقال الرسول: «صدقت!». وفعلاً استشهد في المعركة[78] .

كيف لجيش، مكون من نخبة مصممة كهذه أن يهزم؟ خضع الرسول لرأي الأغلبية، وقرر الخروج، ولم يكن معه إلّا ألف رجل، وهو ثلث جيش الأعداء. وفجأة حدث ما لم يكن متوقع تماماً. فبمجرد أن خرج جيش المسلمين من المدينة، أعلن زعيم المنافقين عبدالله ابن أُبَـيَّ، في مشهد خياني لا يقبله الشرفاء، انشقاقه مع ثلاثمئة من رجاله[79]. فقال له عبدالله بن عمر: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه! ونزل قول الله تعالى فيهم:

[وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ] [آل عمران 167].

الله أعلم بما أسرّوا وما كتموا، وهم فعلاً أقرب للكفر منهم للإيمان. وكان يمكن أن تشكل تلك الخيانة ضربة كبيرة لأي جيش يفقد ثلث تعداده، ولا سيما في لحظة خروجه إلى المعركة. ولم يبق مع الرسول إلّا سبعمئة رجل، أي ربع جيش العدو تقريباً، رجالٌ قلّ عددهم لكن لم تهتز إرادتهم بهذه الخيانة الكبيرة ولم تضعف معنوياتهم.

عزّتهم من عزّة الله ورسوله، وليس لديهم ما يمقتونه أكثر من حياة الذل والهوان. لأن المذلة بالنسبة إلى المؤمن كُفر. ومسألة الأعداد والعتاد لا تعنيهم كثيراً. وجيش يحرّكه الإيمان، ولا يسعى إلا لرفع اسم الله على الأرض، يمده الله بنصره وتأييده. وليس المطلوب منه إلّا التمسك بحسن الظن بالله وأوامر نبيّه.

وفعلاً، التقى الجيشان في منطقة أُحد، واشتبك الطرفان. ومنذ بداية المعركة، وعلى الرغم من التفاوت الكبير بين القوتين، حارب المسلمون ببسالة أدخلت الرعب إلى قلوب المشركين. وككل المعارك، لم تستمر المعركة طويلاً، حتى بدأت قوات قريش تتراجع شيئاً فشيئاً. وبدأت بشائر النصر تلوح في الأفق. والحال، أنه لو استمر ذلك الوضع حتى نهاية اليوم، لكسر جيش قريش الضخم، ولعاد يجرجر ذيول الهزيمة والذل مرة أخرى. كان انتصار المسلمين قاب قوسين أو أدنى.

لكنْ وقع جيش المسلمين في خطأ مميت. وقع ما لم يكن في الحسبان أبداً. فمع تراجع جيش قريش، بدأ المسلمون، منتشين ببشائر النصر الأولى، بجمع الغنائم من السلاح والمؤن، التي كان الجيش المتراجع يتركها خلفه. وكان ذلك بدية الخطأ.

أما الخطأ القاتل، فكان في تخلي فرقة السهام، النبال، المتمركزة على جبل أُحد، وعلى رأسها عبدالله بن جبير، عن مواقعها والجري خلف الغنائم. وكانت مكلّفةً وبتوصية خاص من القائد، بحماية ظهر الجيش الإسلامي من الالتفاف عليه بفرقة الفرسان التي يقودها خالد بن الوليد.

وقد أعطاهم أوامر صارمة بهذا الشأن؛ أمرهم بعدم ترك مواقعهم تحت أي ظرف، قائلاً: «احموا ظهورنا، لا يأتونا من خلفنا، وارشقوهم بالنبل، فإنّ الخيل لا تقوى على النبل، إنّا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم. اللهم إني أشهَدك عليهم»[80].

شدد الرسول على أهمية البقاء في هذا الموقع لحماية ظهر الجيش مهما كل الأمر. وكان يعرف تفكير قائد الفرسان خالد بن الوليد جيداً، ويعرف الطريق الذي يمكن أن يسلكه ليلتف به على

جيش المسلمين. لذلك حذّرهم بعدم ترك ذلك الموقع الاستراتيجي الذي وضعهم فيه، حتى لو رأوا جيشهم منتصراً على جيش المشركين. قائلاً لهم: «نحن منتصرون ما ثبتم في مواقعكم».

كان انتصار المسلمين يعتمد، على نحو كبير، على ضمان موقع الدفاع عن ظهر الجيش من فرقة الفرسان. لكنّ فرقة السهام هذه، المكوّنة من خمسين رجلاً، عندما رأت تراجع جيش الأعداء، تخلّى أغلبهم عن مواقعه على الجبل، وتركوا جيش المسلمين مكشوفاً من الخلف. أغراهم تراجع الأعداء السريع وطمعوا في الغنائم.

وفعلاً، كسروا أوامر قائدهم. وقالوا: ما جدوى البقاء بعد أن انهزم جيش العدو؟! ولم يتمكن قائد المجموعة، عبدالله بن جبير، من إقناع رجاله بالبقاء في موقعهم، ولم يبق منهم إلّا هو، مع عشرة من رماته، متمسّكين بمواقعهم.

وحدث ما حذّرهم الرسول من إمكان حدوثه. فعندما رأى خالد بن الوليد، وهو القائد العسكري الفذ، نزول الرماة من جبل أُحد، التف على من تبقّى منهم من خلف، وقضى عليهم جميعاً. وهكذا، كسر موقع الدفاع وانكشف جيش المسلمين.

وانقلبت موازين المعركة لمصلحة المشركين. فعاد جيش قريش، بعد التقهقر، إلى الهجوم بمعنويات مستجدة، وبدأت بوادر الهزيمة تظهر على جيش المسلمين، وسقط الكثير من الشهداء. وأخيراً، تمكّنت مجموعة من قريش من الوصول إلى مقر قيادة الجيش المسلمين، حيث كان الرسول يدير المعركة. وأصبح رسول الله نفسه مهدّداً.

تكاثر المهاجمون بالقرب من الرسول في محاولة لقتله. وفعلاً، أصيب الرسول بحجارتهم حتى وقع شبه مغميّ عليه[81]. حينها قال الرسول: «كيف يفلح قوم خضّبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربّهم؟». وحالاً، ردّ الله على الرسول، قائلاً: [لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ] [آل عمران 128]. كان الرسول يواجه خطراً حقيقياً.

ملحمة الدفاع عن الرسول (ﷺ)

إرادة المحارب المسلم مشهودة. لأن من لا يهاب الموت لا يخشى الأعداء. وكانت معركة الدفاع عن الرسول مثالاً للبطولة وحب الشهادة، حيث التفت مجموعة صغيرة من الصحابة حول

رسولهم، مشكلين حاجزاً دفاعياً لقائدهم.

كانوا يحمون قائدهم بأجسادهم من نبال المشركين ورماحهم. وتذكر السِّيَر أسماء بعضهم، ومنهم: علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطّاب، أنس، أبو دجانة، سعد بن معاذ، سعد بن أبي وقّاص، مصعب بن عمير، أبو عبيدة بن الجرّاح، أبو طلحة الأنصاري.

جابهت هذه المجموعة الصغيرة، المكونة من عشرة أشخاص تقريباً، مجموعة كبيرة قدرت بمئة من المشركين المصمّمين على الوصول إلى النبيّ. ودون مبالغة، كانت عملية الدفاع عن حياة الرسول ملحمة ربّانية نادرة في التاريخ الإسلامي. ولسنا بصدد إعطاء تفاصيل عسكرية دقيقة عن المعركة، لكنه من واجبنا الوقوف على مشهد التضحية هذا.

لقد ظنّ الأعداء أنهم إذا تمكّنوا من قتل الرجال حول الرسول، سيتمكنون أخيراً من أسره أو قتله. فتضاعف الضغط على المدافعين، إلى درجة أن خارت قوى أحد فرسان الخزرج، أبي دجانة وهو يقاوم، حتى سقط سيفه من يده من التعب.

لكنه ظل واقفاً يحمي الرسول بصدره. واستمر الرماة يرمونه بالنبال وهو ثابت في مكانه لا يتحرك، إلى أن انهار وسقط، لكنه بأعجوبة بقي حياً! وسيخوض كل المعارك التالية مع الرسول. ولم تكتب له الشهادة إلّا في معركة اليمامة، في السنة الهجرية الثانية عشرة، أي بعد وفاة الرسول بسنتين.

بعد أن سقط أبو دجانة، أخذ مكانه رفيقه أبو طلحة الأنصاري وأكمل المشهد. وفي هذه الأثناء انتشرت شائعة موت الرسول، وكادت تنهار المعنويات لولا يقظة بعض المؤمنين. وكان أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، أول من أدرك تلك الدروس. فأسرع أنس يسأل بعض المسلمين لماذا أنتم جالسون؟ فقالوا: قتل مُحَمَّد!

وبلغة تشع بالإيمان والعزيمة، قال لهم: وما تصنعون بالحياة بعده؟ موتوا على ما مات عليه! ثم تركهم وتوجه إلى المشركين يقاتل ببسالة نادرة، واستقبل ضربات السيوف والرماح على وجهه حتى سقط. وقد شوّهت الجروح وجهه الشريف إلى درجة أنهم حين أرادوا دفنه، لم يتمكن أحد من التعرف إلى جثته الطاهرة، حتى أتت أخته وتعرفت إليه من أصابعه![82].

ومن جانبه، أكمل سعد بن الربيع المشهد، وقاتل حتى أُثخن بالجروح، فمرّ به بعض الصحابة وهو يجود بنفسه. فقال له أحدهم: أما علمت أنّ مُحَمَّداً قد قتل؟ فقال سعد: أشهد أنّ مُحَمَّداً قد بلّغ رسالة ربه، فقاتل عن دينك، فإن الله حي لا يموت![83] وقتل سعد في المعركة.

وبعد المعركة، سيبعث الرسول من يبحث عن سعد بن الربيع. فوجدوه في آخر رمق، فقال له الرجل: أمرني الرسول أن أنظر في الأحياء أنت أم في الأموات؟! فقال سعد: فإني في الأموات! فبلّغ رسول الله السلام، وقل إن سعداً يقول: جزاك الله عنّي خير ما يجزي نبياً عن أمته. فرجع الرجل إلى النبي فأخبره. فقال: «رحمه الله، نصح لله ولرسوله حياً وميتاً».

وبعد قليل، سمع المسلمون كعب بن مالك ينادي بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله لم يقتل. رسول الله لم يقتل! وما إن سمع المسلمون الخبر حتى دبّت الروح في أجسادهم من جديد. وأي خبر مدعاة لفرح المسلم أكبر من خبر نجاة رسوله من الموت؟!

سقى هذا النبأ العظيم روح صمودهم العالية، وارتفعت المعنويات إلى عنان السماء، واستمرّت المجموعة الملتفة حول رسولها تجدد أعضاءها، فكلما سقط شهيد، أخذ مكانه آخر. وكان منهم مصعب بن عمير، الذي استشهد وهو يتلقى الضربات التي سددت إلى رسول الله. وتذكر السِّيَر أنّ عدد من استشهد في معركة أُحد كان سبعين شهيداً. قتل منهم ثلاثون دفاعاً عن حياة الرسول (ﷺ)[84].

تحولت هذه الملحمة، بآلامها ودمائها، إلى لوحة تضحية مدهشة. وبقدر ما جسّد مشهد التضحية بالنفس عمق إيمانهم، عبر عن عمق حبهم لرسولهم. لا يضحّي الإنسان بحياته إلا لما هو أعز وأغلى منها، وليس ما هو أعزّ من حياة المسلم إلّا حياة رسوله. في تلك اللحظة، كانت سلامة رسالة السماء مرتبطة بسلامة رسول السماء. وكل ما عدا ذلك تفاصيل.

واللافت جداً، أنه كان ضمن هذه العشرة امرأةٌ، هي السيدة نسيبة، المعروفة بأمّ عمارة الأنصارية، التي قاتلت ببسالة إخوانها الرجال. وقد كانت في بداية المعركة تُسعف الجرحى وتسقيهم، لكنها ما إن رأت الهجوم على الرسول، حتى رمت قِرَبَ الماء جانباً، وحملت السيف تقاتل وتصدّ المهاجمين، وكان معها زوجها وابنها في المعركة. انبهر الرسول بقوة عزيمة أمّ عمارة وشجاعتها، فقال لهم: «بارك الله عليكم أهل بيت».

ثم قال لأمّ عمارة: «من يطيق ما تطيقين يا أمّ عمارة؟! سليني يا أمّ عمارة». فقالت: أسألك رفقتك في الجنة. فقال لها: «اللهم اجمعهم رفقائي في الجنة»[85]. ولاحقاً، قال الرسول الأكرم عنها: «ما التفتُّ يميناً وشمالاً يوم أحد، إلا ورأيتها تقاتل دوني!». وقد جرحت أمّ عمارة يومئذ اثني عشر جرحاً، بين طعنة برمح وضربة بسيف!

ولم يتجسّد حب الرسول والاستشهاد دونه عند الرجال فقط، بل عبر عنه أهالي الشهداء على نحوٍ يستحق الإكبار حقاً. أولئك الذين رأوا أنه طالما سلم الرسول من الأذى، فكل شيء هيّن، حتى فقدان الأهل والأحباء. والقصة الشهيرة لتلك الصحابية الجليلة، أمّ عامر الأشهلية، التي اشترك كل أفراد عائلتها في معركة أُحد، معروفة في التاريخ الإسلامي؛ فعندما عاد المسلمون إلى المدينة مرّوا بنساء الشهداء، ومنهم أمّ عامر.

فعندما التقت المقاتلين العائدين من المعركة، أخبروها بأنها فقدت ثلاثة أفراد من عائلتها؛ والدها وزوجها وأخاها، ولم يبق لها أحد من الرجال، استشهدت كل عائلتها دفاعاً عن الرسول(ﷺ)! ظلت صامتة تستمع إلى أخبار الشهداء. وبعد أن عبّروا لها عن حزنهم ومواساتهم، قالت: كيف حال رسول الله؟ قالوا: خيراً يا أمّ عامر. هو بحمد الله كما تحبين. فقالت: أرونيه حتى أنظر إليه. فأشير لها إليه. وعندما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل![86] أي كل المصائب تهون طالما أنت بخير.

ثم أتت والدة سعد بن معاذ، زعيم قبيلة الأوس وفارسها، الذي لم يتجاوز الأربعين عاماً بعد، وهو أحد أبطال أُحد الذين قاتلوا ببسالة نادرة، ومع جروحه البالغة ظل حياً. أتت أمّ سعد، إلى الرسول للاطمئنان إليه. وعندما رأته بخير، قالت: أما إذ رأيتك سالماً فقد هانت المصيبة!

استشهاد حمزة

بعد هذه المشاهد المُحَمَّدية الخالدة في الذاكرة الإسلامية، ستلي للأسف، لحظة محزنة، تبين الوجه الآخر؛ وجه المشركين أعداء الإسلام، حيث كلفت هند بنت عتبة، وحشياً، وهو عبد حبشي، بقتل السيد حمزة بن عبد المطلب، عم الرسول، مقابل حرّيته. وكان حمزة قد قتل والدها عتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، في معركة بدر.

لم يدخل وحشي إلى ساحة المعركة إلا لانتهاز الفرصة وقتل حمزة مقابل حريته. وكما كلفته هند، تربّص بحمزة طوال المعركة، يبحث عن اللحظة المناسبة ليطلق رمحه القاتل إلى صدر هذا

البطل. وعندما وجدها، رماه من بعيد إلى صدر حمزة، وهو يجاهد في سبيل الله، فأرداه قتيلاً. وكانت خسارة على المسلمين لا تعوض. وباستشهاده كسب الأعداء نصف المعركة.

وبعد أن عرفت بقتل حمزة، أتت هند منتشية بروح الانتقام لتلقي نظرة على ضحيّتها. لكنها لم تكتف بذلك. لم يشفِ غليلها جلال جثة أسد الإسلام الممدّدة على الأرض وتنزف دماً. وتجاوزت حدود الحقد والانتقام، فأخذت السكين ومثلت بجثّته الطاهرة، ثم فتحتها لتخرج كبده. وتحولت هذه السيدة الجميلة، نبيلة قريش، المتذوقة للشّعر، إلى حيوان مفترس يلوك كبد حمزة! كان المشهد مريعاً، ومقزّزاً إلى أبعد الحدود!

وعندما أتى الرسول وشاهد جثة عمّه، قال: «ما وقفت موقفاً أغيظ إليّ من هذا الموقف». كان الموقف صعب الاحتمال. ونزلت دموع الحزن والألم من عينيه. كيف لا تدمع عينا رسول الرحمة على فقيده الغالي عمّه، وأخيه من الرضاع، وأحد قادته الكبار؟ بكاه لأنه استشهد، وبكاه لأنّ هنداً انتهكت حرمة الإنسان والموت معاً.

ولكن اللافت، أنه عندما طلب أحد المسلمين من الرسول الدعاء على من شوّه عمّه حمزة، قال: «اللهم إني لم أُبعث لعّاناً، ولكن بُعثت رحمة للعالمين». حتى في لحظة ألمه وغضبه المبرر لم يلعن أعداءه.

كان مشهد تشويه جثة حمزة مروعاً. فعندما يغيب الإيمان، ويفقد الإنسان الصلة بالمقدس، تسقط كل القيم والمثل العليا إن كان لديه شيئاً منها، ويصل إلى هذا الدرك الأسفل من الوجود. لأن القلب المفرغ من الله والإيمان، قلب مفرغ من الرحمة والمثل العليا، وعرضة للامتلاء بكل المشاعر المنقصة للإنسانية والكرامة البشرية.

الحرب سجال، هكذا قيل. وهي أيام نداولها بين الناس. واعتبرت قريش أنها انتصرت هذه المرّة، فقال أبو سفيان يوم بيوم، أحدٌ ببدر. نعم، الحرب سجال، لكنّ المسلمين، وإن كان ضحاياهم أكبر، لم يهزموا تماماً. ولم ينظروا إلى الهزيمة، إلّا كمحنةٍ ودرس. أما عسكرياً فلم يهزموا في الواقع.

بدايةً، لأن جيشهم أساساً لا يتجاوز ثلث تعداد أعدائهم، ومواجهة المشركين بهذا العدد هي بذاته انتصار معنوي كبير يحسب لهم. ثم إن قريشاً لم تتمكّن من الوصول إلى الرسول، وإن جرحته

وهدّدت حياته. كما أنّ مشهد الدفاع عنه بهذه البسالة، كان بذاته أكبر فعل انتصار في المعركة. وأخيراً، لم تتمكن قريش من الدخول إلى المدينة دخول الظافرين، فأين الانتصار المحقّق؟

دروس أُحد

والآن، للنظر في ما هو أبعد من الانتصار والهزيمة العسكرية الآنية. ومعركة أُحد مدرسةٌ مكثفة بالدروس والرسائل الإيمانية. فقد أرادها الله أن تكون تجربة غنية على أكثر من مستوى. وبنظرةٍ متأنيةٍ إلى محطاتها ومشاهدها منذ بدايتها حتى النهاية، يمكن للإنسان أن يرى أنّ كل خطوة فيها كانت تحمل درساً بليغاً؛ ابتداءً بقرار الخروج من المدينة ومواجهة العدو خارجها، وهو قرار يحمل من الشجاعة والإرادة ما يحمل.

ثم شق صفوف جيش المسلمين بتخلي المنافقين لحظة خروج الجيش، ودخول المعركة بعدد قليل، ولم يؤثّر ذلك لا في معنوياتهم ولا في عزيمتهم. وعلى الرغم من غياب التكافؤ بين الجيشين، انتصر المسلمون في بداية المعركة، وهو دليلٌ على قدرتهم على كسر جيش الأعداء مهما كثر تعداده. ثم نزول الرماة وما تبعه من هجوم لقريش، ثم ملحمة الدفاع عن الرسول، وانتهاءً بعدد الشهداء الكبير.

ككل دروس السِّيرة النبوية، كان درس أُحد درساً إيمانياً مكثّفاً. متعدد الفوائد وصالحاً لكل زمان ومكان. وبعيداً عن التفاصيل، كان جوهر الدرس هو أنّ من يتمسّك بأوامر الرسول، يكتب له الفلاح والنصر. في الحرب كما في السلم. في ذلك الزمن أو اليوم. ومصير من لا يكون الرسول أُسوته، التيه والهلاك المحتم.

ثم إنّ الانتصار على النفس شرط للانتصار في الحرب. وكما يقال، الهوى هو أكبر إله عبد في الأرض. فلا انتصار ولا فلاح لمن يخضع لهواه. ودرس أُحد، وقبله درس بدر، يشهدان على ذلك، لأنه بفضل الإيمان يمكن لمجموعة صغيرة وفقيرة أن تتمكن من التفوق على عدوّها الأقوى والأكثر عدداً وعدة لو تمسكوا بأوامر قائدهم.

وبنزول آيات من سورة آل عمران أعطى الله سبحانه وتعالى القول الفصل في ما حدث: [وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ

(140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142)] [آل عمران 139-142]

يبدأ الله سبحانه وتعالى، برفع معنويات رجاله على الأرض بكلمتين من سورة آل عمران، وبصيغة الأمر أيضاً: [وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139)] لا تهنوا ولا تحزنوا. لماذا؟ لأنكم أنتم الأعلون. لن ترتفع مكانتكم في السماء قبل أن تكونوا مؤمنين حقاً، ويكون الرسول أسوتكم الحسنة. أما إن لم تكونوا مؤمنين، فلكم الهوان والحزن.

وإذن، كان من شأن هذه المحنة الكبرى، أن يمُيّز الله فيها بين المؤمنين وغيرهم. فهناك من لايزال متعلقاً بالدنيا وهناك من يتوق إلى الآخرة. وما ابتلاكم إلا ليصرفكم عن الدنيا ويغفر لكم لتكونوا من عباده الصالحين. ثم يستمر الله في شرحه، بقوله:

[وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (153)]

وقول الحق حقٌ يفي ويزيد. لأنها الأنوار التي تضيء لنا التجربة وتبين دروسها الظاهرة والباطنة. وحسبنا أن نكتفي بذلك، بيد أنه يتوجب علينا إلقاء نظرة على ما توصل إليه العلماء المسلمون من شرح لدروس التجربة، على ضوء ما أتت به سورة آل عمران.

يرى ابن قيّم الجوزيّة، رحمه الله، أنّ الله أراد بهذه المحنة أن يذيق المؤمنين عاقبة معصيتهم لرسولهم ليكونوا أكثر حذراً ويقظة في المستقبل. كما أنه لو كان لهم النصر دائماً لدخل معهم غير المؤمنين. مثلما حدث بعد انتصار بدر. ولا يمكن التمييز بين المؤمن الصادق وغيره إلّا بالمرور بالمحن الحقيقية.

ولو نصرهم الله دائماً، وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم، لطغت نفوسهم. ومثله يحدث لو يبسط الله لعباده الرزق. فلا يصلح لعباده إلّا السراء والضرّاء، الشِّدة والرخاء، القبض والبسط. وهذا جزء من التربية يراد لها أن تُخرج المؤمن كامل التوحيد والعبودية لله. وفي المقابل، لو انتصر

عليهم دائماً لما تحقّق المقصود من البعثة والرسالة. فاقتضت حكمة الله أن يجمع لهم بين الأمرين، والعاقبة للمتّقين.

إنّ النفوس، كما يكتب ابن قيّم، تكتسب من العافية الدائمة، والنصر والغنى، طغياناً والركون إلى العاجلة. وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة. فإذا أراد لها ربها، ومالكها، وراحمها كرامته، قيّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض المعوّق عن السير الحثيث إليه. فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه. ولو تركه لغلبت الأدواء حتى يكون فيها هلاكه[87].

ومن جانبه، يذكّرنا دويدار، في التفاتة موفقة، بعد كل الشروح التي قدّمها الله في سورة آل عمران، فيقول: إن الله لم يترك عباده في غمرة اليأس، بل مسح عنهم أحزانهم برفق ورحمة. ومزج العتاب الرقيق بالدرس النافع. وبيّن لهم أنّ الهزيمة لا تنال من شرف الغاية التي يقاتلون من أجلها، ولا من سمو المبادئ التي يدافعون عنها. فمبدأهم هو أسمى المبادئ وغايتهم هي أشرف الغايات. وما النصر والهزيمة إلّا عارضان يتداولان الناس، وسنَّة من سنن الله في خلقه[88].

وأخيراً، هنالك الدرس الرسولي. فجُرْح الرسول (ﷺ)، درسٌ وإشاعة خبر موته كانت درساً موقظاً للوعي الإيماني أيضاً. والله يقول في كتابه: [وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ] [عمران 144].

ذَكَّر هذا الدرس المسلمين بأنّ رسولهم بشر مثلهم، له يوم مكتوب، يكمل به نعمة الله، ويتمّم فيه مكارم الأخلاق، وينتقل، بعد أن يؤدي رسالة الرحمة، إلى رفيقه الأعلى. وتعلموا من الدرس، كما قال سعد بن ربيعة وأنس بن النضر، أنهم لا يحاربون لأجل مُحَمَّد كشخص، بل لأجل رب مُحَمَّد ودينه.

ثم إن مُحَمَّداً إن مات جسداً، فلن يموت روحاً، بل يبقى حياً وفاعلاً في عالم الروح. وقد ترك لنا القرآنَ الذي لم يزل يسري في عروق المؤمن كنهر الحياة المتدفّق. وسيرتَه الحية التي ما زالت تحمل أنوار الرسول إلينا. وسيبقى السراج المنير حياً أو ميتاً.

الجبهة الداخلية

على الرغم من البطولات النادرة والتضحيات الجسام، التي أظهرها المسلمون، عادوا إلى المدينة يحملون مذاق الهزيمة وشبه منكسرين، ولكن مع ذلك لم ترتخ معنوياتهم. فإلى جانب القتلى كان هناك قرابة المئة والخمسين من الجرحى.

والحال، أنه بدلاً من أن تكون عودتهم استراحة محارب، لتضميد جروح الأجساد والنفوس، وليُقَيِّموا تجربتهم، لكن الأعداء حوَّلوها إلى مناسبة للشّماتة والمجاهرة بالعداوة. فأخذ اليهود أولاً، يستعيدون طروحاتهم التشكيكية في الرسول ودعوته، قائلين: لو كان نبياً لما انهزم أمام المشركين، ولكنه طالب مُلك، تكون الدولة له وعليه.

وبدورهم، انتهز المنافقون، بزعامة عبدالله بن أُبَيٍّ، الفرصة لينالوا من معنويات المسلمين أكثر، محاولين التشكيك في صوابية قرار الخروج من المدينة. ثم أتى دور الأعراب، حلفاء قريش، الذين توهّموا أنّ المسلمين في حالة ضعف وانكسار. وهي فرصة، أيضاً، للنيل منهم في المدينة.

لكن المسلمين كانوا يعرفون أعداءهم جيداً، ولم يكن لهذه الهجمات المعادية، أيّ صدى يذكر في نفوسهم أو تأثير في معنوياتهم العالية. ولم يُظهِر المسلمون أي ضعف أو هوان بتاتاً، وظلت الرؤوس مرفوعة. والدليلُ أنه في اليوم الثاني بعد أُحد، سمع الرسول بأن قوات قريش بدأت تتجمّع من جديد، في منطقة الروحاء القريبة من حمراء الأسد، وتتهيأ للعودة مرة أخرى لضرب المسلمين في المدينة.

وحالاً، طلب الرسول من المسلمين الاستعداد والتحرك لمقابلتهم. فاستجاب كل المسلمين لنداء قائدهم. ولم يتأخر منهم أحد، حتى الجرحى رفضوا التخلف عن المشاركة. ومنع الرسول أن يلتحق بهم من لم يشترك معهم في أُحد. واقتصر أمر الرسول على خروج مقاتلي أُحد وحدهم.

وشهادة أحد رجال بني الأشهل تبين لنا الروح الجهادية المثالية، مثلما تبين مدى حبهم للرسول. حيث يقول: شهدت أُحداً مع رسول الله، أنا وأخٌ لي، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله بالخروج في طلب العدو. قلت لأخي: أتفوتنا غزوة مع الرسول؟! والله ما لنا إلّا دابةٌ نركبها، وكنت أيسر جرحاً، فخرجنا مع الرسول، وكنا نتبادل الركوب عليها[89]!

بهذه المعنويات المدهشة، حمل رجال أُحد جرحاهم معهم، وانطلقوا لمواجهة جيش قريش من جديد. وعندما وصل جيش المسلمين إلى منطقة حمراء الأسد، اتخذوها موقعاً لمعسكرهم،

واستعدوا لمواجهة أعدائهم. مكثوا في المنطقة ثلاثة أيام، بيد أنه عندما سمع قادة قريش بتحرك المسلمين السريع تجاههم، واستعدادهم للقتال، ارتبك قادة قريش وأصيبوا بالتردّد والخوف.

كيف استطاع المسلمون اتخاذ قرار التحرك، بهذه السرعة، متعالين على جراحهم وآلامهم؟ وقد بَلَغَ قريشاً أنّ من لم يشترك في أُحد، التحق هذه المرة متحمّساً للقتال، علماً أن الأمر لم يكن كذلك. وهنا قررت قريش، الانسحاب والعودة إلى مكّة، بدلاً من المواجهة. وفعلاً، لم يلتق الجيشان ولكن كان خروج المسلمين بقيمة الانتصار.

وقد أثنى الله في سورة آل عمران على إيمان المسلمين وشجاعتهم عندما خرجوا لملاقاة أعدائهم، دون خوف أو تردّد. ونزلت سورة آل عمران: [الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (172) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173)]

أدركت قريش آنذاك، ومن ورائها كل الأعداء، أنّ المسلمين، وإن خسروا في معركة أُحد، فإنّ معنوياتهم ما زالت أقوى من معنويات المنتصرين. ولم تعد ثمة قوة منفردة قادرة على النيل منهم. وإرادتهم المرتبطة بإرادة السماء لن تُمسّ أبداً.

وحسناً فعل الرسول بقرار الخروج هذا، ولم يأخذ معه إلّا مقاتلي أُحد فقط. فقد أزاح هذا القرار الحكيم، الشعور بالانكسار الذي خلّفته معركة أُحد تماماً، وشد أزرهم. وهكذا، ضمّد الرسول جراح النفوس، وزكى معنويات المسلمين مجدداً.

حادثة بئر معونة

محاولة قتل الرسول (ﷺ) وتهجير بني النضير

لم تكن الفترة بين معركة أُحد ومعركة الأحزاب، أي طوال السنتين التاليتين، الثالثة والرابعة من الهجرة، فترة استقرار حقيقي للمسلمين. بل كانت مشحونة بروح العداء واستمرار التآمر عليهم، وأكبرها كانت محاولة قتل الرسول الأكرم.

وهنا، يتوجب علينا، قبل الوصول إلى معركة الخندق، وهي معركة تاريخية فاصلة، المرور بحدثين هامين: أولاً، مذبحة بئر معونة. ومن ثم، محاولة يهود بني النضير قتل الرسول (ﷺ).

في السنة الرابعة للهجرة، أصيب المسلمون بفاجعة كبرى، لا تقل أضرارها النفسية عمّا تركته معركة أُحد، ذهب ضحيتها زمرةٌ من خيرة الصحابة من حفظة القرآن. يذكر أنه في ذلك العام زار أحد زعماء بني عامر، ويدعى أبا براء، الرسول وطلب منه إرسال مجموعة من حفظة القرآن لدعوة أهل نجد، فقال له الرسول: «إني أخشى عليهم أهل نجد». فقال أبو براء: أنا لهم جار، فليدعوا الناس إلى أمرك[90].

اختار الرسول سبعين رجلاً من حفظة القرآن، وأغلبهم من أصدقاءة من أهل الصفة، وكلفهم بهذه المهمّة الجليلة. ولكن حال وصولهم إلى المنطقة، قام رجل يدعى عامر بن الطفيل، وحرّض عليهم بعض القبائل. وفعلاً، طوقوا في منطقة «بئر معونة»، وأبيدت المجموعة بأكملها ولم يبقَ منهم إلا واحدٌ، هو عمرو بن أمية!

وقد تمكن من الوصول إلى المدينة وأبلغ رسول الله بالحادث. وقد تألم الرسول وحزن حزناً كبيراً على فقدان صحابته حفظة القرآن، فقال الرسول: «هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً». وقد مثلت حادثة بئر معونة جرحاً وألماً شديداً في نفوس المسلمين.

لكن قبل ذلك، وفي طريقه عائداً إلى المدينة، التقى عمرو بن أمية رجلين من بني كلاب، فقتلهما في عملية ثأر لأصحابه الحَفَظة. ولم يكن يعلم أنهما كانا من إحدى القبائل التي ارتبطت بتعهد سلم بينها وبين الرسول، وعندما علم الرسول بذلك تألم أكثر، ولم يكن أمامه إلا معالجة الأمر سريعاً ودفع الدية لأهليهم.

وفي سبيل حل المسألة، ودفع دية الرجلين، اللذين قتلهما عمرو بالخطأ، قام الرسول بزيارة يهود بني النضير في المدينة، كونهم حلفاء قبيلة المقتولين، يطلب منهم المساعدة. وفعلاً، أظهروا استعدادهم للتدخل في الموضوع ومساعدة الرسول، على أمل إيجاد حل مناسب لتعويض القبيلة. ولأجل ذلك، انعزلت مجموعة منهم للتشاور، تظاهرت بأنها تبحث عن صيغة للحل، لكن سرعان ما تبين أنه لم يكن موضوع تشاورهم كيفية إكرام الرسول ومساعدته، بل كيفية قتله!

كان ذلك عين الغدر والخيانة اليهودية بامتياز. فبدلاً من تقديم المساعدة التي أتى يطلبها نبيّ الله، وهو يرتبط معهم بمعاهدة سلم، خطّطوا لانتهاز فرصة زيارته لهم، وجلوسه بجانب حائط أحد منازلهم لإلقاء صخرة على رأسه من إحدى نوافذ المنزل، والتخلص منه كما كانوا يأملون.

وفعلاً، بعد أن تشاوروا على الغدر والجريمة، تكفل عمرو بن جحاش بن كعب، قائلاً: أنا لذلك! فصعد المنزل ليلقي عليه الصخرة من النافذة التي كان يجلس تحتها. لكنّ الله لن يترك رسوله ليكون ضحية اليهود، فكشف له الأمر، وأخبره بالجريمة الكبرى التي خططوا لها.

فوقف الرسول وتحرّك مسرعاً، دون إبلاغ رفيقيه؛ أبي بكر وعلي، اللذين كانا معه، كي لا يثير الشكوك. وعندما لحقا به بعد عودتهم إلى المدينة، أخبرهم بما كان اليهود ينوون فعله.

محاولة قتل رسول الله أمرٌ جلل. فغيّر المسلمون موقفهم من بني النضير. وحالاً، بعث إليهم الرسول يأمرهم بالخروج من المدينة. وأمهلهم عشرة أيام لذلك. أدركوا حينها أنهم وقعوا في شر أفعالهم، وكانوا يعلمون جيداً حزمه عندما يقرّر شيئاً، لذلك لم يكن أمامهم إلّا تنفيذ القرار.

لكنّ زعيم المنافقين عبدالله بن أُبَيّ أطل برأسه مجدداً، وأرسل إليهم ينهاهم عن الخروج، ويعدهم بإرسال ألفين من جماعته ليدافعوا عنهم. فعدلوا عن قرار النزوح، وتحصّنوا في حصونهم، وأرسلوا إلى الرسول قائلين: لن نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك[91].

لم يكن أمام الرسول إلّا الاستعداد للمواجهة. فطلب من رجاله التهيؤ لمقاتلة بني النضير، عقاباً لهم على غدرهم وخيانتهم للعهود والأعراف، فضلاً عن، خرقهم للدستور، وتنكّرهم لحالة السلم والأمن التي وفّرها لهم النبي الأكرم. وتحرك جيش المسلمين وطوّق بني النضير، واستعد للمواجهة.

انتظر اليهود أياماً طوالاً مساعدة حليفهم عبدالله بن أبُيّ، أو مساعدة يهود بني قريظة، لكن كما حدث لبني قينقاع، لم تأتِ. وبعد ستّ ليالٍ من الحصار والانتظار، قبلوا بالخروج مقابل أن يحقن الرسول دماءهم.

وفعلاً، سمح لهم بترك المدينة بسلام والتوجه إلى حيث يرغبون. لكنهم قبل أن يخرجوا خرّبوا بيوتهم لكيلا يستفيد منها المسلمون. فخرجوا إلى منطقة خيبر، ثم واصل بعضهم السيْر إلى بلاد الشام. ونزلت فيهم سورة الحشر، التي يقول الله فيها، إنه هو الذي انتقم منهم لنبيه وأخرجهم نتيجة ما كانوا ينوون فعله:

[هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ]

كان الشعور بحضور الله الحي في أحداث السيرة مثار اطمئنان المسلمين دائماً. فهو العليم، الحكيم، المقدر للإحداث ومسيرها. خصصت الآيات الأولى من سورة الحشر لأهل الكتاب، اليهود، وعقاب الله لهم. ولم ينس الحق عز وجل دور المنافقين. فخصص الآيات التي تليها من السورة نفسها لهم، يبين نفاق وكذب ما قالوا لحلفائهم:

[أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ (12)]

تمرّد بني المصطلق ودور المنافقين

إلى جانب خروج الرسول لقمع تمرد بني المصطلق الذين كانوا يتهيأون للهجوم على المسلمين في المدينة، تكمن أهمّية إلقاء الضوء على هذه المعركة الخاطفة تتبع غدر المنافقين أيضاً، وخطرهم الماثل على الإسلام والمسلمين. والأهم من هذا وذاك، هو رؤية حكمة الرسول في التعامل مع خصومه.

وتذكر السِّيَر، أنه عندما خرج الرسول (ﷺ) ورجاله لقمع مجموعة المتمرّدين خارج المدينة، كان عبدالله بن أُبَيّ في عداد مرافقي الرسول، ومعه جماعته من المنافقين. وعندما وصل رجال الرسول إلى المنطقة وحاصروا القبيلة، وقع خلاف بين أحد الأنصار وأحد المهاجرين على بئر ماء.

وعندما اشتد الخلاف بينهما، نادى الأول أتباعه: يا معشر الأنصار! ونادى الثاني: يا معشر المهاجرين! وكادت أن تثور العصبية القبلية، التي اعتقد الجميع أنها انتهت إلى غير رجعة، ويصطدم الطرفان. وحالاً، تدخل الرسول (ﷺ) بحزم، قائلاً: «ما بال دعوى الجاهلية؟! دعوها فإنها منتنة».

اعتبر الرسول الأكرم الدعوى القبلية دعوى جاهلية، دفنها الإسلام كموروث من مخلفات الثقافة الجاهلية. وقد وصفها بتعبير لافت حقاً؛ بالنتنة! وعليه، فكل ما هو مثار للشقاق، من عصبية قبلية أو عرقية أو تمييز بين المسلمين، هو شائن ونتن!

بيد أنّ عبدالله بن أُبَيّ وجدها فرصة لنبش رماد الجاهلية وفتح الجراح. فاستمرَّ يحرض أتباعه: أوَقد فعلوها! يقصد المهاجرين. فقال: لقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا. ثم أضافَ، موجهاً خطابه إلى الأنصار: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحولوا إلى غير داركم.

كان الهدف من هذا التحريض هو التمرد على المسلمين، والامتناع عن دفع الزكاة كجزء من ممارسة الضغوط الاقتصادية عليهم. وكانت الغاية منها شق صفوف المسلمين وإضعاف وحدتهم. ثم أقسم مهدّداً: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ! كان يقصد أنه سيخرج منها الرسول (ﷺ) الذي دخلها عزيزاً مكرّماً!

وحالاً، نزلت الآية الكريمة تبين أنّ عزّة الرسول والمؤمنين من عزّة ربهم: [يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ] [المنافقون 8].

ولم يكتف عبدالله بن أُبَيّ بذلك، بل زاد عليه بكلام مسيء بحق الرسول. كان موقفه، لا شك، يدل على كفره. والواقع، أن النبي (ﷺ) كان يعرف أنه منافق، ومن القوم الفاسقين، وربما يعرف أنه كافر.

لكنّ النبي الأكرم، الذي لا يحكم إلّا على الظاهر، لم يكفّره. فالسرائر من علوم الغيب. ومكان الإيمان في القلب، ولا يمكن أن يعلم به إلا الله عزّ وجلّ. وسيقول (ﷺ)، «لقد أمرت أن أحكم بالظواهر». وهو درس بليغ للمسلمين، فمن شأن الالتزام والاقتداء بهذا الموقف النبوي أن يجنّب المجتمعات الإسلامية الظلم، ناهيك عن التطرف والغلو.

وعندما سمع عمر بن الخطاب الإساءة إلى النبي، غضب غضباً شديداً، وطلب من الرسول أن يأمر بقتله، فرد النبي بأخلاق العفو والتسامح قائلاً: «كلا يا عمر! كيف إذا تحدث الناس أنّ مُحَمَّداً يقتل أصحابه؟».

من جانبه، سمع عبدالله بن عبدالله ما تفوّه به والده من الكلام المسيء. فأتى إلى رسول الله وقال له: لقد سمعت أنك قد تأمر بقتل عبدالله بن سلول، يقصد والده. فإن كنت فاعلاً فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه! لأنني لن أحتمل أن أرى قاتل والدي يمشي، فقد أضطر إلى قتله، وهكذا أكون قد قتلت مسلماً وأدخل النار. فردّ عليه الرسول قائلاً: «لا عليك، دعه، فلنحسننَّ صحبته ما دام بين أظهرنا»!

وعند عودتهم جميعاً إلى المدينة، تقدم عبدالله الابن، ووقف على مدخل المدينة ينتظر أباه. وعندما وصل الأب، شهر عبدالله بن عبدالله السلاح في وجهه، وأقسم قائلاً: والله لن تدخل المدينة قبل أن يدخلها مُحَمَّد (ﷺ)، ويأذن لك بدخولها. كان ذلك رداً بالغ الدلالة من الابن على وقاحة الأب. وفعلاً، دخلها الأعزّ أولاً، ومن بعده دخلها المنافق عبدالله بن أبُيّ.

من الواضح في موقف عبدالله من والده ما يبين درجة تفاني المسلمين لرسولهم. فكان مستعداً حتى لقطع رأس أبيه لو أمر الرسول بذلك! ولم يكن ذلك إلا تعبيراً عن معاني ذلك الحب الذي زرعه الرسول في قلوبهم. لكنّ الرسول (ﷺ) طلب منه أن يحسن معاملته. وذلك مع كل ما فعله هذا المنافق الكبير.

لم يرد مُحَمَّد (ﷺ) على إساءاته الكبيرة إلّا بالإحسان إليه، وأي إحسان. فعندما شارف عبدالله بن أبُيَّ على الموت، أتى ابنه إلى الرسول وطلب منه قميصه ليكفّن به أباه! فأعطاه الرسول ما طلب. ثم طلب منه أن يأتي ليصلي عليه، عسى الله أن يغفر له!

وفعلاً، ذهب الرسول ليصلي عليه، فقال له عمر: يا رسول الله، أتصلّي عليه وهو من هو، وتعلم أنه كان وراء موضوع الإفك. وقد نهاك ربّك عن ذلك؟ فردّ الرسول قائلاً: إنما خيرني الله فقال: [اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ] [التوبة 80]. فاخترت أن أصلي عليه، وسأزيد على السبعين!

بالطبع، لم تكن في الموقف النبوي مخالفة لأمر الله عزّ وجلّ، بل درساً الغاية منه تعليم المسلمون، وغير المسلمين، روح التسامح والعفو. وهنا صورة أخرى من مكارم الأخلاق. والحال، أن الله تعالى قد أيد موقف عمر، ونزلت آية مكمّلة لسورة التوبة: [وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ] [التوبة 84].

ومهما يكن من أمر، يذكر بعض العلماء، أنه كان لموقف الرسول نتائج إيجابية على بعض المشركين. فقد أسلم قرابة الألف منهم، بسبب تعامل سيدنا مُحَمَّد، بأخلاقه الربّانية، مع خصمه الكبير في المدينة عبدالله بن أُبَيّ.

الفصل السابع
معركة الخندق وتحول مجرى التاريخ

تُعرف معركة الخندق، بمعركة الأحزاب أيضاً. والحال، أنها كانت معركة إيمان وأعصاب أكثر منها مواجهة مسلحة. ومع ذلك سيكون من نتائجها تغير مجرى التاريخ الإسلامي. فبعد أن تم طرد بني النضير من المدينة، لم يبق فيها من اليهود إلّا بنو قريظة. وقد ضمن لهم تعاهدهم مع الرسول (ﷺ) الأمن والاستقرار والعيش المشترك في المدينة.

بيد أنه بوصول بني النضير إلى خيبر، استقبلهم اليهود هناك استقبال الأبطال. وتحولت خيبر إلى أكبر تجمّع لليهود في الجزيرة. ومثلت مركزاً لصهيونية ذلك العصر. شكل الطرفان، بنو النضير مع يهود خيبر، نواة لجبهة عريضة، ستضم قريشاً وقبائل المشركين المعادية للرسول. وكان الهدف المعلن لها هو تسديد ضربة ساحقة للمسلمين في المدينة وتصفيتهم.

وفعلاً، اتفق التجمع اليهودي في خيبر على إرسال وفد من زعمائهم إلى مكّة؛ فأرسل اثنين من بني النضير واثنين من بني وائل. ويذكر أنهم حيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمّار الوائلي.

فأتوا إلى قريش بمشروعهم الشيطاني، وقالوا لهم: إنّا سنكون معكم عليه، حتى نستأصل مُحَمَّداً وأتباعه. ولم تكن قريش تنتظر أكثر من ذلك. فرحّب بهم أبوسفيان قائلاً: أهلاً ومرحباً، أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة مُحَمَّد[92]!

وسأل أحد زعماء قريش اليهود، قائلاً: يا معشر اليهود، إنكم أهل الكتاب الأول، وتعلمون ما أصبحنا نختلف فيه نحن ومُحَمَّد.. أفديننا خير أم دينه؟[93] وقد يتبين من السؤال الجاهل الذي وجهته

قريش إلى اليهود، أنهم كانوا في شك من عقيدتهم الوثنية، ولكن ماذا يتوقع من اليهود أن يردوا؟ أينطقون بالحق وهم له منكرون؟

فقالوا: بل دينكم خير من دينه. وأنتم أولى بالحق منه! كيف يكون عبدة الأوثان أفضل عند الله، في فكر أو اعتقاد اليهود الموحدين، من دين ٍيدعو إلى الله الواحد، وينهى عن الشرك والإثم والفواحش؟! لكن هل كان متوقعاً من اليهود أن يقولوا غير ذلك؟ فغيهم المشهود وفسادهم في الأرض دفعاهم إلى التنكر لدين الله، وفضّلوا الوثنيين المشركين على المسلمين.

لكنّ الله تعالى لا يفوّت الأمور دون أن يبين رأيه فيهم، ويكرر لعنته عليهم. ونزلت آيات من سورة النساء: [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (51) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (52)].

وفعلاً، تم تشكيل جبهة عريضة من القبائل، وقد استجابت لهذا المشروع أربع قبائل رئيسة من المشركين؛ منها قبيلة غطفان الكبيرة، وبنو فزارة، وبنو مرّة، وأشجع، بزعامة قريش[94]. وفي مطلع السنة الخامسة من الهجرة، تم الاتفاق، بين تلك القبائل المشركة واليهود. وسيعرف هذا بتحالف الأحزاب.

وقد تعاهدوا ألاّ يعودوا من المدينة، إلّا بعد إبادة المسلمين إبادة نهائية، واستئصال الإسلام من على وجه الأرض! وفعلاً، تحرك جيش من عشرة آلاف مقاتل مصمم، بقيادة أبي سفيان بن حرب، إلى المدينة. وكان على الجيش أن يقطع أربعمئة كيلو متر، بين مكّة والمدينة، في غضون عشرة أيام.

وعندما عرف المسلمون بتحرك هذا الجيش الجرّار إليهم، جهزوا قواتهم التي لم تزد على ثلاثة آلاف رجل. ولا شك، أن الفارق الكبير في العدد كان مثار قلق وخوف لدى المسلمين. ولكن، ولحسن التقدير، وبناءً على اقتراح سلمان الفارسي، حفر خندق طوله ستة كيلومترات تقريباً، وعمقه أربعة أمتار، وعرضه أربعة أمتار، على امتداد المنطقة المفتوحة حول المدينة. وكان يجب أن يتم الانتهاء من هذا المشروع الدفاعي قبل وصول الأعداء، أي في أقل من عشرة أيام.

والمعروف أن المدينة شبه مطوقة بالموانع الطبيعية، بالكرات البركانية، ما يوفر لها نوعاً من الحماية من أكثر من جهة. فليس بإمكان الجمال مثلاً أو الخيل أن تمرّ فيها. ومن الصعب الدخول إليها إلّا من هذه المنطقة المفتوحة الموازية لجبل أُحد. كان المسلمون يعملون، ليل نهار، وبجهود استثنائية. يحفرون بأيديهم أو بما توافر لهم من الأدوات البسيطة المتاحة.

وكان الرسول (ﷺ) يشاركهم في العمل نفسه، يحمل الرمال والصخور كما يحملون، وكذلك فعل الصحابة كلهم. وكان عمر بن الخطاب يحمل الحجارة والرمل في ثوبه، لعدم توافر أدوات كافية لنقل الرمل. علماً بأن عمر في الجاهلية، لم يكن ليحمل حجراً صغيراً واحداً، حتى لو أعطي ذهب الجزيرة كله. لكن ها هو الآن، بفضل التربية النبوية، التي أعادت صوغ وجدان هؤلاء الرجال، أصبح رمزاً للتواضع والتضحية.

وفعلاً، تم الانتهاء من الحفر مع وصول الجيش الغازي. وغنيٌّ عن القول، إنّ المفاجأة كانت كبيرة. فعندما وصل جيش الأحزاب إلى المدينة، وجد الخندق أمامه. ما سبّب حيرةً وارتباكاً كبيرين لدى قادته، فأُوقف الزحف والهجوم المباشر. وانتصارهم، كما هو معروف، كان يعتمد على عاملين أساسيين؛ كثرة العدد، والهجوم السريع.

فلم يعد مشروع الهجوم الكاسح ممكناً. وذهبت مخططاتهم أدراج الرياح، وتبدد الأمل في إمكانية الحسم السريع والانتصار. ومع سقوط مخططاتهم الكبيرة، بدأ العجز والارتباك يهز معنوياتهم . وكما رأينا في معركتي بدر وأُحد، غالباً ما تدوم معارك ذلك العصر يوماً أو يومين لا أكثر، لتنتهي بالنصر أو الهزيمة. لكن إذا طالت تدخلت عوامل جديدة، وعندها تكون النتائج مجهولة تماماً.

وهنا يتبين لنا أنّ قدر مجيء سلمان الفارسي، كان قدراً ربّانياً محسوباً. فلم يبعثه إلى المدينة، بعد بحثه الطويل والمضني عن الحقيقة، ليلتقي الرسول ويسلم على يديه، إلّا لهذه المهمّة. فلم تكن فكرة استخدام الخنادق عند العرب موجودة، في حين أنها كانت من وسائل الدفاع المعروفة عند الفرس خصوصاً.

وعندما أدرك المشركون واليهود استحالة الهجوم، تمركزوا حول الخندق. وبدأت قواتهم تبحث عن ثغرات للدخول إلى المدينة. ودخل الطرفان في مناوشات متقطّعة بالنبال. والواقع، أنه

حتى مع إيقاف الزحف، لم تكن المدينة مطمئنة كل الاطمئنان.

كانت خشية المسلمين لها ما يبرّرها. فإلى جانب عددهم القليل، مقارنة بجيش الأعداء، كان قلق المسلمين الشديد نابعاً، أساساً، من خوفهم على نبيهم ودينهم، ثم من خوفهم على عائلاتهم وأطفالهم من الموت والإذلال؛ لأن مصير الأسرى المدنيين في أعراف حروب ذلك الزمان، هو السبي والبيع. فضلاً عن ذلك، كانت المؤن قليلة، والبطون خاوية.

ومن جانب آخر، ومع المناوشات المتقطّعة، تمكن ثلاثة من قادتهم من اختراق الثغرات. وكان من بينهم فارسان تاريخيان من قريش؛ عمرو بن عبدود، المهاب من الجميع، وعكرمة بن أبي جهل. وبدخوله الساحة، بدأ عمرو يستعرض فروسيته متحدّياً ويطلب المبارزة.

وعندما تأخر خروج أحد من المسلمين للمبارزه، بدأ يرفع صوته مستهزئاً: ما بالكم خائفون؟ أين جنتكم التي تتحدّثون عنها؟ ألا ترغبون في الذهاب إلى الجنّة؟! تعالوا، أبعثكم إليها! وعندما تأخّر الجميع، بادر علي بن أبي طالب وخرج لمواجهته. وما أن رأى عمروٌ، علياً، متقدماً للمبارزة، استخف بهذا الشاب العشريني.

كيف يتجرأ على مقابلة فارس قريش الذي يعد بألف رجل؟! فقال له علي: يا عمرو، إنك قد عاهدت الله ألّا يدعوك رجل من قريش إلى أحد الأمرين، إلّا أخذته منه. فقال عمرو: أجل! فقال علي: فإني أدعوك إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام. فردّ عمرو: لا حاجة لي بذلك!

ثم رد له علي قائلاً: فإني أدعوك إذن، إلى النزال! هنا تظهر لنا التربية المُحَمَّدية. كان هذا الشاب، الذي يبدو أمامه كأحد أحفاده، واقفاً أمام هذا الفارس المهيب، دعاه بكل ثبات وثقة إلى الإسلام، وعندما أبى طلب منه المبارزة، بكل اعتزاز وهدوء أعصاب!

كان عمرو صديقاً لوالده أبي طالب، فقال له: والله ما أحب أن أقتلك. فردّ عليه عليّ قائلاً: ولكنّي والله أحب أن أقتلك! فاغتاظ من تحديه، من يتجرأ على ذلك؟ فترّجل عن حصانه ونحره تعبيراً عن تصميم مطلق والقتال حتى الموت[95].

لم يهتز عليّ من ذلك المنظر المخيف، وظل هادئاً ومتماسكاً. وتقابل هذا الشاب الممتلئ إيماناً وثقة، وذاك المشرك الضخم الممتلئ كبرياءً وغضباً. كان الجميع خائفاً على عليّ. لكن ما هي

إلا جولات سريعة حتى سقط عمرو صريعاً. فهلل المسلمون وكبروا وكأنهم لم يصدقوا ما رأوا. وبسقوطه، سقطت قلعة من قلاع الكبرياء والجاهلية في قريش. وحاول الآخرون الفرار. فلحق بهم الصحابة وقتلوا أحدهم، ونجا عدو المسلمين الآخر عكرمة بن أبي جهل.

وبقدر ما كان ذلك مفاجأة لم تكن في الحسبان، وبداية سيئة لقريش، مثّل انتصاراً معنوياً كبيراً للمسلمين. وبعد ذلك بقليل، طلب الأعداء أخذ جثة عمرو، مقابل دفع عشرة آلاف درهم. فردّ الرسول قائلاً: «خذوه، فإنا لا نأكل ثمن الموتى!». ظنّوا أنّ المسلمين، وفي ظروفهم القاهرة، سيقبلون عرضاً دنيئاً كهذا، بيد أن الرسول أعطاهم درساً في الكرامة وعزّة النفس.

الغدر المعهود

وفي هذه الأثناء تحديداً حدث الغدر الكبير. وكأن المصائب لا تأتي إلاّ مشفوعة. فبانت في الأفق خيانة يهود بني قريظة، وتخليهم عن التعهد بالسلم والعيش المشترك مع الرسول، وأعلنوا تحالفهم مع الأعداء، ما شكل تهديداً حقيقياً للمسلمين في المدينة. وكان من شأنه أن يفتح ثغرة كبيرة في دفاعاتها.

واللافت، أنه عندما أتى حيي بن أخطب، وهو أحد يهود خيبر المعروفين بشدة العداء للمسلمين، إلى زعيم بني قريظة، كعب بن أسد القرظي، ليقنعه بالتحالف مع القوات المعتدية، رفض الأخير، في البدء، تلك الدعوة، قائلاً: إني قد عاهدت مُحَمَّداً، فلست بناقض ما بيني وبينه. ولم أرَ منه إلّا الصدق والوفاء.

فردّ عليه حيي بن أخطب: ويحك يا كعب، لقد جئتك بعز الدهر! جئت بقريش وبغطفان، وقد عاهدوني ووعدوني ألاّ يبرحوا حتى نستأصل مُحَمَّداً ومن معه. فرد كعب: جئتني والله بذل الدهر، فدعني وما أنا فيه.

لكنه في الأخير، عندما وعده قائلاً، لئن تراجعت قريش وغطفان، ولم يتمكّنوا من مُحَمَّد، سأدخل معك في حصنك، وأتحمّل ما قد يصيبكم. عندئذ، خضع كعب بن أسد لإغراءات حيي بن أخطب، وأعلن التنكر للعهد مع المسلمين، والتحالف مع الأحزاب[96].

وهكذا، ومع إقرارهم الصريح بأنهم لم يروا من مُحَمَّد إلّا صدق القول والوفاء طوال وجودهم، تنكروا لالتزامهم معه، فداسوا على المعاهدات، وخرقوا دستور المدينة، الذي ضمن لهم الأمن والاستقرار. علماً أن إحدى مواده تنص على ضرورة الدفاع المشترك عن المدينة، في حال تعرّض أي طرف فيها للاعتداء.

إذن، تنكروا للعهود ولمبدأ العيش المشترك، الذي جعلهم شركاء محترمين وآمنين في المدينة، وارتكبوا الخيانة العظمى. ولكنهم سيدفعون ثمنها غالياً. وهم يعلمون جيداً ما حل ببني النضير ومن قبلهم ببني قينقاع. فكل من حاول المسَّ بالمسلمين، لم يكن أمامه، في آخر المطاف، إلّا النزول على حكم السماء ودفع الثمن. وهذا ما سينتظرهم.

وغنيٌّ عن القول، أنه عندما سمع الرسول عن خيانة بني قريظة، استاء كثيراً وانزعج من موقف اليهود. وبعث إليهم سعد بن معاذ، صديقهم القديم، على أمل ردّهم إلى صوابهم. فأتى يذكرهم بالعهد بينهم وبين الرسول، وبحالة السلم والاستقرار اللذين كانوا يتمتعون بهما في المدينة. وطلب منهم عدم الإقدام على أمر من شأنه أن يشكل خطراً على المسلمين. لكنه وجدهم متحصّنين ويستعدون للحرب. وأكثر من ذلك، واجهوه بأسوأ استقبال. ثم ردوا عليه قائلين: «لا عهد له عندنا»!

بالطبع لم يكن متوقعاً من اليهود الاشتراك في الدفاع عن المدينة، ولم يطلب منهم ذلك. علماً بأن أحد بنود دستور المدينة، كما أسلفنا، يلزمهم بذلك. ولكن مجرد تحييدهم كان يمكن أن يعتبر، وفي ظروف كهذه، مكسباً للمسلمين. لكن من دأب اليهود التنكر للعهود والوعود.

وهكذا، بإسقاطهم العهد مع الرسول، شكلوا ثغرة خطرة في دفاعات المسلمين؛ إذ كان بإمكان بعض القوات الغازية أن تدخل المدينة عبر منطقة بني قريظة. وفعلاً، بدأوا هم يمدون جيش المشركين بالمؤن والغذاء. وقد تمكن المسلمون من مصادرة بعضها.

لقد أضاف تنكر اليهود للتعهد القانوني والأخلاقي، توتّراً على قلق المسلمين المبرّر. فزادت خطورة الوضع، واشتدت المحنة أكثر. حتى أن أبو بكر قال آنذاك: كان خوفنا على الذراري في المدينة من بني قريظة، أشد من خوفنا من قريش.

لم يبق أمام المسلمين أي خيار، سوى مواجهة كل قوى الشر مجتمعة، ولكن عليهم أن يمروا بالتجربة كاملة قبل ذلك. والله تعالى يصف الأمر في سورة الأحزاب، بقوله: [إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ

وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (11)].

فعلاً، لقد جاؤوهم من فوق ومن أسفل، وأحاطوا بالمسلمين من كل حدبٍ وصوب. ولنتذكر، أنّ تعداد جيش قريش كان يفوق كل سكان المدينة وجيشها. ولولا الخندق، ولو تمكنوا فعلاً من الهجوم المباشر المخطط له، لأوقعوا ضربة كبيرة من شأنها إبادة المدينة بمن فيها.

ولاشك البتة، أنّ الله، في الأخير، سيحمي رسوله وأتباعه. فلم يبعث الله رسوله لكي يهزم ويذل. ولم يخلق المسلمين لكي يبادوا. والله يطمئنهم بقوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ الله لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. لكن بشرط واحد أن يكونوا مؤمنين حقيقيين، لا مجرد مسلمين. وثمة بون واسع بين المسلم والمؤمن.

لم يأتِ الرسول إلاّ ليحمل المؤمنين رسالة السماء، فعليهم أن يكونوا جديرين بحملها. والمؤمنون وحدهم القادرون على حملها لا المسلمون فقط. إذن، لم يبقَ عليهم إلاّ أن يمرّوا بهذا الإبتلاء المقدر بحكمة بالغة، كمسار إلزامي للتحول، لتتطهر قلوبهم ويصلوا أخيراً إلى الحالة الإيمانية التي يريدها الله.

باستثناء التراشق بالنبال، لم تحدث مواجهة حقيقية بين الفريقين. كان الوضع في حالة انتظار لأمر ما يمكن أن يغيّر سير الأحداث ونتائجها. كانت معركة أعصاب حقيقية، وإذا كان لدى المشركين جيش جرار، فإنه لم يكن لديهم إيمان يستندون إليه. ولا شك، بأنه كان لدى المسلمين الأمل بالله واليقين بأن الله لن يخذل من يقاتل ويستشهد لنصرة رسوله الأكرم.

وفي هذه الأثناء، أصيب صديق الرسول، سعد بن معاذ بجرح بالغ من نبل أصابه، وكان في حالة خطرة. ودعا دعاءه المشهور: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قومٌ أحب إليَّ أن أجاهدهم من قومٍ آذوا رسولك وكذّبوه وأخرجوه. اللهم إن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة. ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة[97].

وفعلاً، سيحقق الله لسعد بن معاذ دعوته قبل أن يرحل. فستعاقب بني قريظة على خيانتها للمسلمين، وسيكون هو القاضي الذي سيحكم عليهم. وبانتصار المسلمين في الخندق لن تكون هناك حرب أخرى مع قريش، ولن تغزى المدينة بعد هذا الزلزال مرة ثانية.

باحثاً عن مخارج لشق صفوف الأعداء، فكر الرسول في تحييد قبيلة غطفان، وهي كبرى القبائل المتحالفة مع قريش. فكر بأن يتعهد لهم بنصف إنتاج المدينة من التمر، مقابل أن يفكوا تحالفهم مع قريش ويعودوا إلى ديارهم. وهكذا يستطيع إضعاف جبهة الأعداء. وعرض الفكرة على الصحابة ومنهم سعد بن معاذ، فرد سعد قائلاً: يا رسول الله أمرٌ تحبه فتصنعه لنا، أم أمرٌ أَمَركَ اللهُ به، ولا علينا إلّا اتباعه؟

فردّ الرسول قائلاً: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما صنعت ذلك إلّا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ، وتكالبوا عليكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم هذا التحالف». فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، ولم يكونوا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة واحدة. فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا إليه، وأعزّنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟! والله لا نعطيهم إلّا السيف حتى يحكم الله بيننا![98]

طبعاً، كان بإمكان الرسول أن يتخذ القرار، ولن يرفض تنفيذه أحد منهم حتى وإن كان معترضاً عليه، بل سينفذون أوامر قائدهم بكل سرور. لكنّ الرسول الأكرم ليس بالحاكم المستبد، بل على النقيض من ذلك تماماً، يرفض الاستبداد، ويمقت أهله، ولذلك تقبل رأي صحابته. وإذا كان في هذه القصة الرمزية شيء ما، فهو أنّ مبدأ الشورى في الإسلام مبدأ مركزي، في الحرب كما في السلم، ويلتزم به حتى رسول الله.

في هذه الأثناء، ساقت الأقدار نعيم بن مسعود الغطفاني، وهو أحد حكماء ودهاة قبيلة غطفان، المتحالفة مع قريش. فأتى الرسول، وقال له: أنا أسلمت يا رسول الله، وإنّ قومي لا يعلمون بإسلامي، فمرني بما شئت. فقال الرسول: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنا إن استطعت فإنّ الحرب خدعة».

أخذ نعيم بن مسعود مباركة الرسول وانطلق يؤدي دوره المقدر له. وحتى كفرد، سيكون له دور كبير في خلق شق في صفوف الأحزاب. فذهب أولاً إلى بني قريظة. وكانت بينهما صلة قديمة. فقال: يا بني قريظة، تعلمون بمودتي لكم والعلاقة الخاصة بيننا، فقالوا: صدقت نعلم بذلك.

فقال لهم: إنّ قريشاً وغطفان ليسوا كما أنتم. المدينة بلدكم، فيها أموالكم وأبناؤكم، ونساؤكم. وليس بمقدوركم تركها والتحول منها إلى غيرها. وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب مُحَمَّد وأصحابه، وقد تعاونتم معهم عليه. وبلدهم وأموالهم ونساؤهم ليست هنا. فإن رأوا الفرصة انتهزوها، وإلا عادوا إلى بلادهم. وتركوكم ومُحَمَّداً. وأنتم لا طاقة لكم عليه إن تفرّد بكم.

اقتنعوا برأيه وطلبوا منه المشورة. فقال لهم: أقترح عليكم ألا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رجالاً من أشراف رجالهم رهناً. يظلون معكم حتى تنتصروا على المسلمين. فقالوا له: لقد أشرت بالرأي الصائب! وطلب منهم كتمان الأمر، ووعدوه بذلك!

ثم انطلق إلى قريش، وقابل أبا سفيان بن حرب، وكان معه من كبار رجالاتها، فقال لهم: تعرفون ودّي لكم، وموقفي من مُحَمَّد. قالوا: نعم! فقال: لقد بلغني أمر فقد رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه، نصحاً لكم فاكتموه عني!

فقال لهم: تعلمون أنّ معشر اليهود قد ندموا على الإخلال بالتعهد بينهم وبين مُحَمَّد. فأرسلوا إليه يعبّرون عن ندمهم على ما فعلوا، وقالوا له: هل يرضيك عنا، إن أخذنا لك من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم ونسلمهم لك لتضرب أعناقهم، ثم نقاتل معك البقية حتى نستأصلهم، وليعود عهدُنا السابق؟! وقد ردّ عليهم مُحَمَّد بالموافقة!

ثم أضاف: أنصحكم إن بعث لكم اليهود يطلبون منكم رهناً من رجالكم فلا تبعثوا إليهم برجل واحد منكم. فشكروه على هذه النصيحة. وذهب إلى قبيلته، بني غطفان، حلفاء قريش، وأخبرهم بما أخبر قريشاً. ولكونه منهم، لا يمكنهم إلّا أن يصدّقوه.

وبالفعل، بعث قائد قريش أبو سفيان، يطلب من بني قريظة الاستعداد لحسم المعركة في اليوم التالي. وصمت التاريخ عن كيف كان يفكر في حسمها. وصادف ذلك اليوم أنه يوم سبت. فردوا عليه: إننا، أولاً، لن نحارب معكم في يوم السبت. وثانياً، لن نحارب قبل أن تعطونا من رجالكم رهناً نضمن به أنكم إذا فشلتم لن تتركونا وحدنا في مواجهة هذا الرجل![99]. طبعاً رفضت قريش ذلك العرض تماماً. وفعلاً، أفلحت جهود نعيم بن مسعود، فتصدّعت صفوف الأعداء ودبَّ فيهم الشقاق.

تضرع الرسول (ﷺ)

ثمة دروس بحجم المحن والابتلاءات. وكما يتأكد لنا في السيرة النبوية، أنه من عمق المحنة تنبت شجرة الإيمان لتشرق في قلوب الصالحين. فما على المسلمين، إن أرادوا النصر، إلاّ أن يكونوا مؤمنين حقاً، لا مسلمين فقط. وليس ثمة مسار آخر، إلاّ التطهر للوصول إلى حالة الإيمان المطلق والتوحيد الواعي لإرادة الله. والقرآن يؤكد:« وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ».

مثلت محنة الخندق، المحنة الكبرى في التاريخ النبوي. وكما حدث في معركة أُحد، الأمر يتكرر هنا على نحو مركب ومضاعف. وكما ذكرنا، فمن غايات المحن أيضاً، فرز المؤمن الحقيقي من المنافق، من الخبيث المندس دائماً في الصفوف. والحال، أنه يمكن تصور تجربة حرب الخندق كالزلزال الكبير الذي أتى ليطهر المسلمين كما يصفى المعدن الثمين بالنار من الشوائب العالقة به ليصبحوا مؤمنين كما يريد الله لهم أن يكونوا.

كان الرسول يراقب سير الأحداث بدقة، وقلبه مرتبط بالسماء ينتظر الرحمة. يرفع معنويات رجاله، يغذّي الأمل في قلوبهم ليتجاوزوا هذا الابتلاء الكبير. ولا شك، أن تحقّق ذلك سيكون نصراً عظيماً من الله. وكان يدعو الله متضرّعاً إليه: «اللهم منزّل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهمّ اهزمهم وزلزلهم».

بيد أنّ ما كان لافتاً جداً، أنه في عمق الشِّدة والبلاء، أتى الرسول يبشّر أتباعه قائلاً: «والذي نفسي بيده ليفرِّجَنَّ الله عنكم ما ترون من شدة. وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً، وأن يدفع الله إليّ مفاتيح الكعبة، وليُهلكَنَّ الله كسرى وقيصر، ولتُنفقُنَّ كنوزهما في سبيل الله!».

نعلم أن كل نبوءات الرسول صادقةٌ وقد تحقّقت الواحدة تلو الأخرى. وكمبعوث السماء إلى الأرض لا ينطق عن الهوى، وخصوصاً في ظرف كهذا، لا ينطق إلا بوحي أو بإلهام من ربّه، والمعركة مصيرية سيقرّر فيها مستقبل الإسلام والمسلمين.

وغنيٌّ عن القول أن النبوءات رفعت من معنويات المؤمنين واطمأنت قلوبهم أكثر. أما المنافقون الذين في قلوبهم مرض، فإنهم عندما سمعوا ما يقوله الرسول أظهروا كثيراً ممّا كانوا يسرّون. وبدأ يظهر الفرز الذي أراده الله، فمنهم من انسحبوا بحجة خوفهم على بيوتهم. وكأنّ الدفاع عن المدينة لن يحمي بيوتهم، مثلما سيحمي بيوت المسلمين.

ومنهم من علق على كلام الرسول بوقاحة المنافق المعهودة قائلاً: يعدُنا مُحَمَّد أن يفتح كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه يذهب إلى الغائط![100]. وحالاً، نزل الرد الإلهي عليهم في سورة الأحزاب، بقوله:

[هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (13)].

تكشف هذه الآيات الكريمة حقيقة ما كان يفكر فيه المنافقون سراً، والله يعلم السّر وما يخفى. وهذه أحدى النتائج الإيجابية لهذا الزلزال الكبير، فخرج المنافقون من صفوف المؤمنين وظل المؤمنون الصالحون، بقت النخبة المختارة التي طهرها الله وهيئها لتواصل المسار الرباني مع نبيه الأكرم.

معجزة السماء

وبعد ثلاثة أسابيع من الحصار والبلاء، قدر الله أن تتدخل الطبيعة لتفعل فعلها، وتسهم بقدرٍ سماوي في إنقاذ المؤمنين. أتت معجزة كبرى بحجم الابتلاء، فهبت عليهم عاصفة شعواء، لم يعرف لها مثيل من قبل في المنطقة، وما هي إلا لحظات حتى أطفأت النيران، وطارت الخيم ومعها المؤن، ودب الخوف في نفوسهم.

ومن شدة العاصفة، كان أفراد الجيش بالكاد يستطيعون الوقوف على أرجلهم، هم وجمالهم. ولم يعد ممكناً البتة البقاء في حصارهم، بلا خيام تحميهم من شدة العواصف والبرد، ولا مؤن أو نار تشعل لغذائهم. وفوق ذلك خافوا أن يقوم جيش المسلمين، الذي رأى أنّ العاصفة لم تأتِ إلّا لتنصرهم، بانتهاز الفرصة، ويوجه إليهم ضربة لن ينسوها.

ومن هول العاصفة والخوف الذي ملأ قلوبهم، قرّر أبو سفيان الرحيل حالاً، وأعطى أوامره بذلك دون مشاورة حلفائه. وكان أول من امتطى جمله في عجلة من أمره، ولم ينتظر حتى يتحرك الباقون من جماعته. ونزلت آية الله تؤكد أن الله لن يخيّب رسوله والمسلمين. ويقول الحق في سورة

الأحزاب: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا]

استيقظ المسلمون على فجر المعجزة، فجر الرحمة والنصر الإلهي. لم تشرق الشمس بعد، لكنّ العاصفة قد هدأت، وكانت السماء صافية. ولم يجدوا أعداءهم أمامهم وكأن شيئاً لم يكن. لم يبق لا رجال ولا خيام ولا جمال، اختفى كل شيء، ولم يبقَ لهم أثر.

وعندئذ شعر المسلمون بالعناية الإلهية تحيط بهم، ذاقوا طعم الرحمة وسكنت القلوب وتنفّسوا الصعداء. ونظر الرسول إلى أصحابه وكان وجهه مشعاً بالأنوار، وقال: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده» ثم قال: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا!».

ويكتب دويدار: لم تكن غزوة الأحزاب هذه معركة ميدان، لم تكن ثمة مواجهة فعلية، بل كانت معركة أعصاب، وامتحان عزائم، واختبار قلوب. ومن أجل هذا أخفق فيها المنافقون وانتصر المؤمنون. فبمقدار ما أظهر المنافقون من الجزع والشك والضعف، أظهر المؤمنون من الجلد والصبر، ما دل على قوة عزيمتهم المجبولة بالإيمان. فقد أراد الله تعالى بهذه الشدة أن يبتليهم ويمتحن إيمانهم. ولما نجحوا في هذا الامتحان النجاح الباهر، مدّ الله إليهم يده الرحيمة، واستنقذهم بنعمته من براثن أعدائهم [101].

ثم اكتملت سورة الأحزاب لتصف موقف السماء من المنافقين، ويقول الحق تعالى: [وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (25).

حقاً، لقد كفى الله المؤمنين شر القتال. ولم ينقذ المؤمنين من الإبادة الحقيقية إلّا العناية الإلهية وحدها. بيد أنّ المسلمين قد هيأوا الأسباب الإيمانية لتنزل رحمة الله عليهم. فعندما تم امتحان الله، في هذه الشدة الجماعية، وعندما فرز المنافقين وكشفهم، وثبّت المؤمنين على إيمانهم، حان وقت الإرادة الإلهية لتنتشل المؤمنين، وتخرجهم من ابتلائهم الكبير.

«وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ». لقد خرجوا كما أراد الله بقلوب مطهّرة، ونفوس مزكاة، وإرادة حديدية، وما عليهم إلا الاستعداد للمرحلة المُحَمَّدية الثالثة. فقد بدأت الدعوة في مكّة، وأشرقت في مرحلتها الثانية في المدينة. واليوم بعد الخندق، ستنطلق عائدة إلى مكّة مجدداً، لتبدأ المرحلة الرسولية الثالثة، وليتمم الله بها نعمته على المسلمين.

بنو قريظة: الخيانة والعقاب

يمكن اختصار قصة بني قريظة، بالخيانة والعقاب. إنه الغدر اليهودي المعهود في كل التاريخ البشري، والعقاب الربّاني الذي لا رادَّ له. فمثلما حاول بنو النضير قتل النبي، خان بنو قريظة العهد مع الرسول المحاصر، وتحالفوا مع الأعداء. ومعهم بنو النضير ويهود خيبر، بزعامة قريش، في حرب على المسلمين كادت تستأصل الإسلام من على وجه الأرض.

وتذكر السِّيَر، أنه بعد رحيل جيش الأعداء خائبين مدحورين بقضاء الله، عاد المسلمون ومعهم الرسول إلى منازلهم، وألقوا أسلحتهم. وكان المسلمون في حاجة لاستعادة أنفاسهم بعد هذا الابتلاء الكبير. في أمس الحاجة لقضاء بعض الوقت مع أهلهم وأطفالهم.

بيد أنه بعد ظهر ذلك اليوم، الأربعاء، وفق ما تذكر السيدة عائشة، رضي الله عنها، أتى جبريل إلى الرسول (ﷺ)، وقال له: «أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟» قال: «نعم!» فقال جبريل: «إن الله عزّ وجلّ يأمرك، يا مُحَمَّد، بالسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم».

لقد حلّ غضب الله تعالى على اليهود الذين تحالفوا مع المعتدين لإبادة المسلمين في المدينة. ولذلك لم يمهل الرسول وأتباعه حتى ليلة واحدة للراحة بعد عناء الحصار والشدة التي حلت بهم. فأمره بالتوجه إليهم، ليعاقبهم على غدرهم. وبدوره، أمر الرسول أصحابه بإعداد الجيش، والخروج حالاً، وأعطى قيادة الجيش لعلي بن أبي طالب.

وقال لهم الرسول: «لا يصلين أحدكم العصر إلّا في بني قريظة». وتحركوا، وعندما وصل الجيش واقترب من منازلهم، سمع عليّ منهم السب والكلام الجارح للرسول. وقبل أن يصل الرسول إلى منطقتهم، استقبله عليّ وطلب منه عدم الاقتراب. فسأله الرسول: «لِمَ؟ أظنك سمعت منهم لي أذى؟» فقل: نعم يا رسول الله. فقال: «لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً».

وغنيٌّ عن القول، أنه لم يكن ممكناً للمسلمين ترك اليهود في المدينة، والتعامل معهم وكأن شيئاً لم يكن. والحال، أنّ تغيير موقف بني قريظة، لم يكن مجرد التنكر للعهد الذي ضمن لهم الأمن والاستقرار، بل شعر المسلمون المحاصرون بطعنة خنجر سام في ظهورهم، وهذا الفعل في ظروف الحرب خيانة عظمى. لا تقرها القوانين ولا الأعراف الأرضية، فكيف تقرها شرائع السماء؟!

طوّق الجيش منطقة بني قريظة تطويقاً محكماً، وطالبهم بالنزول لحكم الله فيهم، وبدأ التشاور فيما بينهم عن مخرج لهم. وبعد خمسة عشر يوماً تقريباً، وقد اشتد عليهم الحصار، بعثوا ممثلهم شاس بن قيس، ليفاوض الرسول.

فطلبوا منه أن يعاملهم كما عامل بني النضير، فيتركوا السلاح ويخرجوا هم وأموالهم ونساؤهم وأولادهم، فرفض الرسول. فقال شاس: تحقن دماءنا وتعطينا النساء والأولاد ولا نأخذ من أموالنا شيئاً. فرفض الرسول عرضه الثاني طالباً منهم النزول لحكم الله. فعاد إلى جماعته وأخبرهم بالقرار النهائي.

فأيقنوا تماماً أنه لم يعد أمامهم أيّ خيار إلّا حكم الله. وهنا تحدث إليهم زعيمهم كعب بن أسد، وهو الذي قد أقر بأنهم لم يروا من مُحَمَّد (ﷺ) إلّا الوفاء والصدق. فقال لهم: لديّ ثلاثة آراء، فخذوا أيها شئتم؛ إما أن نصدق هذا الرجل ونُسلِم. فوالله لقد تبينّ لكم أنه نبي مرسل، وهذا ما تجدونه في كتابكم. وهكذا، تأمنون على دمائكم وأبنائكم ونسائكم. فرفضوا قائلين: لا نفارق حكم التوراة أبداً.

فقال لهم: إن أبيتم، فهلم نقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى مُحَمَّد وأصحابه، رجالاً مُصْلَتي السيوف، ولا نترك ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين مُحَمَّد. فإن هلكنا نهلك ولا نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجد النساء والأبناء! قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟!

ثم قدم لهم كعب بن أسد خياره الثالث: فإن أبيتم عليّ هذا، فهذه الليلة ليلة سبت. وقد يكون مُحَمَّد وأصحابه قد أمنوا فيها، فلننزل لعلنا نفاجئ مُحَمَّداً وأصحابه. فقالوا: أنفسد سبتنا! وعندها صرخ فيهم كعب قائلاً: ما بات رجل منكم، منذ ولدته أمه، ليلة واحدة من الدهر حازماً!

وأخيراً، لم يكن أمامهم إلّا النزول لمواجهة الحكم. وفي تلك الليلة، أسلم أربعة يهود، ثلاثة منهم لا ينتمون إلى بني قريظة، أما الرابع فكان منهم، فأسلم ورحل واختفت آثاره. فقال الرسول: «ذاك رجل نجاه الله بوفائه».

وفي الصباح نزل بنو قريظة على حكم الرسول (ﷺ). فأتى الرسول بعض رجال الأوس، يطلبون منه تقليل الحكم عليهم. فقال لهم: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم؟» فقالوا: بلىَ. فقال: «فذاك سعد بن معاذ» زعيم الأوس.

حملوا سعد بن معاذ الجريح، الذي أصيب في معركة الخندق إصابة بالغة، من خيمته القريبة من مسجد الرسول، وجاؤوا به إلى منطقة بني قريظة ليحكم فيهم. وعندما أخذ التزام الطرفين بنتائج حكمه، حكم على الرجال، والقادرين على حمل السلاح بالإعدام، وسبي النساء وأولادهم. فقال له الرسول: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سابع سماواته!». وفعلاً، نفذ الحكم في الرجال وسبي الباقون.

لا توجد أرقام حقيقية حول عدد من قتل. هناك أكثر من عشر روايات حول الموضوع، ومنها الإسرائيليات الموسومة بالتحريف والكذب، والتي دست، حتى في كتب الحديث وربما في بعض السِّيَر، فمنهم من قال كانوا ثمانين رجلاً، ومنهم من قال أكثر من ثلاثمئة.

والرقم الأصح لدى المسلمين، أنهم كانوا لا يزيدون على ثلاثة وعشرين رجلاً. وهذا يبدو أكثر منطقياً خصوصاً أنهم قبل أن ينفذ فيهم الحكم كانوا محبوسين في بيت صغير من بيوت المدينة، التي لم تكن غالباً تتسع لأكثر من عشرين شخصاً.

ومهما يكن من أمر، بعد تنفيذ حكم الإعدام وزع الرسول مساكنهم على فقراء المسلمين. وفي تلك الليلة تحديداً، وبعد أن حكم على بني قريظة، وبعد أن حقّق الله له أمنيته، مات سعد بن معاذ. وقد طلب من الله بأن لا يميته حتى تقرّ عينه من بني قريظة.

الخائن في كل الشرائع يعدم. واللافت، أنّ هذا الحكم الربّاني الذي نزل بهم موجود في التوراة نفسها، إذ يقول الإصحاح العشرون من تثنية سفر الاشتراع الآتي:

«حين تقترب من المدينة لكي تحاربها، استدعها للصلح، فإن أجابتك للصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويُستعبد لك. وإن لم تسالمك، بل عملت معك حرباً، فحاصرها، إذ دفعها الرب إلى الهلاك على يدك، فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك»[102].

ويكتب دويدار متسائلاً: فهل كان من الممكن أن يأمن المسلمون جانب اليهود بعد ذلك؟ وأن يتركوهم جاثمين في جوارهم، يطلعون على أسرارهم، ويذيعونها بين أعدائهم؟ وهل كان من الحزم أن يخرجوهم، كما أخرجوا بني النضير من قبل، فيذهبوا في الأرض طلقاء أحراراً، يؤلبون عليهم القبائل ويحزبون الأحزاب ليغزوهم في عقر دارهم، كما فعل بنو قريظة في معركة المدينة، وقد أوشكت أن تعصف بالإسلام وأهله، والتي لم ينج منها المسلمون إلّا بمعجزة؟! وعليه، هل على المسلمين من حرج إذا هم حاصروا هؤلاء الغادرين حتى تسليمهم، ثم أبادوهم تماماً كما كانوا يريدون إبادة المسلمين؟![103].

الهدوء بعد العاصفة

بعد حرب الخندق، وتصفية بني قريظة، هدأت كل العواصف الأخرى، السياسية والعسكرية، وشعر المسلمون بالاستقرار في دولتهم الصغيرة. والآن، أمكن القول، بأنّ تجربة الدولة الإسلامية قد نضجت تماماً، وبلغت مرحلة كمالها.

لم يمر على تأسيس الدولة المُحَمَّدية خمسة أعوام، هي قليلةٌ بمعيار الزمن، لكنها كانت غنية بمعيار التجربة والإنجاز. فقد أثمرت التجربة الاستقرار الاجتماعي والثبات الإيماني والارتقاء الروحي. وهكذا، تعزّز موقع الإسلام في الجزيرة، وحان للدولة أن تسير بخطى ثابتة أكثر لتطهر الجزيرة كلها من رجس الشرك والمشركين.

وقد أسلمت في هذه الفترة شخصيتان بارزتان من قريش؛ هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وقد مثَّلا مكسباً كبيراً للإسلام. ويذكر ابن هشام، قصة استثنائية جداً، عن إسلام عمرو بن العاص. ولا نعرف لماذا أهملتها كتب السِّيَر الحديثة. حيث إنه بعد معركة الخندق، قرر عمرو بن العاص الإقامة عند الملك النجاشي، في الحبشة.

كان الهدف، كما قال، هو الانتظار في منفاه الاختياري حتى تتضح له الصورة أكثر، ويرى ما سوف تؤول إليه الأمور بين المسلمين والمشركين في مكّة المكرّمة. وفعلاً، قابل بعض الرجال من أصدقائه، وأقنعهم باقتراحه، قائلاً لهم: رأيت أن نلحق بالنجاشي، فنكون عنده؛ فإن ظهر مُحَمَّد على قومنا، بقينا عند النجاشي، فأن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يد مُحَمَّد. وإن ظهر قومنا عليه، فلن يأتينا منهم إلّا الخير. فاتفقوا على ذلك، وجمعوا له بعض الهدايا التي يحبها الملك، ورحلوا إلى الحبشة.

وبعد وصولهم إلى الحبشة، ذهب عمرو بن العاص للسلام على الملك الذي كانت تربطه به صداقة قديمة. وصادف عند دخوله قصر الملك، خروج مندوب الرسول إلى النجاشي، عمرو بن أمية الضميري. قابل الملك ضيفه مقابلة طيبة، مرحّباً: «أهلاً بالصديق». وبعد تبادل الحديث الودي، قال عمرو: لقد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجلٍ عدوٍ لنا، فأعطنيه لأقتله! لم يصدق الملك ما سمعه! فغضب غضباً شديداً.

فوجئ عمرو بردة فعل الملك القوية. وحاول عمرو أن يعتذر، لكن دون جدوى، وظل الملك غاضباً مستاءً مما سمعه من صديقه القديم. ثم رد الملك متسائلاً: أتسألني أن أعطيك رسولَ رجلٍ يأتيه الناموس الأكبر، الذي كان يأتي موسى، لقتله؟! قال عمرو: أيها الملك، أكذاك هو؟

فردّ النجاشي: ويحك يا عمرو. أطعني واتبعه! فإنه والله لعلى الحق، وسينتصر على من خالفه، كما انتصر موسى على فرعون وجنوده. فسأل عمرو النجاشي، قائلاً له: أفتبايعني على الإسلام؟! فردّ النجاشي قائلاً: نعم! فبسط عمر يده، فأخذها النجاشي، وبايعه عمرو على الإسلام![104].

حدث استثنائي تماماً؛ أن يسلم رجل، وأي رجل، المشهور بداهية العرب، على يد ملك، يفترض أن يكون، «مسيحياً»! والحال، أن الملك لم يشهر إسلامه، ولم يكن عمرو بن العاص يعلم أنه أسلم. ومهما يكمن، فبقدر ما يُدهش المرء لهذه القصة، تبين لنا معرفة النجاشي بالإسلام، ومكانة الرسول الأكرم في قلب هذا الملك الفاضل. دخل عليه عمرو بن العاص مشركاً، يحمل في قلبه العداوة والشر للمسلمين، وخرج من قصر الملك «المسيحي» مسلماً!

وغنيٌّ عن القول، أن دفاع النجاشي عن الرسول بهذه القوة، وبيقينه الثابت أن مُحَمَّداً سينتصر على قريش كما انتصر سيدنا موسى على أعدائه، ومن ثم نصحه لعمرو باتباع مُحَمَّد، وأخيراً قبوله إشهار عمرو إسلامه علـى يديه، كلها دلائلٌ تُبين أن النجاشي كان مسلماً حقاً، لكنه لأمرٍ ما فضل أن يخفي إسلامه.

خرج عمرو بن العاص إلى رفاقه، وأخفى عنهم إسلامه. ثم غادر الحبشة، وفي طريقه إلى المدينة التقى خالد بن الوليد، وسأله: إلى أين يا أبا سليمان؟ فردّ خالد قائلاً: لقد بان الطريق يا عمرو، وعرفت أنّ مُحَمَّداً نبي، فأنا ذاهب لأسلم.

فقال عمرو: وأنا ما جئت إلا لأسلم. وهكذا تم، ودخل خالد بن الوليد مع رفيقه عمرو بن العاص على النبي وأعلنا إسلامهما عند الرسول (ﷺ). ويُحكى أنّ خالد بن الوليد، قد أخبر أبا بكر برؤيا كانت سبباً في إسلامه. حيث قال إنه رأى كأنه يعيش في أرض جرداء وبها قحط، ورأى طريقاً مؤدّياً إلى أرضٍ خضراء مُثمِرة، فأدرك الرسالة، وأخذ الطريق المؤدّي إلى الخير، وذهب إلى المدينة.

مثل إسلام خالد بن الوليد نصراً للإسلام والمسلمين. وإذا كان عمرو بن العاص، أحد عباقرة السياسة في الإسلام، فقد كان خالد بن الوليد، أهم العباقرة الاستراتيجيين العسكريين في العالم. فقد خاض مئة معركة وانتصر فيها كلها.

وسيعود إليه الفضل الكبير، لاحقاً، في تحرير العراق من الاحتلال الفارسي، وتحرير الشام من الاحتلال الرومي لها، وتوسيع أراضي الدولة الإسلامية. وهما أكبر انتصارين يسجلهما التاريخ الإسلامي المبكر.

الفصل الثامن
رحلة العُمْرة والبيعة

في الوقت الذي حققت فيه الدولة الإسلامية التماسك الاجتماعي وثبتت استقرارها، تصدّعت تحالفات المشركين وكسرت معنوياتهم. وبعد أن فرغ المسلمون من تصفية أعدائهم في المدينة وضمنوا أمنهم الكامل، بعث الرسول بعض الحملات التأديبية للقبائل التي اشتركت في معركة الخندق، وحجّمتها. وسيستعد لاحقاً لتحجيم كل أعداء الإسلام وإضعافهم، الواحد تلو الآخر.

وبعد أن حقق المسلمون إنجازاتهم الكبرى، أعلن الرسول (ﷺ)، عن رغبته في الذهاب إلى مكّة للعُمْرة. بالطبع، لم يكن الخبر عادياً، فمكة تحت سيطرة قريش، فكيف السبيل إلى تحقيق هذا الحلم الغالي على قلوب المسلمين؟ ابتهج المسلمون جميعاً، وخصوصاً المهاجرين الذين سيتمكنون، إن تحقق لهم ذلك، من زيارة وطنهم الذي ولدوا فيه وأجبروا على تركه، ولم تتسنَّ لهم زيارته منذ أن غادروه مهاجرين إلى المدينة قبل سبعة أعوام طويلة.

فرحل الرسول ومعه ألف وأربعمئة رجل وامرأة تقريباً. رحل مع رجاله لابسين أثواب العمرة، لا يحملون أسلحة القتال، عدا السلاح الفردي الخاص. وبعد رحلة طويلة وصلوا إلى منطقة الحديبية، التي لا تبعد من مكّة إلاّ قرابة العشر كيلومترات، ونزلوا فيها بخيامهم وأضاحيهم.

وما أن سمعت قريش بقدوم مُحَمَّد إلى الحديبية حتى استنفرت قواها واستعدت للأمر. اعتقد المشركون أنّ مُحَمَّداً أتى محارباً فاستعدوا لملاقاته. وجاءه رجال من قبيلة خزاعة يسألونه عن سبب قدومه، فأخبرهم بأنه لم يأتِ إلّا ليزور البيت ويعتمر.

فعادوا إلى قريش وقالوا لهم: إنكم تتعجلون في أمر مُحَمَّد، فهو لم يأتِ مقاتلاً، بل زائراً لهذا البيت. بيد أنّ قريشاً لم تكتف بهذا التأكيد، فقالوا: لا والله! لن يدخلها علينا عنوة أبداً. ولا يتحدث عنا العرب بذلك. كل قلق قريش، هو ماذا سيقول عنها العرب!

ثم زار عروة بن مسعود الرسول، وأبلغه أنّ قريشاً لن تسمح له بدخول مكة، وهي تستعد لقتاله. وقد لفت انتباه عروة الحب والاحترام الذي يحيط به الصحابة رسولهم. وفعلاً، كانت طبيعة العلاقة بين الرسول وأتباعه مثار إعجاب الجميع.

وعندما عاد إلى قريش أكد لهم مجدّداً أنّ مُحَمَّداً لم يأتِ محارباً بل زائراً. ثم قال: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت مَلِكاً في قومٍ قط مثل مُحَمَّد في أصحابه[105].

وفي هذه الأثناء، بعث الرسول عثمان بن عفّان، وهو من بني أمية، أي من أقرباء أبي سفيان وله مكانة خاصة لدى قريش، ليقنع قريش بطبيعة الزيارة وسلميتها. فأكد لهم مرة أخرى أنّ المسلمين لا يحملون السلاح، ولم يأتوا إلّا لتأدية مناسك العمرة. لكنهم رفضوا ذلك وقالوا له: يمكنك أنت أن تطوف بالكعبة إن رغبت في ذلك، فردّ عليهم قائلاً: لن أطوف قبل أن يطوف مُحَمَّد (ﷺ).

وخلال مرحلة الانتظار والترقب، أرسلت قريش قوة من أربعين فارساً، كلفتهم بالتحرش بالمسلمين، لكنهم ما أن وصلوا حتى طوّقهم المسلمون وأسروهم وأخذوا أسلحتهم. وبعد حين، أمر الرسول بإطلاقهم وإرجاع أسلحتهم عليهم، تعبيراً عن نوايا المسلمين الحسنة.

من جانب آخر، عندما أراد عثمان بن عفان العودة إلى الرسول احتجزته قريش، وسرعان ما شاع خبر مقتله. وما أن سمع النبي بذلك، حتى دعا أتباعه للمبايعة على القتال. وفعلاً، بويع الرسول على دخول مكّة، مهما كلف الأمر، والتزم الجميع بذلك. فلا يمكن، تحت أي ظرف كان، قتل مبعوث الرسول، ولا يتحرك المسلمون.

وفي الوقت نفسه، نزلت الآية الكريمة تزكي المبايعة: [إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا] [الفتح 10].

كانت مبايعة الرسول مبايعة لله تعالى. ويد الله فوق أيديهم، بمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى هو نفسه المُبَايع. وقد وعد النبي المبايعين بالجنّة، فكل من شهد معركة المسلمين الأولى، معركة بدر، مغفور له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وكل من بايع في الحديبية مغفور له. وستعتبر هذه البيعة مرجعية شرعية وأخلاقية لكل مبايعة وعهد بين المسلمين.

وعندما سمعت قريش بخبر البيعة، أيقنت أنّ المسلمين قد قرروا الدخول لا محالة. فهي أكثر من يعرف إرادتهم وتصميمهم. وحالاً، سمحت لعثمان بالرجوع إلى جماعته. وصل عثمان بن عفّان إلى الرسول سالماً، وفرح الرسول بعودته حياً. وإذا كانت مكانة عثمان بن عفّان عند قريش كبيرة، فمكانته عند المسلمين أكبر، خصوصاً أنه صهر الرسول.

وحين أخبر عثمان الرسول بمواقف قريش المتعنتة، وضع يده في يد الرسول مبايعاً على الدخول إلى مكّة. لكن، وفي تطور سريع، بدا واضحاً أنّ قريشاً، بعد أن أدركت تصميم الرسول وأتباعه على الدخول إلى مكّة، لانت مواقفها قليلاً. فبادروا مسرعين بمبعوث آخر إلى الرسول. كان هذه المرة سهيل بن عمرو، وكان الرسول يعرفه جيداً. فلما رآه الرسول مقبلاً، قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل».

[وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ]

أتى سهيل بن عمرو بتفويض للصلح، لكنه مشروط؛ كلفته قريش عقد معاهدة، على ألا يدخل المسلمون مكّة هذا العام، بل العام المقبل. مبرّرين ذلك بقولهم: فو الله لا تتحدث العرب عنا، أنه دخلها عنوة أبداً. وأخذاً بطبيعة العداء المستحكم بين قريش والمسلمين، تفهّم الرسول الموقف، فوافق على كتابة وثيقة الصلح، ودعا عليّ بن أبي طالب ليكتبها. وقد وردت فيها البنود التالية:

قال الرسول: «اكتب: باسم الله الرحمن الرحيم» فقال مندوب قريش سهيل بن عمرو: أما الرحمن فو الله ما ندري ما هو! ولكن اكتب باسمك اللهم. فقال الرسول: «اكتب باسمك اللهم»، فكتبها.

ثم أضاف الرسول: «اكتب: هذا ما قَاضى عليه رسول الله». فقال سهيل: فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت الحرام، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: مُحَمَّد بن عبدالله. فردّ النبي:

«إني رسول الله وإن كذّبتموني!». فقال الرسول: «اكتب: هذا ما صالح عليه مُحَمَّد بن عبدالله وسهيل بن عمرو:

١- توضع الحرب عن الناس مدة عشر سنوات؛ يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٢-أنه من أتى إلى مُحَمَّد من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ولكن من جاء قريشاً ممن مع مُحَمَّد، لم يردّوه عليه.

٣-ومن أحب أن يدخل في عقد مُحَمَّد وعهده دخل فيه. ومن أحب أن يدخل في عقد قريش دخل فيه.

٤- وأنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا في مكّة. وإذا كان العام القادم، خرجنا عنك، وتدخلها بأصحابك لمدة ثلاثة أيام، مع سلاح الراكب[106].

وتم التعهد. لكنّ عمر بن الخطاب، ومعه بعض الصحابة، لم يكن راضياً عن التنازلات التي قدّمها الرسول لقريش، وخصوصاً البند الثاني. كما أثار رفض مندوب قريش وضع مُحَمَّد رسول الله استياءً كبيراً لدى الصحابة. وكأن مُحَمَّداً قد تنازل عن ثوابت لا تمس.

فأتى عمر إلى أبي بكر، وقال: يا أبا بكر، أليس مُحَمَّد رسول الله؟ فردّ: بلى! فقال: أولسنا بمسلمين؟ فردّ: بلى! أليسوا بمشركين؟ فردّ: بلى! فعلام نعطي الدنية (المذلة) في ديننا؟ فقال أبو بكر: الزم، فإني أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى الرسول، وردّد عليه التساؤلات نفسها. فرد الرسول قائلاً: «أنا عبدالله ورسوله؛ لن أخالف أمره، ولن يضيعني». لم يكن الرسول ليتصرف في أمر كهذا، دون علمه بأن الله راض عنه. لكن ما زاد الطين بلة، أنه في هذه الأثناء تحديداً، أتى أبو جندل بن سهيل، فاراً من المشركين ومستغيثاً. ومن المفارقة أنه كان ابنَ مندوب قريش نفسه، سهيل بن عمرو الذي يفاوض الرسول، وقد أسلم ويرغب في الالتحاق بالمسلمين!

فوجئ الجميع بالأمر، والده سهيل كما المسلمون. فقال سهيل للرسول: لقد وقعنا التعهد، والمادة الثانية تنص على ضرورة إرجاع من أتى إليك هارباً من قريش، ولا يمكن التراجع عنه. فرد عليه الرسول قائلاً: «صدقت».

وذهب هو شخصياً إلى أبي جندل، وقال له: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإنّ الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنّا عقدنا بيننا وبينهم صلحاً، وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهد الله، وإنّا لا نغدر بهم». وهكذا، أكد لنا الرسول الأكرم، أن احترام العهود والالتزام بها، من مبادئ الإسلام الثابتة.

وكما هو متوقع، نزلت المباركة من السماء، وأتت سورة الفتح: [إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3)]

اعتبر الله تعالى الصلح فتحاً. لأنه أولاً، وقبل كل شيء، حقق السلم مع العدو التاريخي، وهذا بذاته يعدُّ مكسباً تاريخياً. فعندما جنحوا للسّلم، جنح له رسول السلام. والرسول يعلمنا أن التنازل من أجل السلم هو الحكمة عينها، لأنه مكسب وخير للجميع. وعلى المسلم أن يسعى إليه متى كان ممكناً وعادلاً. وفعلاً، سيكون له، مردود ونتائج إيجابية عديدة للمسلمين.منها:

أولاً، اعتراف المشركين بالدولة الإسلامية، وكان من شأن هذا أنّ يعزّز من مكانة الدولة ونفوذها. كما أنّ الهدنة، التي ضمنت عشرة أعوام من السلم مع قريش، ستتيح للمسلمين الفرصة للتفرغ لتصفية بؤر القبائل المعادية للإسلام، وتمهيد الطريق لفتح مكّة.

ثانياً، وبخلق فضاء سلمي عام، سمح الصلح بدخول القبائل العربية إلى الإسلام طوعاً، دون تهديد أو خوف من قريش. وفعلاً، سرعان ما دخلت قبيلة بني خزاعة، التي تعيش قريباً من مكة، الإسلام طوعاً. وقد توجت كل الإنجازات بمباركة الله عزّ وجل، ونزلت سورة الفتح التي حملت تبشيراً بالفتح المبين المقبل لمكّة المكرّمة.

في البدء، لم يكن بعض الصحابة قادرين على الإحاطة بحكمة القرار، وتساءلوا قائلين: كيف يكون فتحاً ولم ندخل الكعبة؟! بالطبع، لم يكن الجميع يرى النتائج الإيجابية بعيدة المدى لهذا التعهد. كانوا يحكمون على ظاهر الأمر، على الآني، والله ورسوله ينظران إلى حقائق الأمور ونتائجها البعيدة. والله تعالى يقول: [وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ].

وسرعان ما سيتضح لهم أنّ ما حقّقه الرسول كان مكسباً سياسياً كبيراً. ويروى عن عمر بن الخطاب أنه بعد نزول آية الفتح، قال: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي استغفاراً من كلامي الذي

تفوهت به يومئذ.

أمضى المسلمون قرابة العشرة أيام أو يزيد في رحلة العمرة التي لم تكتمل عملياً. وبعد أن تم التعهد، توجب عليهم العودة إلى المدينة. وفعلاً، قام الرسول (ﷺ) بمناسك الانتهاء من العمرة وكأنها تمت فعلاً. وعلى كل حال، سيكتب الله لهم ثواب العمرة لأنهم نووا ذلك، والنية الصادقة في الإسلام لها ثواب الفعل نفسه. ولكل إمرىءٍ ما نوى.

خلع إحرامات العمرة، وحلق شعر رأسه وكأنه أتم مناسك العمرة. وعندما رأى المسلمون ما فعله رسولهم، قاموا أيضاً، بإبدال الإحرامات، ولبسوا ملابسهم المعتادة، وشعروا وكأنهم حقّقوا عمرتهم، وانطلقوا راجعين إلى مدينتهم.

وبعيد عودة الرسول إلى المدينة، جاءه رجل يدعى أبا بصير، مسلماً فاراً من قريش. فأرسلت قريش في طلبه رجلين من رجالها، بناءً على ما تنص عليه وثيقة الصلح، فرده الرسول عليهم. بيد أنه في الطريق، تمكن من قتل أحدهم وفرّ الثاني. وسمع عنه أبو جندل بن سهيل، الذي سبق أن أرجعه الرسول في الحديبية إلى قريش، والتحق به.

ولم يمض وقت طويل حتى أصبح كل من أسلم يهرب من قريش، ويلتحق بأبي بصير. وسرعان ما شكلوا قوة صغيرة متمرّدة على قريش، تقطع الطريق على قوافلها التجارية. واللافت أنه عندما عجزت قريش عن التعامل معهم، كتبت إلى الرسول تناشده قبول تنازلها عن المادة التي اشترطتها في الاتفاق، والناصة على إرجاع المسلمين الفارين منها، إلى مكّة! فطلبت منه أن يجيرهم في المدينة، واعتبرتهم في أمان من جانبها!

ونزلت الآية الكريمة من سورة الفتح: [وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا]. هكذا، تحقق وعد الرسول عندما قال لأبي جندل: «ان الله سيجعل لك وللمستضعفين فرجاً ومخرجاً». وبعدئذ غدت هجرة المسلمين من مكّة أمراً طبيعياً، لا تتعرّض لهم قريش. يلتحقون بالمدينة متى أرادوا ويعيشون فيها مع إخوانهم بسلام.

رسائل الرسول (ﷺ)

كان الفرس يحتلون العراق والبحرين وأجزاء من اليمن. وكان الروم يحتلون منطقة الشام كاملة. وقد عمد الطرفان إلى تعيين أمراء المناطق الخاضعة لسلطتهم وغالبا من أهل المنطقة المرتبطين بهم. وقد خضعت هذه المناطق للنفوذ السياسي والديني لإحدى هاتين الإمبراطوريتين. وفي حين انتشرت المجوسية في العراق والبحرين واليمن، كان أهل الشام ومصر، في غالبيتهم، يدينون بالمسيحية. وكانت القسطنطينية تعين حكام مصر من ملوك الأقباط.

بعد توقيع تعهد الصلح مع قريش، سيتفرغ الرسول لمهمّتين أساسيتين: الأولى، سيقوم بتصفية أعداء الإسلام من يهود ومشركين في الجزيرة العربية. والثانية، سيبعث رسائله مع مبعوثيه يدعو فيها الملوك والأمراء إلى الإسلام.

سنلقي الضوء هنا على أربع رسائل لأهمّية المرسل إليهم، ولردودهم اللافتة. وهم: المقوقس في مصر، ملك الأقباط. وكسرى ملك فارس. والنجاشي ملك الحبشة. وأخيراً، هرقل ملك الروم.

حمل مبعوث الرسول، حاطب بن أبي بلتعة، الرسالة إلى ملك أقباط مصر. وبعد أن تسلم الملك المقوقس الرسالة باحترام، سأل المندوب، قائلاً: ما منعه إن كان نبياً، أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟ فرد حاطب قائلاً: ما منع عيسى عليه السلام، عندما أخذه قومه ليقتلوه، أن يدعو عليهم فيهلكهم؟! فقال المقوقس: أحسنت، أنت حكيم جاء من عند حكيم.

فقال حاطب: لقد دعا النبي الناس إلى الإسلام. فكان أشدّهم عليه قريش، وأعداهم اليهود، وأقربهم منه النصارى. ولعمري، ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمُحَمَّد، وما دعوتنا إلى القرآن، إلّا كدعوتك أهل التّوراة إلى الإنجيل[107]. شعر المقوقس بإيجابية موقف الإسلام من المسيحيين، لكنه لم يسلم، وتقبل الدعوة باحترام، وكان ردّه على الرسول ردّاً إيجابياً.

إذا كان هذا اللطف ودماثة الخلق متوقّعين من رجل مسيحي كالمقوقس، فإنّ ردّ كسرى ملك فارس، المجوسي، كان رداً جاهلاً إلى أبعد الحدود، وستكلفه تلك الحماقة عرشه. نقل الرسالة إليه عبدالله ابن حذافة السهمي.

كان ملوك ذلك الزمان يتصرفون كأنصاف الآلهة، مقدسون من شعوبهم. وعندما وصل عبدالله بن حذافة ودخل على الملك، دهش الفرس المحيطون بالملك من هذا الرجل، المتواضع الملبس، يمشي منتصباً في القصر، غير عابئ بكل طقوس الجبابرة وبروتوكولاتهم. وكان يمشي

وفي يده عصاه التي يتكئ عليها، ويضرب بها على رخام القصر، وتُصدر أصواتاً كادت تبدّد هيبة إله فارس.

كان الجميع ينظر إلى هذا العربي الفقير باستغراب وحيرة. لم يصدّقوا ما كانوا يشاهدونه. وعندما طلب منه أن يسجد للملك، قال: نحن المسلمين لا نسجد إلّا لله تعالى، وسلّمه الرسالة دون انحناء. هكذا ربى الرسول أتباعه على العزّة والكرامة.

نصت الرسالة على الآتي: «بسم الله الرحمن الرحيم. من مُحَمَّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ مُحَمَّداً عبده ورسوله. أدعوك إلى الله، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين. أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس».

كان الدم يغلي في رأس الإمبراطور. وما أن قُرأت رسالة النبي إليه، حتى انفجر غضباً من هذا النبي العربي الأمّي الذي يتجرأ على أن يخاطب ملك الملوك، ويدعوه إلى تغيير دينه؟! وفوق ذلك يقدّم اسمه على اسم الملك؟ كيف يتجرأ هذا الرجل وأنا الإمبراطور الذي أُعين من يحكم البلاد العربية؛ نجران والبحرين والعراق؟ فمزق الرسالة وطرد حاملها[108]. وعندما أُبلغ الرسول بما فعل كسرى بكتابه، قال: «مزّق الله ملكه».

من جانبهم، كان الأعداء من المشركين واليهود في الجزيرة يتابعون أخبار الرسول وكسرى بشماتة وانتشاء. وظنّوا بأن كسرى سيكفيهم شأن الرسول وأتباعه. وهكذا يتخلصون منه ومن رسالته. أما كسرى، الذي أعماه جهله وكبرياؤه هو الآخر، فقد أرسل أمراً إلى أمير اليمن "باذان". يأمره بأن يرسل اثنين من رجاله الأشداء، ليأتوا إليه بهذا الرجل الذي يدّعي النبوة، وتجرأ على مخاطبته! والعجيب أنّ باذان؛ والي اليمن، كان أحمق مثل سيده المجوسي، فلم يتردّد في تنفيذ أمره، فبعث برجلين من أشد رجاله، ليأخذا النبي إلى إمبراطورهم!!

وفعلاً، توجها إلى المدينة. ولكن في هذه الأثناء استجاب الله تعالى لدعوة رسوله، فقام ابن الملك، شيرويه، بقتل أبيه وتسلم الحكم. وعندما وصل الجنديان إلى المدينة، طلبا من الرسول أن يذهب معهما إلى كسرى! فقال الرسول: «ويحكما، من أمركما؟». فرد أحدهما: أمرنا ربنا!! فقال الرسول للمترجم: «قل له إنّ ربّي قد قتل ربّه بالأمس!».

وعندما بُلغ أمير اليمن باذان، بخبر قتل كسرى، كما أخبرهم النبي أسلم هو ومن معه. ويذكر الشيخ مُحَمَّد الغزالي، رحمه الله، أنه بعد هذه الحادثة، انتشر الإسلام في اليمن بين الطائفتين؛ النصرانية والمجوسية، انتشاراً كبيراً[109].

والملاحظ، من تتبعنا للسيرة المباركة، أنه بعد كل أزمة أو معركة، يفتح الله للمسلمين فتحاً جديداً، وينتشر الإسلام أكثر. ونعلم أنه في يوم قريب، سيأتي الجيش الإسلامي في عهد عمر، لينهي حقبة الإمبراطورية الفارسية إلى الأبد.

أما الرسالة الثالثة فكانت لصديق الرسول ملك الحبشة المحترم، أصحمة، الملقب بالنجاشي. والذي تعرّف إلى الإسلام من جعفر بن أبي طالب، حيث هاجر على رأس المجموعة الأولى إلى الحبشة. وقد تعرّف النجاشي إلى حياة المسلمين المهاجرين، ورأى سلوكهم عن كثب. راقب عباداتهم، ومعاملاتهم، وصدقهم، فكان مهيّأً لقبول الإسلام.

ولنتذكر، أنه هو من أقنع عمرو بن العاص بالإسلام، وأسلم على يديه. وتذكر السِّيَر أنّ أصحمة، النجاشي، كان أول من أسلم ممن بعث لهم الرسول. ويعتقد أنه أسلم على يد جعفر بن أبي طالب عندما كان مهاجراً في الحبشة. وفعلاً، بعث النجاشي وفداً من أصحابه القساوسة والرهبان إلى المدينة لمقابلة الرسول والتعرف إلى الدين الإسلامي، وحين قدم الوفد قام الرسول بخدمتهم بنفسه.

فقال أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله. فردّ قائلاً: «إنهم كانوا لأصحابي مكرّمين، وإني أحب أن أكافئهم». فإلى جانب اعتنائه الخاص بضيوفه، ترك لنا درساً في التواضع والوفاء. وهذا مثال آخر على الأخلاق المحمدية. ثم عندما قرأ الرسول عليهم بعضاً من القرآن، أسلموا. ونزلت الآية: [رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ] [عمران 53].

وفي قصة معبّرة عن متانة العلاقة والمودة بين الرسول والنجاشي، فقد سبق أن طلب الرسول (ﷺ) من النجاشي أن يكون وكيلاً عنه ويزوّجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، زعيم قريش وخصمه العنيد. وكانت أم حبيبة ممن هاجر إلى الحبشة مع زوجها عبدالله بن أبي جحش، إلّا أنّ زوجها تنصّر في الحبشة ومات فيها.

فرأى الرسول أن يجزيها على ما تحمّلت من مشاق الهجرة في سبيل الله، ويكرمها بالزواج به لتكون من أمهات المؤمنين. وفعلاً، زوّجه النجاشي إياها، كوكيل للرسول، وأصدقها عنه أربعمئة دينار. فقدم بذلك مكرمة تدل على عمق الصداقة والمودة المتبادلة[110].

وفعلاً، عندما سيعود المهاجرون ومعهم جعفر بن أبي طالب إلى المدينة، ستعود أم حبيبة معه. وتذكر السِّيَر، أنه عندما توفّي النجاشي في العام نفسه، أي العام التاسع الهجري، قال الرسول: «مات اليوم رجل صالح، فقوموا صلوا على أخيكم أصحمة». فخرجوا إلى المسجد وصلوا عليه صلاة الغائب[111] .

والمعروف أن صلاة الغائب لا تصلى إلّا على المسلمين، وذلك ما يؤكد صحة الدلائل التي تشير إلى إسلام النجاشي. أما الملك الجديد، الذي تولى الحكم بعد أصحمة، ولُقبَ بالنجاشي كذلك، فلم تتسم علاقته بالمسلمين بالصداقة، ناهيك عن المودة التي أظهرها الملك الراحل.

سيلاحظ المتأمل للسيرة النبوية أن الرسول (ﷺ) تعامل مع كل خصومه، بالحكمة والاحترام والتسامح. وذلك تطبيقاً لقول الله تعالى: [ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ]. يبقى أنه، لئن كان قد تعامل طوال حياته مع الجميع بهذه الروح النبيلة، فإنه كان حازماً عندما تقتضي الحكمة ذلك. حازماً ولكن بنبل.

وفي الرسالة التالية، التي بعثها الرسول الأكرم إلى أمير البحرين المنذر بن ساوى، وكان مجوسياً تابعاً لكسرى، نموذج من الاحترام والحكمة. فقد جاء فيها: «يا منذر! إنك عظيم العقل في الدنيا، فلا تصغرنَّ في الآخرة. إن هذه المجوسية شرُّ دين... ليس فيها تكرُّم العرب. ولا علم أهل الكتاب. ينكحون من يستحى من نكاحه. ويأكلون ما يتنزه عن أكله. ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة. فأنت لست بعديم العقل ولا الرأي. فانظر: هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا ألا نصدقه؟ ولمن لا يخون ألا نؤمّنه؟ ولمن لا يخلف ألا نثق به؟».

حمل العلاء بن الحضرمي الرسالة إلى المنذر. وقد وجد المنذر في لغة المنطق والعقل ما يقنعه، فرحب بالدعوة وأسلم. وعرض المنذر على سكان البحرين الدين الإسلامي، فمنهم من آمن ومنهم من بقي على المجوسية واليهودية، وفرضت عليهم الجزية[112].

وفي الوقت نفسه، بعث الرسول عمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابنيْ الجلندى، ملكَيْ عُمان آنذاك، يدعوهما إلى الإسلام. فاستجابا لمبعوث الرسول ودخلا الإسلام طواعية. وكان أول بلد آمن بالإسلام دون تردد. فدعا لهم الرسول قائلاً: «رحم الله أهل الغبيراء آمنوا بي ولم يروني».

تساؤلات هرقل

أردنا أن ننهي مرورنا على رسائل الرسول، بكتاب بعثه إلى هرقل، إمبراطور بيزنطة. وهو إجمالاً، يحمل الصيغة نفسها للكتب التي بعثها إلى الآخرين. وما كان لافتاً حقاً هو الاهتمام الخاص الذي ابداه هرقل تجاه الرسول (ﷺ).

حمل الكتاب إليه دحية بن خليفة الكلبي. وصل دحية وسلّمه الكتاب، وكان وقتها هرقل في زيارة للقدس. وكانت ردة فعل هرقل لافتة حقاً وتنم عن ذكاء وحنكة سياسية. فأكرم مبعوث الرسول ببعض المال، وقيل أنه أوهمه بأنه تقبل الإسلام، وودّعه!

وبيد أن الأهم من ذلك كانت تساؤلاته المدهشة عن الرسول. فبعد أن قرأ كتاب الرسول إليه، أمر المسؤولين في جيشه بالبحث عن أي شخص يمت إلى الرسول بصلة عائلية في الشام، ليسأله عن حياة الرسول وتطور دعوته. وفعلاً، بعد بحث طويل، نما إليهم خبر وجود مجموعة من تجّار قريش في غزّة، فأتوا بهم إليه.

وعندما قابلهم هرقل، سألهم عن أقربهم إلى الرسول نسباً. وكان من بينهم أبو سفيان الذي قال له إنه الأكثر نسباً للرسول. فأمر الآخرين بالذهاب إلى أعمالهم، واستبقى أبا سفيان معه. ثم دخل في حديث مطول معه، يسأله، بلغة لا تخلو من الاهتمام الخاص، عن شخصية الرسول، وعن صفاته، ومناقبه وتطور دعوته. ثم لخص حديثه مع أبي سفيان قائلاً:

سألتك عن نسبه: فذكرت أنه فيكم ذو نسب. وكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فأجبت: كلاّ! فقلت: لو كان أحد قد قال هذا القول قبله، لقلت هو رجل لم يأتِ بجديد.

وسألتك، هل كان من آبائه من ملك؟ فأجبت: كلاّ! ولو كان كذلك، لقلت هذا رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل دعوته؟ فأجبت: كلاّ! فقلت إذا لم يكن يكذب على الناس، فكيف يكذب على الله!

ثم سألتك: هل من اتبعه من أشراف الناس، أم من ضعفائهم؟ فذكرت: بل من ضعفائهم. فقلت: هم أتباع الرسل. وسألتك: هل يتزايدون أم يتناقصون؟ فذكرت: أنهم في ازدياد. فقلت: ذلك أمر الإيمان حتى يتم.

فسألتك: أيرتد أحد من أتباعه بعد أن يدخل في دينه؟ فأجبتني: كلاّ! فقلت ذلك هو الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب. وسألتك: هل يغدر؟ فأجبت: كلاّ! فقلت كذلك الرسل لا يغدرون.

ثم سألتك: بِمَ يأمركم؟ فذكرت: «أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به أحداً. وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف». فإن كان ما تقول حقاً، فسيملك موضع قدمَيَّ هاتين. وكنت أعلم أنه خارج. ولكن لم أكن أظن أنه منكم. ثم أكمل هرقل حديثه قائلاً: لو كنت عنده لغسلت قدميه! [113].

ومع هذه الاستنتاجات الذكية والإطراء، فإن هرقل، ولأسباب يعلمها الله، لم يسلم. وكان وكأنه يتنبأ بأنه سينهزم جيشه أمام المسلمين. وفعلاً، بعد سنين قليلة، سيأتي عمر بن الخطاب ليتسلم مفاتيح القدس من قساوستها بعد أن حررها الجيش الإسلامي من الإمبراطورية البيزنطية.

خيبر: إخضاع يهود الجزيرة وعمرة القضاء

بعد أن حُيدت قريش بمعاهدة الصلح، تفرغ المسلمون ليهود خيبر الذين ألّبوا القبائل عليهم. وكانوا، هم وبنو النضير، سبباً رئيساً في غزوة الخندق، التي كادت تقضي على المسلمين وتبيدهم. فكان وجودهم في الجزيرة يشكل مصدراً للتآمر، وخطراً دائماً على المسلمين.

وفعلاً في مطلع السنة السابعة من الهجرة، تحركت قوات المسلمين إلى خيبر، التي تبعد قرابة المئة كيلو متر من المدينة. وكان اليهود في الواقع يتوقّعون حرب المسلمين عليهم بعد أن وقّعوا معاهدة الصلح مع قريش. فكانوا متحصّنين، يعيشون في عدد من القلاع المنيعة، ولديهم المقاتلون والأسلحة اللازمة، وعلى أتم الاستعداد لمواجهة جيش المسلمين.

وعندما وصلت القوات، أعطى الرسول القيادة لابن عمّه عليّ بن أبي طالب، الذي أصبح الآن أحد أبطال الإسلام المشهورين، وهو ما زال في العشرينيات من العمر. تقدم علي وجيشه إلى حصون أهل خيبر. طوق الحصون كلها وفرض عليهم حصاراً دام قرابة العشرين يوماً. ثم بدأ اقتحام حصونهم حصناً بعد حصن. ولم تدم المعارك طويلاً حتى أسقطت كل الحصون واستسلم من تبقى من جيش خيبر، وقد سقط منهم أكثر من تسعين رجلاً.

فعرضوا على النبيّ الخروج من المنطقة بأهلهم، وترك أملاكهم للمسلمين مقابل أن تُحقن دماؤهم. وافق الرسول على ذلك. ولكن بعد ذلك الطلب، اقترحوا عليه البقاء في خيبر إن أمكن، مقابل نصف محصول المنطقة من التمر سنوياً. فوجد الرسول في اقتراحهم الأخير مصلحة للمسلمين، فوافق عليه.

ما أن سمع يهود فدك بأخبار يهود خيبر، حتى فهموا الدرس جيداً. وخشوا المصير نفسه. فبعثوا للرسول على عجل، يعرضون عليه الصلح، ويقدّمون له نصف إنتاجهم، كما فعلت خيبر، دون الضرورة للجوء إلى الحرب. فوافق الرسول وتم الاتفاق.

هكذا، تمكن المسلمون من وضع حدٍّ نهائيٍ لأخطر أعدائهم بعد قريش. وأدرك الجميع أنه لم يعد بمقدور أيّ كان، في الجزيرة كلها، المسَّ بالمسلمين مرّة أخرى. لقد انتهى وضع الضعف والهوان إلى الأبد.

ومن جانب آخر، وفي السنة السابعة، أي بعد مرور عام على محاولة المسلمين الأولى لأداء العمرة، وفي الشهر نفسه الذي صدّهم المشركون ومنعوهم من دخول مكّة المكرّمة، تحرك المسلمون لأداء عمرة القضاء، كما نص التعهد.

وفعلاً، دخل المسلمون بسلام، وأغلقت قريش عليها الأبواب، ومنهم من خرج إلى الجبل تفادياً للاحتكاك بالمسلمين. قضى الرسول ثلاثة أيام في مكة، وكان البعض من قريش يشاهد مناسك العمرة والطواف والصلوات لأول مرة بذهول وإعجاب.

وخلال وجوده في مكّة، عقد الرسول قرانه على ميمونة بنت الحارث. وجاءه في ذلك الوقت حويطب بن عبد العزى، ليبلغ الرسول انتهاء مدة العمرة. فقال له الرسول: «ما عليكم لو تركتموني

فأتزوج بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه!». فردّ عليه بوقاحة، قائلاً: لا حاجة لنا بطعامك، فاخرج عنا!

كان الرسول يحاول الاستفادة من وجوده في مكّة، لعله يستطيع، بدعوته أعداءه إلى وليمة الزواج، أن ينفّس الاحتقان بين الطرفين، ولربما يفضي ذلك إلى تعزيز السلم بينهم. لكنهم رفضوا اليد النبيلة الممدودة إليهم، فقرّر المسلمون العودة إلى المدينة.

مؤتة: مثال الشجاعة والإيمان

تقع قرية مؤتة في سوريا، وقد ضمّت حدودها آنذاك: سوريا، فلسطين، لبنان، والأردن. وتقع اليوم في الحدود الأردنية. كغيرها من بلاد الشام، كانت خاضعة آنذاك لسيطرة ملك الروم. ويدير شؤونها أمراء من المسيحيين العرب من الغساسنة، يعيّنهم قيصر بيزنطية، أمراء تابعين للإمبراطورية على مناطقهم.

ومثلما بعث إلى الملوك الآخرين، بعث الرسول برسالة إلى أمير بصرى، الحارث بن أبي شمّر الغسّاني، يدعوه فيها إلى الإسلام. وفي طريقه، التقى أحد أمراء القيصر في الشام، شرحبيل بن عمرو الغساني في قرية مؤتة. وعندما عرف أنه أحد رسل الرسول، قتله. ونعلم أن قتل المبعوثين مسألة كبيرة في كل الأعراف، فكيف بمبعوث رسول الله؟!

وعندما أُبلغ الرسول ذلك، جهز جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل. وسلم القيادة لزيد بن حارثة[114]، وقد أوصاهم إذا أصيب زيد، فليتسلم القيادة من بعده، ابن عمّه جعفر بن أبي طالب، وإن أصيب فليتسلم القيادة عبدالله بن رواحة.

ثم أعلن وصيته الشهيرة لهم: «أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً. اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، من كفر بالله. لا تغدروا، لا تغلوا، لا تقتلوا وليداً، ولا امرأةً، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعته، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً».

لخّص الرسول الأكرم قوانين الحرب في الإسلام. وهي جملة من مبادئ وقيم العدل واحترام الإنسان والطبيعة. وكلهم من خلق الله. ولا شك، أنها تمثل جوهر قوانين الحروب والشرائع

الدولية المعروفة في عصرنا الحاضر. والمفارقة أن هذه القوانين المتقدمة، والتي كانت مطبقة في ذلك العصر البعيد، يداس عليها اليوم في عصر الحضارة الغربية!

تحرك الجيش، وكان الرسول في وداعهم. وعندما وصلوا إلى منطقة معان، بلغهم أنّ القيصر قد أعد لهم جيشاً عظيماً، قوامه مائتا ألف جندي. مئة ألف جندي من الروم، ومئة ألف أخرى من النصارى العرب، وقيل إنه اتخذ من منطقة مأرب معسكراً له. أقام المسلمون بمعان ليلتين يتدارسون الأمر. بالطبع لم يكن الأمر سهلاً أبداً. كيف بإمكان جيش المسلمين قليل العدد، مواجهة هذه الجيوش الجرّارة؟ هل نكتب للرسول لأخذ رأيه، أو ربما نطلبه للمدد؟

وفي وسط هذا السجال، انبرى عبدالله بن رواحة، القائد الثالث للجيش، وقال كلمته الشهيرة: نحن لا نقاتل العدو بعدد، ولا بقوة أو بكثرة! إنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين؛ فإما النصر وإما الشهادة![115] ارتفعت معنويات المسلمين، ودخلوا في حرب دون اكتراث بموازين القوة والحسابات، إلا حساب الإيمان.

استمرت المعارك ثلاثة أيام متواصلة، وقيل سبعة أيام، في مشهد بطولي قل نظيره. فقتل القائد الأول، زيد بن حارثة. وتسلم القيادة بعده، جعفر بن أبي طالب، فقاتل حتى قطعت يداه الاثنتان. وكان شاباً في العشرينيات من العمر. وتذكر بعض السِّيَر، أنه عندما سقط، عرض عليه عبدالله بن عمر الماء ليشرب. فاعتذر قائلاً: إني صائم!

وذكر البعض أنه قال: أنا صائم ولن أفطر إلّا في الجنّة! وكغيره من الأبطال، استشهد وترك لنا درساً معبّراً عن تجليات التربية المُحَمَّدية. وقد شاءت الأقدار، أن جعفر لم يأتِ من الهجرة في الحبشة، إلّا بعد هزيمة يهود خيبر في السنة السابعة، أي قبل هذه المعركة بزمنٍ قليل. وقد رحب به الرسول آنئذ، قائلاً: «لا أدري أأفرح بفتح خيبر أم بعودة جعفر». ويبدو أنه لم يأتِ من الحبشة، إلا ليستشهد ويرتفع مكرماً عند خالقه.

ثم قتل القائد الثالث عبدالله بن رواحة. وفي فجر اليوم التالي، كان خالد بن الوليد قد تسلم قيادة الجيش. واستمر جيشه يحارب طوال اليوم، وفي فجر اليوم الثاني، كان خالد قد غيّر مواقع الجيش، وتشكيلاته العسكرية وراياته. وعندما استيقظ الروم ورأوا المشهد الجديد للجيش، ظنوا أنّ المدد قد وصل إلى المسلمين، فتراجعوا. واستفاد خالد من هذا التراجع ليسحب جيشه سالماً.

والمدهش في الأمر أكثر، أنّ جيش المسلمين لم يفقد، وفق بعض السِّيَر، إلّا اثني عشر رجلاً، وقد كبد جيش الأعداء خسائر باهظة جدا في جنوده. ويذكر، أنّ الرسول (ﷺ)، كانت تصل إليه أخبار المعركة بالتفاصيل الدقيقة، وكأنه كان يشهدها أمامه.

وكان يحدّث بها الصحابة في المسجد بكل تفاصيلها، يصف لهم مشاهدها ويعدد أسماء من يسقط في المعركة. وبالطبع، كان الصحابة يعيشون حالة من القلق الكبير حيال جيشهم، بيد أنّ خالداً عاد بجيشه سالماً، وكان الرسول فرحاً بعودته، ولقبه «بسيف الله».

ومع ذلك، ورغم تلك الشجاعة النادرة والتضحية، لم يتقبل أهل المدينة انسحابهم من المعركة، واستقبلوا جيشهم، المكون من أبنائهم ورجالهم، باحتجاج قاس على العودة. فقابلوه بهتافاتهم مردّدين: «يا فُرَّار، يا فُرَّار، هل فررتم في سبيل الله؟!»

أما الرسول الأكرم، الذي كان فخوراً بصمود جيشه الصغير، أمام جيش يفوقهم خمسين ضعفاً، ولم ينسحب قبل أن يكبّد العدو خسائر فادحة، فقد رد عليهم قائلاً: «ليسوا بالفُرَّار، ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله».

والوقع، أن الجيش انسحب بمكاسبه، لذلك لم يكن انسحاب هزيمة، بل نصر. كما أنّ المحافظة على الجيش والعودة به سالماً، هو انتصار بذاته. يبقى، أن قساوة أهل المدينة على جيشهم، وإن لم تكن مبرّرةً، لم تظهر في الواقع، إلّا روح التضحية الممزوجة بمشاعر الكرامة والعزة لدى المسلمين في ذلك العصر.

فضلاً عن ذلك، كان من شأن الروح القتالية لهذا الجيش الصغير، أن تترك وراءها دهشة واستغراب قادة الروم أنفسهم. فعرفوا جيداً إرادة القتال لدى المسلمين، وحبهم للشّهادة. وسيلقاهم خالد ورجاله قريباً. وأخيراً، فقد فرض جيش المسلمين احترامه على الوعي الجمعي لأهل الجزيرة.

الفصل التاسع مكّة: [إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا]

لم يكن فتح مكّة مقرّراً هذا العام، أي الثامن من الهجرة. لكن الله قدر أن يكون هو عام الفتح المبين. وسيتحقّق فيه وعد الله لرسوله بفتح مكّة المكرّمة. كان عام الانتصار النهائي وتطهير مكّة من الشرك والمشركين وأوثانهم، لتعود مكّة المكرّمة كما كانت في عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام، بحرمتها وجلالها، قلعة ربّانية للتوحيد، مطهّرة بالشرائع الإسلامية، ومباركة بالمناسك المُحَمَّدية.

كما رأينا، وقّع الرسول، في العام السادس من الهجرة، التعهد مع قريش في الحديبية، والتزم ببنوده، كما يجب، نصاً وروحاً. فالرسول، مبعوث الله على الأرض، لا يخون عهوداً، ولا يغدر، ولا يكذب بالتأكيد. فتلك الرذائل ليست من طبائع الأنبياء والرسل، بل ليست من طبائع الصالحين من عباد الله.

ولكن شاءت الأقدار أن يعتدي رجل من قبيلة خزاعة، على آخر من بني بكر، بسبب نزاعات قبلية قديمة. وكانت قبيلة خزاعة التي أسلمت بعد صلح الحديبية، وأصبحت من حلفاء الرسول، تعيش في ضواحي مكّة. وكانت قبيلة بني بكر، بالمقابل، قد وثقت تحالفها بقريش في الوقت نفسه، فانفجرت الفتنة واشتبكت القبيلتان.

نقضت قريش آنذاك تعهدها مع الرسول، وانحازت إلى حلفائها بني بكر، ودعمتهم بالسلاح. وأكثر من ذلك، اشترك بعض رجالاتها، ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، في الحرب ضد قبيلة خزاعة.

وبعد أن فقدت خزاعة العديد من رجالها، وخشيت على نفسها من التصفية، التجأت إلى الكعبة لتحتمي بها، عسى أن تتجنّب مزيداً من القتل. وفعلاً، نادى أحد رجال خزاعة رجلاً من بني

بكر، يدعى نوفل، قائلاً له: يا نوفل، إنّا قد دخلنا الحرم، إلهَك..إلهَك! فرد نوفل قائلاً: لا إله اليوم!!

لم تحترم قبيلة بني بكر حرمة المكان، واستمرت في ضرب خصومها حتى في الحرم الشريف. وسرعان ما أرسلت خزاعة مبعوثها عمرو بن سالم الخزاعي، ليبلغ الرسول خطورة الوضع، ويستنصره. فوعده الرسول بالنصرة قائلاً له:«قد نُصرتَ يا عمرو بن سالم».

لم يكن ممكناً لرسول المسلمين التخلي عن إخوانه المسلمين أو من يرتبط معهم بعهد. ولا يمكن أن تخرق قريش التعهد دونما عقاب. فبكبريائها، فقدت قريش البصيرة، ولم تحسب حساب تداعيات موقفها، خصوصاً موقف الرسول من ذلك. وهي تعلم جيداً أنّ الرسول لن يقبل ما حدث للمسلمين أبداً. وبهذا الخرق للتعهد، أصبح الرسول في حلٍ من تعهد السلم مع قريش.

ونعلم، أنه لم يمض على التعهد إلاّ عامان تقريباً. لكنهما كانا عامين غنيين بالإنجازات للدولة الإسلامية. خلالهما انتشر الإسلام في الجزيرة أكثر، وأُخضع يهود الجزيرة لسلطة المسلمين في المدينة. أولاً يهود خيبر، وثم يهود فدك. وذاع صيت المسلمين وانتصاراتهم في المنطقة وحولها. وبدأ الجميع ينظر إليهم نظرة الاحترام.

لم يكن الأمر يحتمل التأخير. فأمر الرسول (ﷺ) بإعداد الجيش وبدأ التحضير للتحرك. وظلت وجهة الجيش وأهدافه سراً حتى على الثلاثة المقربين إليه؛ أبي بكر وعمر وعلي. وبالطبع، لم تعرف قريش عن استعداد المسلمين، لكنها تعرف، علم اليقين، أنّ مُحَمَّداً (ﷺ)، سوف يعاقبها بطريقته على ما اقترفته يداها بكِبر ورعونة.

في هذه الأثناء، وصل زعيم قريش أبو سفيان بن أمية مسرعاً إلى المدينة لمقابلة الرسول، على أمل التوصل إلى حل لمعالجة ما نجم عن ضرب قبيلة خزاعه، وربما تجديد تعهد السلام. وهو رجل لا يتحرك إلّا عندما يشعر بالخطر الحقيقي.

وبوصوله إلى المدينة، دخل أولاً، إلى بيت ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان التي تزوّجت من الرسول الأكرم بعد موت زوجها في الحبشة. ولكن لم تستقبله كما كان يتوقع، بل أنه عندما أراد أن يجلس إلى جانبها على الفراش، طوت عنه الفراش الملقى على الأرض، فاستغرب الأمر، متسائلاً. فقالت له: هذا فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك ونجس! فردّ قائلاً: والله لقد أصابك بعدي شرّ. فخرج من بيتها متصدّعاً.

وذهب إلى النبي، فرفض أن يقابله. ومرّ على أبي بكر يطلب منه الشفاعة له عند الرسول، فصدّه. ثم ذهب إلى عمر فصدّه، وشعر باشتداد الأمور عليه. وكانت آخر محاولاته لقاء علي بن أبي طالب. فأتاه، وقال له: يا علي، إنك أقرب القوم لي رَحِماً، وإني جئت في حاجةٍ، فلا أرجعن كما جئت خائباً! فاشفع لي إلى رسول الله!

فردّ عليه علي قائلاً: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم الرسول على أمر، ولا نستطيع أن نتدخل فيه[116]. وبسماعه رد علي، يئس من محاولاته، وشعر بانسداد الأفق تماماً. فعاد أدراجه إلى مكّة خائباً.

وحال عودته أخبر قريشاً بأن الأمر جلل، وعليهم أن يتوقّعوا كل شيء. وفعلاً، في العاشر من رمضان، من السنة الثامنة من الهجرة، تحرك الجيش من المدينة وقوامه عشرة آلاف رجل، متجهاً إلى مكّة. وعندما وصل عسكر قريباً منها.

وفي الطريق، التقى الرسول عمّه العباس قادماً ليعلن إسلامه. وقال له: «أنت آخر المهاجرين وأنا آخر الأنبياء». ولما رأى العباس تعداد الجيش، قال: وَاصَبَاح قريش. والله لئن دخل رسول الله مكّة عنوة، قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر!

نبوءة موسى عليه السلام

في تلك الليلة، وفي استعراض مهيب للقوة، أشعل الجيش النيران حول معسكره الضخم. وكان مشهداً لم ترَ المنطقة نظيراً له من قبل. وما أن شهدت قريش النيران، وكأنها تحيط بمدينة مكّة كلها، حتى أصابها الذعر والحيرة. ووصلتها الرسالة النبوية جيداً. وعلق أبوسفيان، وهو زعيم قريش، قائلاً: ما رأيت نيراناً أكثر من هذه قطّ!

وهكذا، تحقّقت نبوءة موسى عليه السلام، حيث قال: «جاء نور الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ من جبال فاران، وجاء معه عشرة آلاف قديس، والشريعة المشعة بيده اليمنى». (سفر التثنية 2/23). كانوا رجالاً اختارهم الله ليسيروا مع نبيهم إلى هذه الغاية الربّانية الكبرى. سيحررون مكّة ويطهرونها من الشرك والوثنية.

وفي المساء خرج العباس من المعسكر مستطلعاً، وفي طريقه التقى أبا سفيان الذي كان يتجول هو الآخر حول المعسكر، فقال له العباس: هذا رسول الله، أتاكم مع عشرة آلاف رجل! فقال أبو سفيان: ماذا تنصحني أفعل؟ قال: أن تركب معي الآن، فأستأمن لك الرسول. فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك!

لم يتردّد أبو سفيان لحظة، فكان يدرك جيداً ما قصده العباس. فركب مع العباس وذهبا إلى الرسول. لكنّ الرسول لم يقابلهما تلك الليلة، وطلب من العباس أن يأتي به في اليوم التالي. وفعلاً، أتى به في فجر اليوم التالي، وأسلم زعيم قريش على يد الرسول.

وحينها، أسرَّ العباس للرسول، قائلاً: إنه رجل يحب التفاخر، فاجعل له شيئاً يفتخر به! فقال الرسول: «فليدخل مكّة وليقل لأهلها: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن». لقد كرم الرسول زعيم أعدائه بشرف لم يكن يتوقعه. وسيصبح بيت أبي سفيأن ملجأً للأمن والسلامة.

ثم أمر العباس أن يقف، هو وأبو سفيان، عند مدخل مكّة، قبل أن يذهب ليبلغ قومه رسالة النبي. وفعلاً انتظر الاثنان، وبعد قليل، بدأ الجيش يتحرك أمامه. وكانت كل فرقة تمثل القبيلة التي تنتمي إليها وترفع رايتها الخاصة بها.

وكلما مرت فرقة، سأل أبو سفيان عنها، فيخبره العباس باسم كل قبيلة. فوجئ أبو سفيان بمشاركة كل تلك القبائل في جيش الرسول. وأخيراً، مرّ الرسول (ﷺ) على رأس كتيبته الخضراء، وهي أكبر فرقة في الجيش، وتضم المهاجرين والأنصار معاً.

فسأل عنها، فأجابه العباس: هذا الرسول يقود فرقة المهاجرين والأنصار. كان المشهد مهيباً ومعبراً. فقال مخاطباً العباس: والله يا أبا فضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. فردّ العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة! فقال: نعم. ثم قال له العباس: الآن اذهب إلى قومك وأخبرهم بما رأيت.

بيد أنه قبل أن يعود إلى مكّة ليخبر قريشاً بما رأى، مرَّ عليه أحد قادة الفرق، سعد بن عبادة. وقال سعد موجهاً الكلام إليه: اليوم، يوم الملحمة. اليوم تستحل الحرمة. اليوم أذل الله قريشاً! وعندما أُخبر الرسول بما قاله سعد، غضب من ذلك، ورد قائلاً: «بل اليوم يوم المرحمة، يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعزّ الله فيه قريشاً». وحالاً أمر عليّاً بأخذ الراية من سعد.

رفض الرسول الأكرم أن يسمع شعارات الوعيد والتهديد بالانتقام. فلم يأتِ رسول الرحمة لينتقم، وإنما أتى برسالة السلام. وهذه المناسبة الكبرى التي سيظهر فيها النبي الأكرم حقيقة رسالة الرحمة والمحبة. حقيقة مكارم الأخلاق والتسامح. حقيقة الإسلام المحمدي. وبهذا السلوك النبوي سيسلم أهل مكة ويعزون به. وحرص على أن يكون الفتح سلمياً. اليوم، كما سيقول، يوم بر ووفاء، وشدد على ألّا تسفك قطرة دم واحدة في مكّة.

من جانبه، ذهب أبو سفيان إلى قريش متأثراً بما رأى، وقال لهم: هذا مُحَمَّد جاءكم فيما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق بابه فهو آمن. وكانت زوجته، هند بنت عتبة، إلى جانبه. فأمسكت ذقنه وصرخت: اقتلوا هذا الحميت الدسم. قبُح من طليعة قوم!

أي: اقتلوا هذا الممتلئ بالشحم، قبّحه الله من زعيم لقريش! لم يكترث أبو سفيان لها، وتابع كلامه قائلاً: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم. فإنه قد جاءكم بما لم تروا مثله من قبل. فإذا كان زعيم القبيلة نفسه منذرهم، فكيف يكون حال المنُذَرِين؟ فهرع الناس إلى منازلهم وأغلقوا الأبواب خلفهم، ومنهم من ذهب إلى المسجد الحرام كما أمر الرسول[117].

قسم الرسول جيشه إلى أربع فرق كبيرة، وأعطى تعليماته لكل قائد محدّداً المداخل التي يجب أن تدخل منها كل فرقة. بحيث تدخل الفرق إلى مكّة من مداخلها الأربعة في وقت واحد. وشدد عليهم بأوامره الصارمة؛ بأن لا يلجأوا إلى السلاح أبداً، إلّا في حال الدفاع عن النفس فقط. وفعلاً كان الدخول سلمياً، أو شبه سلمي.

لم تواجه الفرق الثلاث أي مقاومة، فدخلوها بسلام، باستثناء الفرقة الرابعة بقيادة خالد بن الوليد، التي واجهت مجموعة مقاومة في أطراف المدينة، وكان على رأسها آخر عتاة المشركين، عكرمة بن أبي جهل. فاضطر خالد إلى قمعها، وقُتل منهم أربعة عشر شخصاً، وفرّ الباقون وعلى رأسهم عكرمة. وعندما بلغ النبي ذلك، حزن لحدث لم يكنْ يتمناه في هذا اليوم المبارك، لكنه تفهّم الأمر.

سجود الفاتح!

دخل الفاتح مكّة على جمله، وخلفه حشده الضخم من المهاجرين والأنصار، وخلفهم بقيت الفرق. دخلها بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، لكن لم يدخلها دخول الفاتحين. لم يرفع رأسه مزهواً بالانتصار على أعدائه، ولم يدخلها شاهراً سيفه منتشياً بالنصر العظيم ومتوعداً، بل دخلها ساجداً على ناقته!

سجد تواضعاً وشكراً لله، سجد إجلالاً لمكّة المكرّمة ومكانتها عند الله. كان مشهداً تقشعر له الأبدان، محمّلاً بكل المعاني الدينية والأخلاقية السامية، وليس له، بالتأكيد، مثيل في كل التاريخ البشري.

زفّ إلى مكّة المكرّمة حرمتها وكرامتها، وأعاد إليها روح سيدنا إبراهيم عليه السلام. وما إن دخل حتى طاف حول الكعبة بجمله وعصاه في يده، وكلما اقترب من صنم من أصنامها الثلاثمئة والخمسين، دفعه بعصاه ليسقط وينكسر.

وكان يردد: «جاء الحق وزهق الباطل. جاء الحق وزهق الباطل». ثم طلب تطهير الكعبة من الداخل وإفراغها من أصنامها. وبعد أن تم تنظيفها من بقايا الوثنية والشرك، دخل وصلّى فيها تحية المسجد الحرام.

ثم خرج ووقف على باب الكعبة أمام الحشود التي خرجت من دورها بعد أنّ اطمأنت وشعرت بالأمان الحقيقي. تجمعت حول الكعبة تستمع لأول خطبة يلقيها الفاتح في مكّه، فقال: «لا إله إلا الله، صدق وعده وهزم الأحزاب وحده». ثم أضاف: «يا معشر قريش، إنّ الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب». وتلا الآية الكريمة من سورة الحجرات [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ] [الحجرات 13].

وبعدها سأل أعداءه المنتصر عليهم، سؤاله الشهير، قائلاً: «يا معشر قريش! ما ترون أنّي فاعل بكم؟». فقالوا: خيراً! أخٌ كريم وابن أخٍ كريم. فقال لهم: «لا تثريب عليكم اليوم. اذهبوا فأنتم الطلقاء!». وعم السلام والسكينة في مكة.

دخل الفاتح مكّة ساجداً، وقدّم العفو العام لجميع أهل مكّة وسكانها. عفا عن أعدائه الذين حاربوه وحاولوا قتله مراراً، بل كادوا يستأصلون الدين الذي أتى به من على وجه الأرض. لكنه

عندما دخل فاتحاً، لم يفكر في الانتقام، بل أظهر الأخلاق المُحمَّدية وطبق مبادئه في العفو والتسامح على نحو مدهش.

ولنتذكر أول كلمة ألقاها في ثاني يوم بعد وصوله المدينة. حيث وقف في ساحتها ودعا الناس إلى إفشاء السلام والمحبة. دعاهم إلى الأخوة والتراحم، وبنى مدينته على تلك القواعد الروحية. واليوم، وبعد قرابة العقد، عندما دخل مكّة فاتحاً عفا عن الجميع.

وفي كلمة النصر في مكّة، لم يتحدث عن إسلام الحرام والحلال، ولم يخوفهم بالنار والعذاب وبئس المصير، بل تحدث إليهم عن جوهر الإسلام وقيمه، عن المساواة والعدل واحترام الإنسان في الإسلام. تحدث إليهم عن رفض التمييز والعنصرية. هكذا نزع من قلوبهم روح الكبرياء والجاهلية، وزرع بذور ثقافة السلام والمحبة في قلوبهم.

وغنيٌّ عن القول، إنّ أهل مكّة كانوا قلقين وجلين من دخول جيش المسلمين وانتصار قائدهم عليهم. لكن ومن أول لقاء لهم به لمسوا تجليات الروح النبوية وسموها، فطمأنت القلوب وشعروا بالسلام يعم مكّة المكّرمة. وسريعاً ما دخل الرسول الأكرم إلى قلوبهم.

وكان من شأن هذه المعاملة الحكيمة والكلمة الطيبة، أن يدخل سكان مكّة، كلهم تقريباً، في الإسلام طوعاً وحباً في الإسلام ونبيه. فالقلوب المتعطشة للغة السلام والحب أسلمت دون تردد. لقد أسرهم بسلوكه المتواضع وخطابه الرباني.

من جانب آخر، عندما سُلِّمَ الرسول مفاتيح الكعبة، سأل عن عثمان بن طلحة، الرجل الذي كانت عائلته مسؤولة عن مفاتيح الكعبة في الجاهلية منذ زمن بعيد. فأتى عثمان، فرد عليه الرسول المفاتيح، وقال له: «هاك مفاتيحك يا عثمان! اليوم يوم بِر ووفاء». وبعد أن أعاد إليه الرسول المفتاح، ذكّره بما قال له قبل عشرين عاماً تقريباً. فقال: بلى أتذكر، أشهد أنك رسول الله[118].

فاسترجع عثمان القصة التي حدثت له مع الرسول في بداية البعثة، حين أقبل الرسول الأكرم عليه ذات يوم ينوي دخول الكعبة، فوقف عثمان في وجهه ومنعه. ويتذكر عثمان قائلاً: أغلظت له، ونلت منه، فحلم عني يومئذ. ثم قال له آنذاك: «يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت». فقلت له: هلكت قريش وذلت يومئذ. فردّ عليه الرسول قائلاً: «بل عمرت قريش وعزّت يومئذ».

ثم جلس الفاتح خارج الكعبة يستقبل الذين أتوا ليبايعونه على الإسلام. وبعد أن انتهى من بيعة الرجال، أتى دور النساء. وكانت من بينهن، هند بنت عتبة، التي فتحت صدر عمّه ولاكت كبده. جاءته متنكرة، خوفاً وخجلاً، بغطاء على وجهها. لكن ما ان تحدثت، حتى عرفها، فقال: «أهند؟» فأجابت: نعم، أنا هند، فاعف عما سلف، عفا الله عنك! فبايعته على الإسلام وخرجت. ولم يجرحها بكلمة.

بلال: أول أذان في مكّة

وعندما حان موعد صلاة الظهر، طلب الرسول من بلال رفع الأذان للصلاة. ولأول مرة في التاريخ، صعد بلال على الكعبة. وبدأ برفع اسم الله عليها. وخرجت قريش من منازلها تراقب المشهد بذهول. فهذا بلال، العبد السابق، الذي عُذّب، هنا في مكّة، وكاد يموت تحت التعذيب، ها هو اليوم يصدع بـ(لا إله إلا الله)، من فوق الكعبة.

هكذا، أعاد الإسلام بلالاً إليهم حراً كريماً، يدعو الناس إلى السجود لخالقهم. وكان بعض المشركين يستمعون إلى الأذان، غير مصدّقين لا عيونهم ولا آذانهم. وظهرت ردات فعل بعضهم مشحونة بالكبرياء الجاهلية والعنصرية. فقالت شقيقة عكرمة، جويرية بنت أبي جهل: لقد أكرم الله أبي حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة!

من جانب آخر، كانت مجموعة من رجالات قريش متجمّعة في ساحة الكعبة، من بينهم زعيم قريش أبو سفيان. فقال خالد بن أسد: أكرم الله أبي فلم يرَ هذا اليوم! فقال زميله الحارث بن هاشم: أما والله لو علمت أنه محق لاتبعته. ثم تدخل أبو سفيان قائلاً: لا أقول شيئاً، فلو تكلمت لأخبرته عني هذه الحصى! وما هي إلا دقائق حتى وصلهم الرسول، وقال لهم: «لقد علمت ما كنتم تقولون!». فأخبرهم بما كانوا يتحدثون عنه. فقال الحارث: نشهد أنك رسول الله![119].

وتذكر السِّيَر عن سهيل بن عمرو قوله بعد فتح مكّة: دخلت بيتي وأغلقت الباب، وتذكرت موقفي منه عندما كنت أفاوض مُحَمَّداً في معاهدة الصلح. وتذكرت أني حاربت المسلمين في جيوش قريش في بدر وأُحد. ثم طلبت من ابني عبدالله بن سهيل، الذهاب إلى الرسول ليطلب لي جواراً منه!

فذهب عبدالله إلى الرسول، وسأله: أتؤمّنه يا رسول الله؟ فردّ الرسول: «نعم! هو آمن بأمن الله». ثم التفت الرسول إلى من حوله، وقال: «من لقي سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه. فلعمري

إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سهيل يجهل الإسلام». لم يؤمّنه فحسب، بل حذر من أن ينظر إليه أحدٌ نظرة قد يستاء منها! فلما عاد ابنه وأخبره بما قال الرسول، قال سهيل: «كان والله برّاً، صغيراً وكبيراً».

والغريب أنّ سهيلاً ظل مشركاً إلى حين. لم يسلم مع أفواج أهل مكّة التي أسلمت لله. واللافت أنّ الرسول، الذي منحه العفو، لم يتخذ موقفاً سلبياً منه، بل على النقيض، عامله بكل احترام وتقدير لعقله ومكانته. والأكثر من ذلك، سمح له بالاشتراك إلى جانبه في معركة حنين ضد المشركين المتمرّدين. والحقيقة أنّ تعامل الرسول معه، حببه إلى الإسلام، ودخله طوعاً وحباً فيه. وهنا أيضاً، علمنا الرسول الأكرم كيف نطبق أمر الله تعالى الصريح، لا إكراه في الدين.

وهناك قصة عكرمة بن أبي جهل، عدو الإسلام المعروف. وكان ضمن المجموعة المتمرّدة التي واجهت دخول فرقة خالد بن الوليد إلى مكّة. وبعد أن قمعهم خالد، فرّ هو، محاولاً السفر بالبحر من ميناء الشعيبة القريب من جدة. لكنّ زوجته أم حكيم، أسلمت وأتت إلى الرسول، وأخبرته بأنّ زوجها خاف على نفسه، فهرب. فطلبت من الرسول أن يؤمّنه. فردّ عليها قائلاً: «هو آمن!».

وانطلقت تبحث عنه. وعندما وجدته في ميناء الشعيبة، قالت له: يا ابن العم، جئتك من عند أوصل الناس، وأبرّ الناس، وخير الناس، فلا تهلك نفسك. وقد استأمنت لك رسول الله، وأمّنك! واستغرب عكرمة العفو من رجل بذل كل حياته لقتاله. وبعد أن أكدت له ذلك، عادت به إلى مكّة مطمئناً. وقبل وصوله عرف الرسول بقدومه، فقال لأتباعه: «سيأتيكم عكرمة بن أبي جهل، مؤمناً مهاجراً، فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت»[120].

لم يعف عنه فحسب، بل حرص على ألاّ تجرح مشاعره! حرص على ألاّ يسمع من المسلمين كلمة تحمل مشاعر الكره لوالده. وحال وصوله، أخذته زوجته إلى الرسول وأشهر إسلامه. ثم أكرمه الرسول قائلاً: «لا تسألني اليوم شيئاً، أعطيه أحداً، إلّا أعطيتكه». فقال عكرمة: «إني أسألك أنّ تستغفر لي كل عداوة عاديتكها، أو كلام قلته في وجهك، أو في غيابك». فدعا له الرسول الله بالمغفرة عن كل شيء فعله أو قاله.

أسلم عكرمة وأصبح من أكبر المجاهدين في سبيل الله. وسيتحول هذا العدو اللدود لمُحَمَّد، إلى أكثر الصحابة محبة له. أصبح عابداً، زاهداً، وجاهد حتى استشهد. فضلاً عن ذلك، أخذ عهداً

على نفسه، قائلاً للرسول: سأنفق في سبيل الله، ضعف ما أنفقته لمعاداة الإسلام. وسأقاتل وأجاهد للإسلام أضعاف ما قاتلته ضد الإسلام. وفعلاً، صدق وأوفى بالعهد، وأنفق كل ما لديه للمسلمين وجاهد طول حياته لرفع راية الإسلام. واستشهد في معركة اليرموك ضد الروم عام (15 للهجرة) ، تحت قيادة خالد بن الوليد.

وتذكر له قصة معبّرة، إذ إنه عندما اشتدت المعركة، نزل عن فرسه وكسر غمد سيفه وأوغل في صفوف الأعداء. وعندما رأى خالد ذلك، قال له: لا تفعل يا ابن العم، فإن قتلك سيكون على المسلمين شديداً!

فردّ عليه عكرمة: تنحّ عني يا خالد، فقد حاربت بنفسي ضد رسول الله، أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله؟! ثم نادى بالمسلمين، قائلاً: من يبايع على الموت؟ فبايعه عمّه الحارث بن هشام بن المغيرة، وضرار بن الأزور، وأربعمئة من المسلمين. فقاتلوا ببسالة نادرة، وقيل أنهم استشهدوا جميعاً في تلك المعركة التاريخية.

مررنا على بعض من تلك القصص لأهمّيتها كدروس، تركها لنا رسول السلام، لنتعلم منها كيف تعامل مع أعدائه الذين بذلوا كل ما بوسعهم للنيل منه ومن رسالته. وعندما قابلهم بروح التسامح والاحترام، وعفا عنهم جميعاً، تحولوا إلى رجال أبرار محبين لله ورسوله، بل وجاهدوا، كل من موقعه، جهاداً استثنائياً. وجُلهم كسب الشهادة تحت راية الدولة الإسلامية.

وحتى ذلك العبد الحبشي، الملقب بوحشي، الذي قتل عم الرسول السيد حمزة في معركة أُحد، أتاه مسلماً، فعفا عنه. لكنه الوحيد الذي قال له الرسول، اذهب ولا تُرني وجهك. وعاش طوال حياته ولم ير الرسول مرة ثانية.

وهو الآخر، تحول إلى مقاتل في الجيش الإسلامي. وقدر له أن يشترك في حرب الردّة في جيش أبي بكر الصدّيق. وعلى ما تذكر بعض السِّيَر، أن وحشي هو الذي قتل مسيلمة الكذاب، الذي ادعى النبوة، في تلك المعركة. وقال: إن أنا قتلته فإني قد قتلت خير الناس وشر الناس. وكان يرجو مغفرة من الله، لقتله حمزة بن عبدالمطلب.

وذات يوم، من الأيام القليلة التي قضاها في مكّة، ذهب الرسول ليطوف حول الكعبة وحده. وتبعه رجل يدعى فضالة بن عمير، يمشي خلفه بنية قتله. وقد تجرأ، هذا البائس، على أن يفكر في

قتل رسول الله، وفاتح مكّة، وحوله عشرة آلاف رجل. وكان كل أهل مكّة تقريباً قد أسلموا. ولكن يبدو أنّ فضالة كان أحد بقايا المشركين الأشرار.

فما إن دنا من الرسول حتى عرفه علماً بأنه لم يلتفت ليراه، فسأله دون أن ينظر إلى الخلف: «أفضالة؟». فأجاب فضالة: نعم، فضالة يا رسول الله. فقال له: «ماذا كنت تحدّث به نفسك؟!» فردّ فضالة: لا شيء كنت أذكر الله! فضحك الرسول، ثم قال: «استغفر الله!».

ثم التفت الرسول إليه، ووضع يده على صدره، وسرعان ما سكن قلبه، وظهر على وجهه التغير والانشراح. وبعد دقائق قليلة، تركه الرسول وذهب عنه دون أن ينطق بكلمة. ظل فضالة متسمّراً في مكانه بلا حراك. ثم عاد مسرعاً إلى جماعته، فأخبرهم بالقصة، وقال لهم : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خَلَقَ الله شيئاً أحب إليَّ منه!

يبقى أنّ الرسول، بعد فتح مكّة، لم يهنأ بالراحة والاستقرار؛ إذ كانت تنتظره مهام كبيرة أخرى، قبل أن يعود إلى المدينة. كان أهمّها قيادته للجيش لمواجهة جيش المشركين الضخم الذين رفضوا دعوته واستعدوا لقتاله في منطقة حنين. فوضع حداً لذلك التمرد.

وبعد أن أنجز كل مهامه، وقضى في مكّة تلك الفترة الزاخرة بالإنجازات التاريخية، سمع الأنصار يقولون: إنّ مُحَمَّداً بعد أن فتح الله عليه أرضه، عاد إلى أهله، وسيقيم بها وينسى المدينة. فردّ الرسول عليهم قائلاً: «معاذ الله! المحيا محياكم والممات مماتكم». وبعد أن أنهى معركة حنين والطائف، عاد هو والأنصار إلى مدينته المنوّرة، التي أصبحت عاصمة الدولة الإسلامية.

العودة إلى المدينة

مثَّل فتح مكّة فتحاً للجزيرة بأكملها. فبعد أن تحقّق وعد الله وأمنية رسوله، وأسلمت قريش كلها، وأنهى الحقبة الجاهلية في الجزيرة. وبعد أن تَوَّج الرسول انتصاراته، التي دامت ثمانية أعوام، بفتح مكّة المكرّمة، لم تمض إلّا أسابيع قليلة، حتى كرت سبحة القبائل ولم يبق أمامها من خيار إلّا تبنّي قدر قريش، وخضعت له الجزيرة بأكملها.

هكذا، تحولت الجزيرة إلى أول دولة إسلامية، وأصبح للمسلمين كيانهم القوي وحضورهم المميز على الخريطة. وتحولت المدينة إلى عاصمة لها، ومقر لرئيسها. وبدأت زيارات الوفود تتتابع

إليها. وتدوّن السِّيَر أنّ عدد الوفود وصل إلى تسعين وفداً في النصف الثاني من العام التاسع للهجرة.

أتت معظم تلك الوفود من كل أطراف الجزيرة لتعلن إما إسلامها وإما ولاءها للدولة الإسلامية. وبطبيعة الحال، ثمة مناطق فضلت الاحتفاظ بمعتقداتها وديانتها. وفُرضت عليها الجزية للدفاع عنها، يبقى أنها كلها خضعت لسلطة الدولة الإسلامية.

كان الرسول الأكرم يشرح لتلك الوفود الدين الإسلامي، يبين لها أركانه وأركان الإيمان، ويعلمها الفرائض وغيرها من الشؤون الدينية والعبادية، ثم يترك لها الخيار في أن تُسلم أو لا تسلم. ولنتذكر أنّ المسلمين كانوا المنتصرين وفي أوج قوتهم، وكان بإمكانهم فرض ما يشاؤون على من يشاؤون، ومع ذلك لم يُرغم الرسول أحداً على دخول الإسلام قسراً. فإذا أسلموا طوعاً، أمّر عليهم واحداً منهم، أو ردَّ عليهم أميرهم إن كان أهلاً للإمارة. وعند رحيلهم يبعث معهم رسولاً يفقّههم في الدين ويشرح لهم السّنَن والشرائع[121].

واللافت، أنه عندما أراد وفد نجران، المسيحيون، أن يقيموا صلواتهم في المسجد النبوي، حاول بعض الصحابة منعهم من ذلك. لكن عندما أبلغ النبي طلبهم للصّلاة، وافق وسمح لهم بالصلاة في مسجده. قائلاً «دعوهم يصلوا!». وفي هذا الموقف من التسامح والحكمة بقدر ما فيه من الدليل على الأخوة الإسلامية المسيحية.

وسيدون لنا التاريخ الشواهد على حقيقة هذه الأخوة. وسنرى خلال مرحلة الخلفاء، الذين تشرّبوا العلوم المُحَمَّدية جيداً واستمر الإرث النبوي يسري في عروقهم، كيف كان مستوى تعامل المسلمين الإنساني والأخلاقي مع المسيحيين. فهم إن لم يكونوا إخوةً في الدين، كما قال عليّ، فهم إخوةٌ في الإنسانية.

ويذكرنا التاريخ، أنّ الخلفاء كانوا يخصّصون جزءاً من بيت المال، كضمانٍ اجتماعي، لكبار السن والمحتاجين المسيحيين. وأكثر من ذلك، عرف عن عمر بن عبد العزيز، حفيد عمر بن الخطاب، أنه كان يصرف، من بيت مال المسلمين، لتزويج الشباب المسيحيين في الدولة الإسلامية. وفوق ذلك، دفع ديون المسيحيين واليهود العاجزين عن دفعها. هذا هو الوجه الحقيقي للإسلام المُحَمَّدي الذي نتحدث عنه.

حجة الوداع : «اللهم اشهد!»

من جانب آخر، وفي موسم الحج، من السنة العاشرة للهجرة، قرّر الرسول (ﷺ) أداء فريضة الحج مع من ينوي الحج معه. وكان الرسول يشعر بدنو الأجل. وقد ألمح بأنها قد تكون آخر حجّة له. فتداعت القبائل من كل أطراف الجزيرة، أملاً أن يكون لهم الشرف الكبير وثواب الاشتراك في هذه الحجة الخاصة، مع رسولهم. فاجتمعت القبائل في المدينة. وقد بلغ عدد الحجاج زهاء المئة ألف حاج، وهناك من قال أقل وثمة من قال أكثر. يبقى أنه كان أول تجمع تشهده الجزيرة بهذا الحجم.

كانت حجة الوداع حجّة دينية، تربوية، وتعليمية. ولكن ليست كأي حجّة. هي حجة اكتمال الشرائع السماوية، وإتمام مهمة رسول الله على الأرض. وما إن انطلقوا من المدينة خلف رسولهم، حتى ارتفعت أصواتهم تلبي: «لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إنّ الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك».

وعندما وصل الرسول الأكرم وقافلته إلى منطقة ذي الحليفة القريبة من مكّة، عسكرت حشود الحجاج فيها. وفي الصباح لبسوا الإحرامات كما لبس معلمهم ومربّيهم. ونوى الحج وقام بأدعيتها، وكان المسلمون يرددون الأدعية ويتبعونه في كل خطوة.

وانطلقوا للبدء بمناسك الحج. وعندما شاهد الرسول الكعبة، قال:«اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً ومهابة. وزد من حج واعتمر تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابةً وبرّاً». ثم قام بمناسك الحج، أركانها وأدعيتها. وكان الصحابة يطبقون تعاليمه عملياً، لتترسخ في وعيهم وتكون جزءاً أساسياً من عباداتهم ومناسكهم المُحَمَّدية.

ثم أتت خطبة الوداع لتتويج مناسك الحج النبوي. يودع فيها الرسول الأكرم البيت الحرام، ويودع فيها المسلمين وصحابته. هي شهادة على إتمام الرسالة، وأداء المهمّة التي كلفه الله بها. ودّع المسلمين وأشهَدهم بأنه أتمّ عليهم رسالة السماء. وقد ورد فيها: «أيها الناس، أتدرون في أي شهر أنتم، وفي أي يوم أنتم؟».

فقالوا: في يوم حرام، وشهر حرام، وبلد حرام. فقال: «فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم. ألا هل بلّغت؟». قالوا: نعم! قال: «اللهم اشهد!».

ونزلت سورة التوبة : [إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ]

وتابع خطبته مشدّداً على أن من كانت عنده أمانة لأحد فليرجعها. وطلب منهم رد كل الديون إن كانت عليهم إلى أصحابها. ثم حرم الربا تحريماً قاطعاً واعتبره من الجاهلية. ثم أكمل: «ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيها أنفسكم، ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا هل بلّغت؟». فقالوا: نعم! قال: «اللهم اشهد!».

ثم ذكَّر المسلمين بمكانة النساء واحترامهن. فقال: «إنما أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله. فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً». وأضاف قائلاً: «يا أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئٍ مال أخيه إلّا عن طيب نفس منه. أيها الناس، إنّ ربّكم واحد، إنّ أباكم واحد. كلكم لآدم، وآدمُ من تراب. إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى. ألّا هل بلّغت؟» قالوا نعم! فقال: «اللهم فاشهد!».

ثم أكمل بكلمات فيها توصية وتحذير، فقال: «لقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا بعدي أبداً، أمراً بيّناً: كتاب الله وسنَّة نبيه. وإنكم ستُسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت. فرفع إصبعه إلى السماء، وقال: «اللهم اشهد!..اللهم اشهد!»[122].

وبعد أن بلّغ رسالته، وأشهد على أنه أتم ما أمره الله به، نزلت عليه الآية التوديعية: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا]. باكتمال الشرائع السماوية، اكتملت النعمة الربّانية على خلقه، نعمة السماء على الأرض. اكتملت أنوار القرآن والسيرة النبوية، التي لن يضل من اتبعها أو يشقى.

قبل عقدين، بدأ الرسول ببضع عشرات ممن آمن به وصدقه، واليوم أسلمت له كل الجزيرة وما حولها. بدأت رحلة الرسول بدعوته الناس بأن لا إله إلا الله، وانتهت بإشهاد المسلمين بأنه أدّى الرسالة. فشهد الله أن رسوله قد أتم رسالته على أفضل وجه، وأقر إشهاده للمسلمين وشهادتهم له.

وبانتهاء حجة الوداع عاد الرسول إلى مدينته المنورة ولم يبق له إلّا انتظار لقاء ربه. وعندها نزلت آخر آيات القرآن الكريم: [وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ

وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ].

وقبيل وفاته، ذهب الرسول لزيارة صحابته في مقبرة البقيع. فسلم عليهم ووعدهم بقرب اللقاء. ثم عاد إلى بيته، وقال لصحابته المجتمعين حوله: «أقرئوا مني السلام على كل من تبعني من أمتي إلى يوم القيامة».

وبعد حين استأذنه جبريل عليه السلام بدخول ملك الموت. فقال النبي: «ائذن له ياجبريل». وبعدها بدقائق، سمعوا النبي يقول لملك الموت:«بل إلى الرفيق الأعلى، بل إلى الرفيق الأعلى!!». واغمض عيناه ورحل عنا إلى رفيقه الأعلى.

المراجع

ابن هشام، السيرة النبوية، دار المعرفة، بيروت، 2012.

بنيعيش، مُحَمَّد، البعد التوحيدي للذكر في الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت 2007.

البوطي، مُحَمَّد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية، دار السلام، دمشق، 2015.

الجزائري، أبو بكر جابر، هذا الحبيب مُحَمَّد، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، 2004.

الجوزية، ابن قيم، زاد المعاد، مكتبة المواد، القاهرة 2006.

الجوزية، ابن قيم، هداية الحيارى، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005.

جيورجيو، كونستانس، نظرة جديدة في سيرة رسول الله، الدار العربية للموسوعات، بيروت 1983.

الحلبي، نور الدين علي بن إبراهيم، السيرة الحلبية، (ثلاثة أجزاء)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013.

داوود، عبدالأحد، مُحَمَّد، كما ورد في كتاب اليهود والنصارى، ترجمة مُحَمَّد فاروق الزين، العبيكان، الرياض، 2010.

دويدار، أمين، صور من حياة الرسول، (أربعة أجزاء)، دار المعارف، القاهرة، 1987.

السباعي، مصطفى، السيرة النبوية، دار ابن حزم، بيروت 2010.

السيابي، الشيخ أحمد بن سعود، معالم السيرة النبوية، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، مسقط 2013.

طبارة، عفيف عبد الفتاح، مع الأنبياء في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت 1989.

المالكي، مُحَمَّد علوي، الإنسان الكامل، مركز أهل السنَّة، غجرات، الهند، 2001.

المالكي، مُحَمَّد علوي، الذخائر المُحَمَّدية، دار جوامع الكلم، القاهرة، 1993.

المليباري، عبدالرحمن، سيرة سيد البشرية، دار المعارف، كيرالا، الهند، 2001.

الموسوعة الميسرة في التعريف بنبي الرحمة، رابطة العالم الإسلامي، د.م، د.ت.

الندوي، أبو الحسن، السيرة النبوية، دار القلم، دمشق، 2010.

الواقدي، مُحَمَّد بن عمر، كتاب المغازي، (ثلاثة أجزاء)، دار الكتب العلمية، بيروت 2013.

Notes

[1←]

ابن هشام، السّيرة النبوية، دار المعرفة، بيروت، 2012، ص 313.

[2←]

لو تأملنا حتى في حروبهم القبلية المعروفة، لم يدوّن التاريخ عن العرب ممارسات همجية مثلما فعل المغول في بغداد، أو ما كان يقوم به الفايكنغ (الفيكنغ) في أوروبا، أو ممارسة المهاجرين الأوروبيين «المتحضرين» في التاريخ الحديث، تجاه الهنود الحمر، وإبادتهم للملايين بطرائق لا يتخيلها العقل الإنساني، فضلاً عن تعاملهم مع ملايين الأفارقة الذين سيقوا بالسلاسل من بلادهم عبيداً. وقد رُمي بنصفهم أو أكثر، بعد أن ماتوا مكبلين بأغلالهم في بطون السفن، لأسماك القرش في المحيط.

ويمكن الجزم، بأن كل ضحايا الحروب القبلية في العصر الجاهلي كله، وعلى مدى ألف عام، لا يمكن أن تعادل شيئاً يذكر مقابل ضحايا الهنود الحمر، الذين أبيدوا على يد المتحضرين الأوروبيين. لأن سكان الجزيرة كلها لا يعادلون أعداد الضحايا من الهنود الحمر أو الأفارقة العبيد. ثم كيف كان الوضع الاجتماعي في أوروبا نفسها في تلك العصور الغابرة؟ ألم تكن غارقة في الظلام الدامس والتخلف؟

[3←]

جيورجيو، كونستانس، نظرة جديدة في سيرة رسول الله، الدار العربية للموسوعات، بيروت 1983، ص 86.

[4←]

المرجع نفسه، ص 87.

[5←]

السيابي، الشيخ أحمد بن سعود، معالم السّيرة النبوية، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، مسقط 2013، ص 45.

[6←]

السباعي، السّيرة النبوية، دار ابن حزم، بيروت 2010، ص 35.

[7←]

الجزائري، أبو بكر جابر، هذا الحبيب محمّد، مكتبة العلوم والحكم، المدينة 2004، ص 25.

[8←]

المرجع نفسه، ص. 32.

[9←]

الندوي، أبو الحسن، السّيرة النبوية، دار القلم، دمشق، 2010، ص 23.

[10←]
المرجع نفسه، ص 58.

[11←]
داوود، عبدالأحد: محمّد، كما ورد في كتاب اليهود والنصارى، ترجمة محمّد فاروق الزين، العبيكان، الرياض، 2010، ص26.

[12←]
انظر: المرجع نفسه، ص 30 - 27.

[13←]
ابن هشام، السّيرة النبوية، دار المعارف، بيروت، 2012، ص 214 - 209.

[14←]
الواقع أن بلال من مواليد مكة المكرمة، وأمه حمامة أخت أبرهة الحبشي الذي حاول تدمير الكعبة. وقد نجت حمامة من الطير الأبابيل، وقد أهداها أجد رجال قبيلة خثعم إلى خلف والد أمية بن خلف، فزوّجها رباح، وكان عبداً لديه، وأنجبت بلالاً رضي الله عنه.

[15←]
تجدر الإشارة، إلى أن أول من بنى الكعبة كان آدم عليه السلام. ثم أعاد بناءها النبي شيث. ثم أتى إبراهيم ليرفع قواعدها.

[16←]
المالكي، محمّد الإنسان الكامل، مركز أهل السنة، غجرات، الهند، 2001، ص 14.

[17←]
دويدار، أمين، صور من حياة الرسول، ج 1، د ار المعارف، القاهرة، 1987، ص 119.

[18←]
جيورجيو، مرجع سابق، ص 43.

[19←]
انظر، الحلبي، نور الدين علي بن إبراهيم، السّيرة الحلبية، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013، ص 339 - 338.

[20←]
دويدار، ج 1، مرجع سابق، ص 191.

[21←]

كان النبي (ﷺ)، شغوفاً بزوجته، كثير الاعتزاز بها. وقال في شأنها مرة: كانت مريم بنت عمران خير نساء عصرها، وكانت خديجة بنت خويلد خير نساء عصرها أيضاً. فساوى بين مريم، أم المسيح، عليها السلام وخديجة عليها الصلاة والسلام في المكانة عند الله. والحال، أن السيّدة خديجة لم تحظ بمكانة خاصة في قلب النبي فحسب، بل كانت لها مكانة خاصة عند الله سبحانه وتعالى. فقد بَلَّغ جبريل محمّداً (ﷺ)، ذات يوم، قائلاً له: إن الله يبلغك السلام، ويبلغ خديجة السلام، ويخبرها بأن الله بنى لها بيتاً في الجنة. فردت خديجة قائلة: «الله السلام، وعليك وعليه السلام».

[22←]
الندوي، مرجع سابق، ص 110.

[23←]
المالكي، محمّد الإنسان الكامل، مرجع سابق، ص 13.

[24←]
ابن هشام، مرجع سابق، ص 243.

[25←]
انظر: دويدار، ج 1، مرجع سابق، ص 205

[26←]
ابن هشام، مرجع سابق، ص 277.

[27←]
المرجع نفسه، ص 292 - 281.

[28←]
المرجع نفسه، ص 279.

[29←]
انظر، دويدار، ج 1، مرجع سابق، ص 247.

[30←]
المرجع نفسه، ص 239.

وهنا لا بد من الإشارة إلى قصة بلال بن رباح مع أبي ذر الغفاري. وهي قصة معبرة عن موقف الإسلام من المساواة كقيمة إنسانية وموقف إيماني وأخلاقي، والتمييز العنصري كفعل جاهلي مكروه. فقد اجتمع بعض الصحابة في مجلس يتبادلون أطراف الحديث في موضوع الجيش، وكان منهم خالد بن الوليد وبلال وأبو ذر الغفاري، فقدم أبو ذر اقتراحاً لخالد بن الوليد، لكن بلالاً عارضه قائلاً: لا هذا الاقتراح خطأ. فظهرت النزعة

القبلية عند أبي ذر، علماً أنه من الصحابة الأوائل وقد أسلم على يديه الكثير من المشركين، فقال لبلال: حتى أنت يا ابن السّوداء تخطئني؟!

تأثر بلال كثيراً، وذهب يخبر النبي بما حدث. فغضب النبي، وعندما أتاه أبو ذر، قال له النبي: «يا أبا ذر، أعيّرته بأمّه؟!» فرد: نعم! فقال الرسول:«إنك امرؤ فيك جاهلية!». هكذا وصف الرسول السّلوك العنصري. فطلب أبو ذر من الرسول أن يستغفر له عند الله! وفي طريقه راجعاً، قابل بلالاً، وما إن رآه حتى نام على الأرض ووضع رأسه على التراب. ثم قال لبلال: والله يا بلال لا أرفع خدي من التراب حتى تطأه برجلك!! أنت الكريم وأنا المهان! فأخذ بلال يبكي، واقترب وقبل خدّ أبي ذر، وقال: والله لا أضع قدمي على وجه سجد لله سجدة واحدة.

في خطأ أبي ذر تجاه بلال درس. فقد أخطأ مسلم بحق آخر، واستعمل ضده نعوتاً عنصرية مقيتة، وهذا غير مقبول في الإسلام. وفي رد بلال درس أهم. ولكن أهمّ الدروس هو تشخيص الرسول الأكرم لتصرف أبي ذر، ونعته ببقايا الجاهلية. بالنسبة إلى الرسول (ﷺ)، كل أنواع التمييز بين البشر، في اللون، والعرق، والطبقة، كلها من صفات الجاهلية. وقد أتى الإسلام لإلغائها.

[31←]
المرجع نفسه، ص 218.

[32←]
ابن هشام، مرجع سابق، ص 297.

[33←]
انظر: جيورجيو، مرجع سابق، ص 94.

[34←]
لقد استشهد عمار بن ياسر في معركة صفّين عام 37 هجري، وكان يحارب إلى جانب علي بن أبي طالب ضد معاوية، وقد تجاوز السبعين من العمر. وكانت لعمّار بن ياسر مكانة خاصة عند النبي. وفي حديث يقول الرسول: «من عادى عماراً عاداه الله. ومن أبغض عماراً أبغضه الله... عمار خلط الإيمان بلحمه ودمه. عمار ما عرض عليه أمران إلا اختار الأرشد منهما». وفي حديث آخر قال: «عمار تقتله الفئة الباغية». وعندما أخبر معاوية بقتل عمار بن ياسر، قال: نحن لسنا مسؤولين عن قتله. المسؤول هو عليّ لأنه أتى به إلى المعركة! فرد عليه عليّ قائلاً: هل هذا يعني أن من قتل حمزة هو النبي لأنه أتى به إلى المعركة؟! انظر السّيرة الحلبية، مرجع سابق،ج 3، ص101.

[35←]
الحلبي، السّيرة الحلبية، ج 1، مرجع سابق، ص 391.

[36←]
وجدير بالإشارة، أن حياة عمر بن الخطاب، وإنجازاته، كما الخلفاء الآخرين، تحتاج إلى كتب خاصة بهم. فهو الذي في عهده سيكتمل تحرير الشام من احتلال الامبراطورية البيزنطية. وفي عهده، سيتحرر العراق من

الاحتلال الفارسي، بل سينهي الامبراطورية الساسانية من التاريخ. فقد أسقط، في غضون أعوام قليلة، أكبر امبراطوريتين في ذلك العصر. كما أنه هو من فتح القدس وتسلّم مفاتيحها.

[37←]
طبارة، عفيف عبد الفتاح، مع الأنبياء في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت 1989، ص 362.

[38←]
وقد أتى في حديث شريف: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا قد أعطي سبعة رفقاء نجباء ووزراء، وإني أعطيت أربعة عشر: حمزة، وجعفر، وعلي، وحسن، وحسين، وأبو بكر، وعمر، وعبدالله بن مسعود، وأبو ذر، والمقداد، وحذيفة، وسلمان، وعمار، وبلال».

[39←]
البوطي، محمّد سعيد رمضان، فقه السّيرة النبوية، دار السلام، دمشق، 2015 ص 94.

[40←]
السّيرة الحلبية، ج 1، مرجع سابق، ص 504.

[41←]
الندوي، مرجع سابق، ص 139. وانظر: الجزائري، مرجع سابق، ص 85.

[42←]
جيورجيو، مرجع سابق، ص 154.

[43←]
ابن هشام، مرجع سابق، ص 402.

[44←]
صهيب بن سنان، كان يعرف في مكّة بالرومي، وكناه الرسول أبا يحيى. وكان من أوائل المسلمين. كان صهيب من أهل الموصل، وقد سبته الروم وهو غلام، وعندما شب عوده، هرب من الروم واستقر في مكّة. أسلم فيها ومات في المدينة المنورة.

[45←]
انظر: السّيرة الحلبية، ج 1، مرجع سابق، ص 62 - 61.

[46←]
جيورجيو، مرجع سابق، ص 174.

[47←]
انظر: دويدار، صور من حياة الرسول، ج 2، مرجع سابق، ص 64 - 63.

[48←]
استشهد أبو أيوب الأنصاري وكان في الثمانين من العمر، يجاهد على أسوار القسطنطينية، ودفن فيها. وبعد نحو 800 عام من استشهاده، سيتمكن محمّد الفاتح، الذي سيأتي ليكمل جهاد أبي أيوب الأنصاري، ويفتح القسطنطينية عام 1453، من العثور على قبره بفضل رؤيا أحد شيوخ دمشق. وسيبني له مسجداً في إسطنبول. ويعتبر اليوم أحد أهم معالم الحضارة الإسلامية في تركيا .

[49←]
المالكي، محمّد الإنسان الكامل، مرجع سابق، ص 156.

[50←]
المصدر نفسه وكذلك الصفحة.

[51←]
انظر: المالكي، محمّد بن العلوي، الذخائر المحمّدية، دار جوامع الكلم، القاهرة، 1993، ص 108.

[52←]
()انظر: بنيعيش، محمّد، البعد التوحيدي للذكر في الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت 2007، ص 12، 13، 14.

[53←]
انظر: جيورجيو، مرجع سابق، ص 193.

[54←]
انظر: البوطي، فقه السّيرة النبوية، مرجع سابق، ص 152.

[55←]
انظر: الموسوعة الميسرة في التعريف بنبي الرحمة، رابطة العالم الإسلامي، د.م، د.ت، ص 321 - 320.

[56←]
دويدار، صور من حياة الرسول، ج 2، مرجع سابق، ص 66 .

[57←]
انظر:ابن هشام، مرجع سابق، ص 491 .

[58←]
جيورجيو، مرجع سابق، ص 180.

[59←]
انظر: ابن هشام، مرجع سابق، ص 465، 466.

[60←]
ابن قيم الجوزية، هداية الحيارى، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005، ص 53.

[61←]
الجزائري، مرجع سابق، ص 346.

[62←]
ابن هشام، مرجع سابق، ص 467.

[63←]
انظر: البوطي، المرجع نفسه، ص 153.

[64←]
ابن هشام، مرجع سابق، ص 492.

[65←]
السباعي، مصطفى، السّيرة النبوية، دار ابن حزم، بيروت 2010، ص 78.

[66←]
المليباري، عبدالرحمن، سيرة سيّد البشرية، دار المعارف، كيرالا، الهند، 2001، ص 154.

[67←]
السباعي، مرجع سابق، ص 79.

[68←]
الجزائري، مرجع سابق، ص 144.

[69←]
المرجع نفسه، ص 146.

[70←]
الواقدي، محمّد بن عمر، كتاب المغازي، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت 2013، ص 109.

[71←]
دويدار، صور من حياة الرسول، ج 3، مرجع سابق، ص 322.

[72←]
ابن هشام، مرجع سابق، ص 575.

[73←]
دويدار، صور من حياة الرسول، ج 3، مرجع سابق، ص 323 - 322.

[74←]
الواقدي، مرجع سابق، ج 1، ص 123. انظر: أيضاً، ابن هشام، مرجع سابق، ص 583.

[75←]
انظر: دويدار، صور من حياة الرسول، ج 3، مرجع سابق، ص 336 - 335.

[76←]
المرجع نفسة وكذلك الصفحة.

[77←]
الواقدي، مرجع سابق، ج 1، ص 165.

[78←]
الواقدي، مرجع سابق، ج 1، ص 194.

[79←]
السباعي، مرجع سابق، ص 87.

[80←]
المرجع نفسه، ص 83. انظر: الواقدي، ج 1، مرجع سابق، ص 209 - 203.

[81←]
السباعي، مرجع سابق، ص 84.

[82←]
انظر: الواقدي، ج 1، مرجع سابق، ص 243.

[83←]
دويدار، صور من حياة الرسول، ج 3، مرجع سابق، ص 374.

[84←]
انظر: المرجع نفسه، ص 363.

[85←]
()انظر: الواقدي، ج 1، مرجع سابق، ص 237.

[86←]
ثمة من يعتقد أن الصحابية الجليلة هي أسماء بنت يزيد بن السكن. وغالباً ما يشار إليها بامرأة من بني دينار، لكن الاسم الذي يذكره دويدار هو أم عامر الأشهلية. لا ندري إن كان الاسم الثاني هو مجرد الكنية، أو أنه اسم سيّدة أخرى؟ نحن استعملناه كما ورد في كتاب دويدار: صور من حياة الرسول.

[87←]
انظر: الجوزية، ابن قيّم، زاد المعاد، مكتبة المواد، القاهرة 2006، ج 2، ص 139 - 128.

[88←]
دويدار، صور من حياة الرسول، ج 3 ، مرجع سابق، ص 216.

[89←]
ابن هشام، مرجع سابق، ص 88.

[90←]
المرجع نفسه، ص 159.

[91←]
السباعي، مرجع سابق، ص 87. وانظر: ابن قيّم الجوزية، زاد المعاد، ج 2، مرجع سابق، ص 153 - 152.

[92←]
انظر: الواقدي، مرجع سابق، ج 1، ص 379. وانظر: ابن هشام، مرجع سابق، ص 185.

[93←]
الواقدي، مرجع سابق، ج1، ص 380. ودويدار، ج 3، مرجع سابق، ص 418.

[94←]
انظر: السباعي، مرجع سابق، ص 88 .

[95←]
انظر:ابن هشام، مرجع سابق، ص 193.

[96←]
ابن هشام، مرجع سابق، ص 190. وانظر: الجزائري، مرجع سابق، ص 199.

[97←]
الجزائري، مرجع سابق، ص 201.

[98←]

الواقدي، مرجع سابق، ج 1، ص 407.

[99←]
انظر: ابن هشام، مرجع سابق، ص 198 - 197.

[100←]
دويدار، ج 3، مرجع سابق، ص 426.

[101←]
دويدار، ج 3، مرجع سابق، ص 431.

[102←]
دويدار، صور من حياة الرسول، ج 3، مرجع سابق، ص 441.

[103←]
المصدر نفسه، ص 435.

[104←]
ابن هشام، مرجع سابق، ص 225.

[105←]
ابن هشام، مرجع سابق، ص 286.

[106←]
ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج 2، مرجع سابق، ص 171.

[107←]
الغزالي، محمّد، فقه السّيرة، دار القلم دمشق، 2006، ص 358.

[108←]
وكما تذكر بعض الكتب، أن لعبدالله بن حذافة السهمي، قصة مهمة، أخرى، مع قيصر الروم. حيث وقع عبدالله في السنة التاسعة عشرة من الهجرة، في عهد عمر بن الخطاب، أسيراً لدى الروم مع مجموعة من المسلمين. فعرض عليه ملك الروم التنصر مقابل حريته. فرفض عبدالله، فهدد وعذب وصمد. ثم هدد بالغلي في الزيت، كما فعلوا بأسيرين أمامه، فرفض. ثم قال له القيصر: إذا قبّلت رأسي عفوت عنك. فقال أقّبله إذا شمل عفوك جميع الأسرى. فوافق القيصر. وهكذا حدث. وعندما عاد إلى المدينة، وأخبر الخليفة عمر بالأمر، قال عمر: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبدالله بن حذافة، وأنا أبدأ بذلك!

[109←]
()الغزالي، مرجع سابق، ص 361 .

[110←]
انظر: دويدار، صور من حياة الرسول، ج 3، مرجع سابق، ص 266.

[111←]
انظر: دويدار، صور من حياة الرسول، ج 3، مرجع سابق، ص. 266. انظر: ابن قيم، هداية الحيارى، دار الكتاب العربي، بيروت 2005، ص 59.

[112←]
الغزالي، محمّد، مرجع سابق، ص 361.

[113←]
المليباري، مرجع سابق، ص 271 .

[114←]
قصة زيد بن حارثة مهمة على أكثر من مستوى ومدعاة للتأمل. لماذا سلم الرسول قيادة الجيش لمواجهة الروم، إلى رجل من خارج الأسماء المعروفة، وهو الذي كان قد وهبته السيّدة خديجة للرسول، وأعتقه، ثم تبناه ابناً له؟ واليوم، يكلفه قيادة جيش، من ثلاثة آلاف رجل تحت إمرته. ومن بينهم ابن عم النبي، وأحد أبطال الإسلام، جعفر بن أبي طالب، وكذلك، أشهر قادة العرب، خالد بن الوليد.

الجواب يكمن في أن الرسول، هنا أيضاً، يقدم لنا درساً محمّدياً. فأمامه كل الناس سواسية. ولا فرق بين زيد وجعفر وخالد بن الوليد. ولكل واحد منهم مكانته الخاصة في قلبه الكبير. لكنهم عندالله هم سواسية كأسنان المشط. ولاحقاً، قبل وفاة الرسول، سيبعث أسامة بن زيد بن حارثة، وكان في السابعة عشرة من العمر، على جيش ليحارب الروم مرة أخرى.

[115←]
ابن هشام، مرجع سابق، ص 318.

[116←]
ابن هشام، مرجع سابق، ص 336.

[117←]
انظر: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد،ج 2، مرجع سابق، ص 220، وانظر: الجزائري، مرجع سابق، ص 261 - 259 - 260.

[118←]
ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج 2، مرجع سابق، ص 222.

[119←]
انظر: ابن هشام، مرجع سابق، ص 350.

[120←]
وتجدر الإشارة إلى أن عكرمة بن أبي جهل، كان أحد السبعة الذين أهدر دمهم النبي في مكّة. والذين حاربوا الإسلام وألحقوا به ضرراً كبيراً. وكان منهم وحشي الذي قتل حمزة، وهند بنت عتبة، التي مثلت بجثة حمزة. لكن الرسول عفا عنهم بعد أن أسلموا.

[121←]
انظر دويدار، صور من حياة الرسول، مرجع سابق، ج 4، ص 211.

[122←]
انظر: المرجع نفسه، من ص 216 حتى ص 226 . وانظر كذلك، ابن هشام، مرجع سابق، ص 511-510-509.
وانظر الندوي، مرجع سابق، 400 - 399 - 398 .